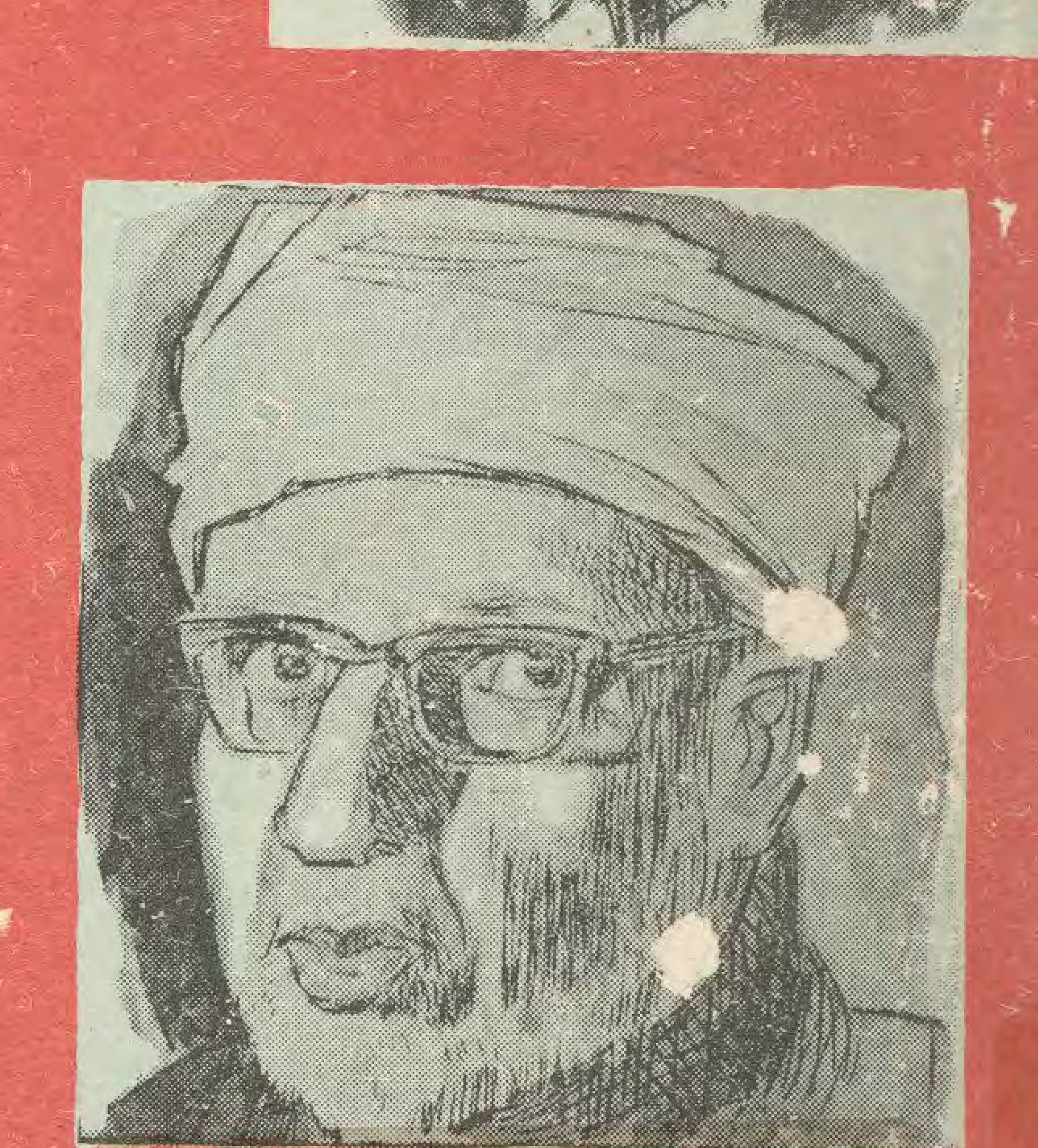


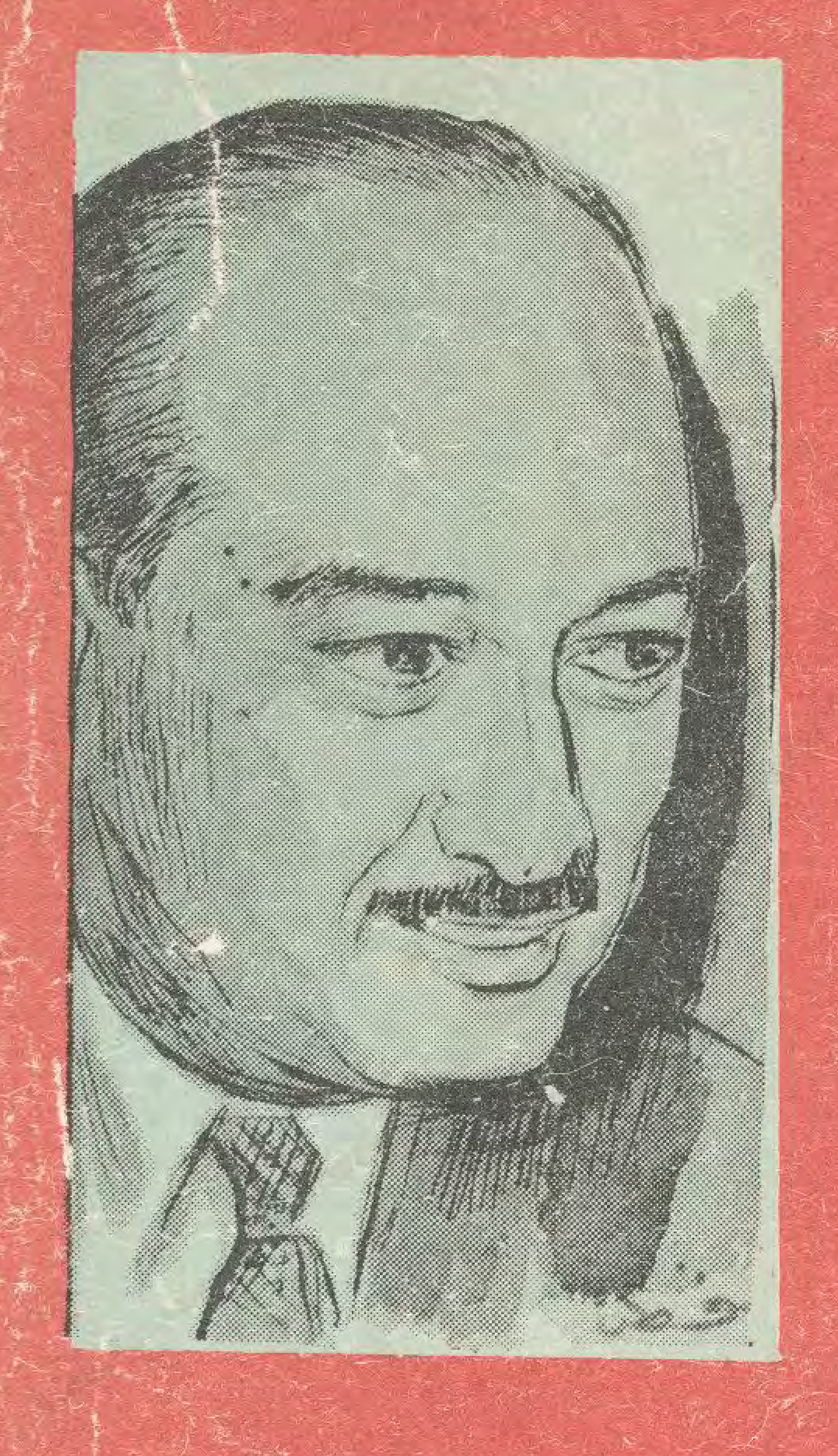
عبد التواب عبد الحي



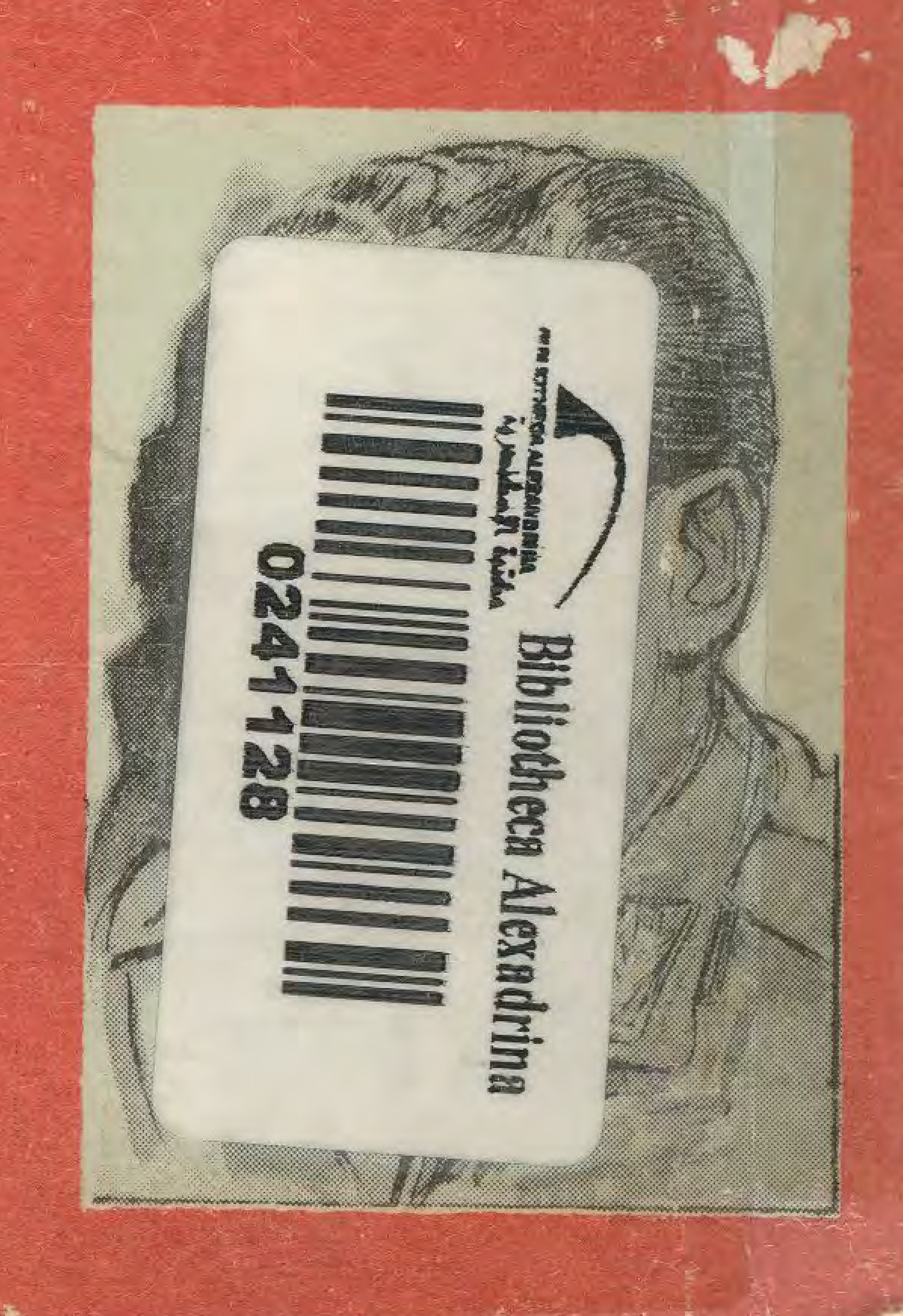




حياة ٣١ شخصية عربية هامة
سبقتك إلى تحقيق طموحها

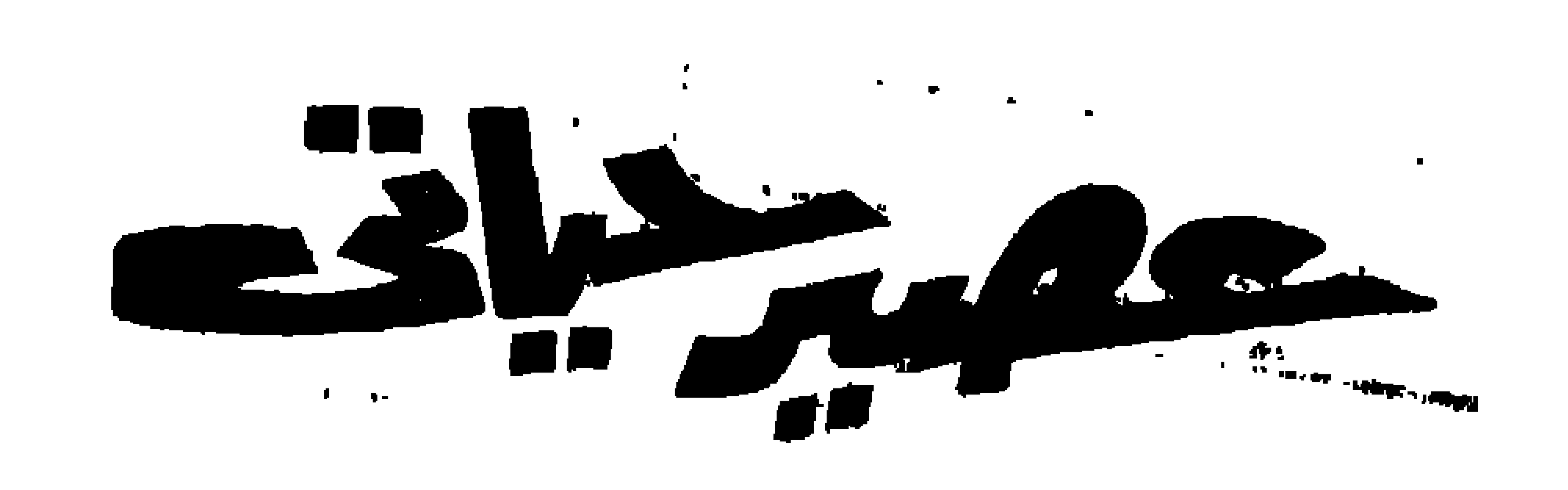








مذاهب
و
شخصيات



حياة ٣١ شخصية عربية هامة
سبقتك إلى تحقيق طموحها!



عصير حياتي

تقديم واعتذار . !

شخصيات هذا الكتاب كلها شخصيات رائدة . أعلام سلطة وسياسة . وقادة فكر وعلم وفن . الكل يقف فى الصف الأول !

والمحاولة أن أقدم لك خبرتهم . وأنقل اليك نبض احتكاكهم بالدنيا ، لتقيس من تجربتهم مقاسك ، وتضبط فى شارع الحياة خطاك !

لكن بعض شخصيات الكتاب انتقل - قبل النشر - من عالمنا . انما بقيت تجربتهم تتنفس وتنبض ، فيها الدرس والعقيدة .. والنظرية .. فيها الحياة !

انها بضاعتى فى جملة : تجربة عمر طويل .. فى صفحات قليلة !

عبد التواب عبد الحي

شخصيات الكتاب

شخصيات سياسية :

١ ــ انور السادات
٢ ــ دكتور عبد المنعم القيسونى
٣ ــ المهندس محمود يونس
٤ ــ كمال الدين رفعت
٥ ــ دكتور نور الدين طراف
٦ ــ عبد الخالق حسونة
٧ ــ الأمير عبد الكريم الخطابى (المرحوم)
٨ ــ السلطان على عبد الكريم

شخصيات ادبية وفنية :

٩ ــ دكتور طه حسين
١٠ ــ فاطمة اليوسف (المرحومة)
١١ ــ فكرى اباظة
١٢ ــ دكتور أحمد زكى
١٣ ــ دكتورة بنت الشاطىء
١٤ ــ نجيب محفوظ
١٥ ــ محمود تيمور
١٦ ــ عبد الرحمن الرافعى
١٧ ــ شفيق غربال (المرحوم)
١٨ ــ أحمد رامى

١٩ ـ عزيز أباظة
٢٠ ـ دكتور محمد مندور (المرحوم)
٢١ ـ بيرم التونسى (المرحوم)
٢٢ ـ جورج أبيض (المرحوم)
٢٣ ـ يوسف وهبى
٢٤ ـ محمد كريم

شخصيات دينيـــة :

٢٥ ـ الشيخ حسن مأمون ـ شيخ الأزهر
٢٦ ـ المقرىء الشيخ عبد الفتاح الشعشاعى (المرحوم)

شخصيات عسكرية :

٢٧ ـ الفريق أول محمد صدقى محمود

شخصيات علميـــة :

٢٨ ـ دكتور محمد صبحى ـ طبيب العيون (المرحوم)
٢٩ ـ دكتور محمد ابراهيم ـ طبيب القلب
٣٠ ـ دكتور ابراهيم مجدى ـ طبيب أمراض النساء
٣١ ـ دكتور عثمان خليل ـ أستاذ القانون العـام بحقوق القاهرة



أنور السادات

أروع لحظات يعيشها الانسان ؟

« وطال بنا الوقوف . وفرغ الحديث . فلعبنـا الاستغماية .. هى تختبىء خلف عيدان الذرة . وأنا أبحث عنهـا حتى أمسـكها .. ثم أختبىء .. أجرى داخل غيط الذرة حتى يخيـل الى اننى وصلت آخر الدنيا . وتبحث هى عنى فلا تجدنى . وعندما يغلب حمارها تنادينى بصوت ملائكى ، فلا أطيق ان أمعن فى الاختفاء .. أجرى نحوها لأسلم نفسى ! » .

الجو بارد ، برودته يقف لها الشعر فى مسام الانسان .. والأسطى « محمد نور الدين » منكمش على نفسه فوق ظهر العربية اللورى يحلم بالدفء .. شد طاقيته فوق أذنيه ، واحتمى فى شوال بطاطس من لسعة البرد التى تخرق عظامه . !

والعربية اللورى تزحف على « طريق المعاهدة » الى بور سعيد .. وكل عدة كيلو مترات تقف أمام فانوس شاحب معلق فى يد عسكرى مرور .. ويمد السواق يده فيها رخصته وداخل الرخصة ورقة من فئة العشرة قروش ، ثم يتمتم وقد كسر جفون عينيه : « مية مسا .. » والعسكرى لا يرد التحية .. يأخذ الرخصة فقط ثم يسلت منها الورقة المالية ، ويعيدها الى السواق وهو يقول : مع السلامة يا .. أسطى باشا .!

ويصل اللورى بور سعيد .. وينشط الأسطى « محمد نور الدين » العتال فى تفريغ الحمولة .. بينما يجلس الأسطى السواق على « قهوة السواقين » يشرب كوبا من الشاى الأسود يذيب به فص الأفيون تحت لسانه ، ويتفق مع السمسار على نقلة جديدة يحملها فى طريق العودة .

وطلعت النقلة طرودا من الهدايا أرسلها الصليب الأحمر الى الأسرى الطليان فى معسكرات الانجليز فى العباسية بمناسبة عيد رأس السنة .. وقال السمسار انها عند « بليس » متعهد النقل فى شارع البحر ببور سعيد ..

ولم يكن السواق قد عمر دماغه بشحنة الكيف اللازمة للطريق ، فطلب من الأسطى محمد العتال أن يسوق العربية ويشحن النقلة ، وقال له : على بال ما ترجع .. تلاقينى جاهز !

ساق الأسطى محمد نور الدين العربية وصندوقها يشخشخ من الفراغ ، وامامه السمسار يجرى على بسكليته ليرشده الى الطريق .. ولم يكن هناك ما يقلق الأسطى محمد .. فالحال معدن ، وموتور العربية يغمره بأنفاسه الدافئة ، وهو خارج أسوار المعتقل الرهيب يسوق عربية من غير رخصة . !

ومن غير أن يشعر ، وجد أمامه فجأة عسكرى مرور يسد الطريق ويطلب منه أن يقف .. وقف .. وقال له العسكرى : « فين الرخصة ؟ »

ولم يرد الأسطى محمد .. وتبجح العسكرى . شخط وهو يقول : « هو يعنى علشان الحرب ما حدش طايلكم .. طلع الرخصة يا ابن الـ .. » .

وتجمع الناس بغريزة القطيع .. وفى دقيقتين كانت العربية اللورى قد تاهت وسط جمع غفير .. وسقط قلب الأسطى محمد فى رجليه .. انه لا يخشى العسكرى ، ولا الرخصة ، ولا يخاف على أكل عيشه .. كل ما يرهبه رهبة الموت أن يسوقه العسكرى الى القسم .. وفى القسم حتمـا سيكشفون حكايته ويعيدونه الى هناك .. الى الظـلام والقيد الرهيب ! .

وانهار الأسطى محمد .. وماتت يده وهى تتشبث بباب العـربية المغلق .. لقد صمم أن يحارب العسكرى ويحارب الجمع الغفير لو حاولوا أن يخطفوه الى قسم البوليس ! . ولكن السمسار عاد .. ركن عجلته على الرصيف ، وصعد على رفرف العربية وهمس فى أذن الأسطى محمد معاك ريال ؟ . وأخرج الأسطى محمد ريالا من جيبه وهو ذاهل ، والتقط السمسار الريال ودسه فى يد العسكرى وهو يقول بأعلى صوته : بتزعق ليه يا شاويش ؟

ورد العسكرى : يا سيدى لا بزعق ولا يحزنون .. ده من العشم .. والأسطى باين عليه غريب عن البلد .. اتفضلوا اشربوا الشاى !!

***

الاسم المستعار : الأسطى محمد نور الدين ..

الاسم الحقيقى : يوزباشى انور السادات ! . وهو يكافح ليعيش بعد أن هرب من « معتقل الزيتون » ، وكان معتقلا فى قضية جواسيس عوامة الزمالك .. والقصة من الواقع .. تحكى تجربة صغيرة من تجارب أنور السادات ، رئيس مجلس الأمة ، فى الدنيا !

***

قال لى أنور السادات :

● فى القرية الطنبور والحقل وصوت ماكينة الطحين .. فى القرية بساطة الانسان وأصالة المجتمع .. فى القرية السلام !

وانا ولدت وعشت فى القرية أخصب أيام حياتى .. ولدت فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨ فى ميت ابو الكوم مركز تلا بالمنوفية .

● أول ما تحركت العاطفة في قلبي كان عمري ٤ سنوات . ذهبت مع نساء البيت الى ماكينة الطحين على مشـــارف القرية لنطحن طحين الموسم . دخلت أتفرج على « الوابور » بقواديسه الضخمة ، ولكن سرعان ما هربت من ضجيج الآلة وانطلقت خارجا الى الحقول .. صادفت صبية في مثل سني تنتظر أهلها ، واشتبك بيننا حديث حالم كالأحلام .

وطال بنا الوقت وفرغ الحديث فلعبنا « الاستغماية » . هي تختبيء خلف عيدان الذرة وانا أبحث عنها حتى أمسكها .. ثم أختبيء انا ، أجري داخل غيط الذرة حتى يخيل الى أنني وصلت آخر الدنيا ، وتبحث هي عني فلا تجدني ، وعندما « يفلب حمارها » كانت تناديني بصوت ملائكي فلا أطيق أن أمعن في الاختفاء ، فأجري نحوها لأسلم نفسي !

وعندما فرغ نساء البيت من الطحين وحانت لحظة الرحيل ، انتزعوا يدي من يدها وعيني من عينيها .. وتمنيت لحظتها لو بقيت معها نلعب ونمرح العمر كله !

● دخلت كتاب الشيخ عبد الحميد عيسى .. كنت أرهب الرجل ، وكانت مفاصلي ترقص وانا انتظر دوري لأسمع اللوح .. وساعة الظهر كنت اجلس في ركن من الكتاب التهم غذائي دشيشا من العيش تختلط به قطع صغيرة من الجبن القريش المحمص .. كنت التهمه حفنة حفنة حتى تفرغ « سيالة » الجلباب فأحس بالشبع !

● دخلت مدرســة طوخ دلـكة الابتدائية .. امضـيت فيها سنة روضة .. عاد أبي من السودان مع القوات المصرية التي ســحبت من السودان سنة ٢٤ على اثر مقتل السردار .. كان أبي يعمـل باشكاتب القسم الطبي .. سكنا في شــارع ابن وصيف بكوبري القبة . انتقلت الى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالزيتون .

كنا نمضي الفسحة نلعب « الاســتغماية » أو « صياد وحمام » .. وبسبب انطلاقة الريف ، كنت أسبق الجميع في الجري !

كانت المدرسة تجري لنا امتحانات شهرية ، وكنت اطلع الأول شهرا واترك شهرا لزميل اسمه « حسن » .. وفي الشهر الذي أطلــع فيه « الفة » الفصل كنت أتلذذ بممارسة سلطاني على زميلي حسن .. وعندما كان يطلع هو « الفة » الفصل لم يكن يتركني .. كان يرد لي الجميل .

● أخذت الابتدائية سنة ٣٠ .

***

● دخلت مدرسة « فؤاد الأول » الثانوية .. نجحت أول سنة ، وفى السنة الثانية شمرت أكمام القميص وقفزت من سور المدرسة ودخلت السينما .. وأصبحت عادة كل يوم . !

جاءنا ناظر جديد للمدرسة ـ اسمه محمد رياض ـ وحاول الناظر الجديد أن يحصل على نتيجة متفوقة للمدرسة فى شهادتى الكفاءة والبكالوريا .. شدد الناظر فى تصحيح امتحانات سنوات الانتقال ، فذقت لأول مرة طعم السقوط فى الامتحان ! اعتبرت سقوطى وصمة العار ، سحبت أوراقى ودخلت مدرسة الأهرام الثانوية الأهلية ، نجحت فى السنة الثالثة مباشرة وأخذت شهادة الكفاءة !

عدت الى مدرسة فؤاد الأول وفى فمى لذة الانتصار ، ولكن المأساة تكررت فى السنة الرابعة ، فسحبت أوراقى وتقدمت لامتحان البكالوريا مباشرة فى مدرسة الأهرام الأهلية .. وهذه المرة ، رسبت من أجل درجة ونصف فى المجموع !

● عدت الى القرية ذليلا يملؤنى شعور بالمهانة .. أحسست فى أعماقى اننى لم ازرع شيئا بينما توقعت أن أحصد كل شىء . ! حدت عن الطريق . استهترت بالواجب . عرفت كيف أغادر المدرسة من طريق آخر غير بابها . أخذت من أبى جنيهات كثيرة لأدفعها أجر درس من المدرسين ، بينما كنت أدرس لشلة من الزملاء وأتقاضى منهم اجرا ! .

وغمرتنى روحانية صافية كسماء القرية ، فكفرت عن ذنبى بالاغراق فى الصلاة !

● تشاءمت من مدرسة الأهرام الأهلية .. دخلت مدرسة رقى المعارف فى السنة التالية وأخذت منها البكالوريا ـ شعبة العلوم ـ سنة ٣٦ .

***

● لم أفكر أن أدخل كلية أخرى غير الكلية الحربية .. فمنذ صباى كنت أجلس فى ليالى الصيف فى جرن القرية أنظر الى النجوم ثم أسرق منها نجمتين أتصورهما على كتفى وأنا بالبذلة العسكرية !

كانت الدفعة فى الكلية الحربية لا تزيد عن ٢٠ طالبا .. أبرمت معاهدة ٣٦ ، وأعلنت الكلية انها ستقبل ٥٢ طالبا . تقدمت للكلية ضمن ١٠٠٠ طالب . امتحنونا فى الرياضة والجغرافيا والحساب . كشفوا علينا طبيا وكشف هيئة . نجح فى النهاية ٥٢ طالبا كان ترتيبى بينهم الـ ٥٢ ! .

● قالوا لنا روحوا هاتوا المصاريف فى اليوم التالى . نمت ليلتى أحلم بالبذلة السوداء والشريط الأحمر !

● كان ــ وزير الحربية ــ فى صحبة النحاس « باشا » وهو يبرم اتفاقية الامتيازات الأجنبية فى « مونتريه » . وتذكر وزير الحربية انه لم يحجز امكنة فى الكلية الحربية لأقاربه وأبناء رجال الحزب . أرسل برقية من مونتريه يطلب حجز ٧ أماكن !

ذهبت فى الصباح الى الكلية الحربية ومعى المصروفات . نادى أركان حرب الكلية أسماء الطلبة ، ثم وقف عند رقم ٤٥ ، وطلب من السبعة الباقين أن يروحوا !

لحظتها ، غامت الدنيا فى وجهى وأمطرت أسى !

● دخلت كلية الآداب . قعدت فيها أسبوعا فلم تعجبنى . حولت أوراقى الى كلية الحقوق . امضيت فيها عشرة أيام ثم هربت منها ! دخلت كلية التجارة ، فراقتنى الدراسة فيها ودفعت ٨ جنيهات قيمة القسط الأول ..

● عاد وزير الحربية من مونتريه . كان يسكن فى منشية البكرى . أول شىء عمله عقب وصوله أن اخذ طالبين من اقاربه ذات صباح ودخل بهما المستشفى العسكرى وملأ لهما استمارات الكشف الطبى ، ثم صحبهما فى سيارته الخاصة ودخل بهما من باب الكلية الحربية .. وعندما نزل الطالبان من سيارة وزير الحربية كانا قد أصبحا طالبين فى الكلية الحربية !

من ملأ لهما استمارات الكشف الطبى ؟

انه باشكاتب المستشفى العسكرى .. أبى !

● ملأ أبى الاستمارات ، ثم ترك عمله وذهب من فوره ليقابل ابراهيم « باشا » خيرى وكيل وزارة الحربية .. وهو جالس ينتظر ، دخل المستر « ثوربورن » كبير المعلمين فى الكلية الحربية فاعترضه أبى وحكى له القصة .. دخل المستر ثوربورن مكتب وكيل الوزارة وخرج ليقول لأبى : روح ابعث ابنك على الكلية الحربية !

● دخلت الكلية بعد أن سبقتنى الدفعة ٢٥ يوما . كان زميلاى فى الدفعة زكريا محيى الدين وحسين الشافعى . التقيت اثناء الدراسة بالرئيس جمال وتعرفت عليه . كانت الحياة العسكرية مثيرة ، ولكنها

لم تكن غريبة على طبيعتى كفلاح .. تخرجت بعد ١٨ شهرا فى فبراير سنة ٣٨ .

***

● خدمت بالكتيبة الرابعة بنادق مشاة فى المكس بالاسكندرية . فى يوليو ٣٨ نقلت مع الكتيبة الرابعة الى منقباد . التقيت هناك بزميل الدراسة الرئيس جمال .. كنا عندما نخلو مع صفوة الأصدقاء نتكلم فى السياسية .. الأحوال السياسية فى تدهور حتى لم يعد للبلد سيد غير الانجليز .. ونحن الضباط الصغار فى انفسنا اعتداد . وفى ايدينا عتاد . وفى قلوبنا ثورة .. وسرعان ما التقت أفكارنا على ضرورة عمل شيء !

● كانت شخصية الفريق عزيز المصرى ، وتاريخه فى الجيش يبهرنا جميعا .. كان الرجل فى نظرنا اسطورة ملؤها الكفاح .. عندما نقلت الى سلاح الاشارة وعدت الى القاهرة فى اكتوبر سنة ٣٩ ، قررت ان اقابله باى ثمن .. قابلت الفريق عزيز المصرى فى عيادة الدكتور ابراهيم حسن بالسيدة زينب .. ذهبنا كالمرضى ، وتقابلنا فى جلسة طويلة فى حجرة خلفية وراء حجرة الكشف !

● بقيت فى سلاح الاشارة حتى سنة ٤٢ . كان روميل على ابواب العلمين ، وقوات الانجليز تستعد للانسحاب الى فلسطين .. وكان فى الجيش تشكيل صغير هو نواة تشكيل « الضباط الأحرار » . فكرنا أن نقوم بعمل نبرر به طلب الاستقلال اذا ما سيطرت قوات النازى على مصر .. قررنا اذا انهزم الانجليز ، أن نسد منافذ القاهرة ونبيد القوات البريطانية !

ارسل الينا روميل جاسوسين « ابلر . وساندى » لنتفق معهما على الخطة .. ارسلنا من طرفنا الضابط الطيار « سعودى » الى روميل فى العلمين . قبض على ابلر وساندى فى عوامة بالزمالك واعترفا باسمى واسم الضابط الطيار حسن عزت .

طردت من الجيش . واعتقلت فترة فى معتقل المنيا . ثم نقلت الى معتقل الزيتون . هربت من معتقل الزيتون ، واختفيت سنة كاملة عن الانظار حتى سقطت الأحكام العرفية فى سبتمبر سنة ٤٥ .

● اشتركت فى تنظيم « جمعية الاغتيالات » كنت همزة الوصل بين جمعية الاغتيالات وتنظيم الضباط الاحرار فى الجيش .

عاد أمين عثمان من آنجلترا وفي نيته أن يزوج مصر لانجلترا زواجا كاثوليكيا ! كان الانجليز يعدونه ليرأس الوزارة . اغتالته الجمعية في يناير سنة ٤٦ .

قبض على . حاول وكيل النيابة أن يكتشف الصلة بين جمعية الاغتيالات وجماعة الضباط الأحرار ، ولكن التحقيق كان يصل الى هذه النقطة وينقطع خيطه !

أمضيت الفترة من يناير ٤٦ الى يوليو ٤٨ داخل زنزانة ضيقة في سجن « قرة ميدان » !

***

● في سنوات السجن والمعتقل تعلمت كيف أقرأ بعمق .. لم يكن أمامي الا أن أختار : اما أن أقرأ ، أو أن ينفجر رأسي من الاحساس بالوحدة ! كنت أقرأ كل الألوان التي تصل الى يدى .. وكنت أسمح للكتاب الذى أقرأه أن يحتوينى بين صفحاته ويفرقنى بخيالاته .

● خرجت من قرة ميدان أبحث عن عمل . اشتغلت محررا في مجلة « المصور » ، ثم استقلت لأعمل في المقاولات . في ستة شهور انجزت مقاولة ٥٣ عملية « مياه صغرى » — طلمبات بخزان وحنفيات للشرب — في ٥٣ قرية من قرى مديرية الشرقية . آخر سنة ٤٩ ، اختلفت مع شريكي في المقاولات فانفصلنا .. وعدت لأضع يدى في جيبى فلا أجد غير قماش الجيب !

بحثت عن عمل ، فاصطدم وجهى بأبواب مغلقة .. لم يكن في جعبتي غير « كارت » أخير ، أن أعود الى الجيش .. أعادنى الفريق محمد حيدر الى سلاح الاشارة برتبة يوزباشي في سنة ٥٠ .

● كان دورى ليلة ٢٣ يوليو ان أحتل مصلحة التليفونات وأقطع عنها التيار الكهربائي لتقف السنترالات وتنعزل القاهرة عن العالم . كنت في رفح عندما أبلغنى قائد الجناح حسن ابراهيم رسالة من الرئيس جمال . كانت الرسالة تقول : « انزل غدا الى القاهرة . سيتم المشروع في الفترة بين ٢٢ يوليو و ٥ اغسطس » .

نزلت الى القاهرة . كان الرئيس جمال قد عودنى أن يقابلنى في محطة مصر ويوصلنى بسيارته « الاوستن » الصغيرة ويبلغنى في الطريق آخر الأنباء والتعليمات .. لم أجد جمال في محطة مصر .. ولم أكن أعلم أنه يدور بسيارته على بيوت الضباط الأحرار ليجمعهم ويقول لهم : موعدنا .. هذا المساء !

● ذهبت الى بيتى فى منيل الروضة ، أخذت زوجتى ودخلنا سينما « الروضة » كما اعتدنا كل أجازة ، وقلت فى نفسى : بكره الصبح .. أفوت على الريس فى البيت .

مر الرئيس جمال على فى بيتى الساعة الثامنة مساء فلم يجدنى . سأل البواب فقال له اننى ذهبت الى السينما . عاد الرئيس مرة أخرى فى العاشرة مساء فلم يجدنى ، أعطى البواب « كارت » وطلب منه أن يسلمه لى شخصيا ..

عدت الى البيت ، سبقتنى زوجتى وأخذت الكارت من البواب .. كان فى الكارت تعليمة قصيرة تقول : « المشروع يتم الليلة .. قابلنى فى منزل عبد الحكيم الساعة ١١ » صاحت زوجتى ساخطة : « مشروع ايه بأه ؟ ! » . قلت لها : « يا ستى مشروع أركان حرب باحضره علشان اترقى .. امال امشى فى الجيش ازاى بس ؟ ! » .

● لبست بدلتى بسرعـــة . كان عندى عربية «فوكسهول» نصف عمر سابقت بها الريح الى قيادة الجيش . احتلت بعض القوات مصلحة التليفونات ولكنها لم تقطع التيـار الكهربائى .. كان ذلك فى صـالح الثورة ، فقد توليت عملية « أخذ التمامات » من رفح والعريش وغزة والاسكندرية بالتليفون .. وبعد منتصف ليل ٢٣ يوليو بساعتين ، قلت للرئيس جمال : « الضباط الأحرار سيطروا على كل القيادات » .

واشعل الرئيس جمال سيجارة راح ينفث دخانها فى هواء الحجرة ، وهو يطرقع أصابع يده نجاحا وارتياحا !

***

قلت لأنور السادات :

● انت ابن الريف .. ماذا بقى لك من طباع الريف ؟

— لا أعرف بالضبط ماذا بقى فى من طباع الريف وعاداته .. ولكنى اعتقد اننى لو تخليت عن الروح الريفية التى تسرى فى دمى ، سـوف افشل حتما فى حياتى ! .

● كانت الثورة الفرنسية رسالة الحرية .. كانت بشير التحرر فى أوربا كلها .. فلم يكد يسقط قصر الطغاة فى فرساى ويتحطم معقـل الباستيل ، حتى أنشدت الألسنة نشيد المارسيلييز ، وتردد صـدى النشيد يهز عروش أمراء الاقطاع فى قلب أوربا ، وفى الشمال .

هل تؤدى ثورة ٢٣ يوليو نفس الرسالة فى المنطقة وفى العالم ؟

ـ ان ثورة ٢٣ يوليو ليست بالقطع ثورة محلية .. وقد أوضحت الأحداث التى شهدتها سنوات الثورة انها ثورة عالمية ذات أهداف انسانية . واشعاعات التحرر التى تنطلق من ثورتنا ليست مقصورة على المنطقة الجغرافية التى نعيش فيها ، بل تمتد الى كل الدول الصغرى المستضعفة فى أى مكان من العالم .

● الثورات تؤثر فى الطبقات .. هى فى العادة تقضى على الطبقة الحاكمة التى غالبا ما تكون طبقة أرستقراط واقطاع .. ثم تحدث تعديلا فى الطبقات صعودا وهبوطا حتى يستوى وجه المجتمع .. كيف أثرت ثورتنا فى مجتمعنا ؟

ـ ثورتنا كما اعلنت عن نفسها ثورة اشتراكية تعاونية . والاشتراكية تهدف ـ فى طبيعتها ـ الى تقريب الفجوات بين الطبقات .. ومجتمع كمجتمعنا كان متطرفا فى الراسمالية لا يعقل أن يحدث فيه هذا التغيير فى غمضة عين .. لابد من وقت يمر ..

وقد استفاد من ثورتنا طبقتان : الطبقة الفقيرة ، والطبقة المتوسطة . بينما لم تخسر الطبقة الاستقراطية كثيرا ، فالذين طبق عليهم قانون الاصلاح الزراعى ـ مثلا ـ يسدد لهم ثمن أراضيهم على أقساط طويلة المدى ..

● فى نظرك .. ما سر الصراع فى هذه الدنيا .. ما سر الصراع بين الأشخاص ، وبين الدول ؟

ـ الجشع والطمع والانفعالات الدنيا .. ان الدول كالأفراد .. كل دولة تبحث عن اكثر مما تحتاج .. والصراع من أجل البقاء موجود منذ خلق الانسان ، ولكنه انحرف عن طريقه الطبيعى .. صارع الانسان الطبيعة من أجل القوت . وصارع الوحوش من أجل البقاء . وأخيرا صارع نفسه !

***

● القيم الانسانية فى خيال الشعراء وأصحاب المبادىء كالجوهر المشع .. لكن الحياة فى واقعها دنس واهواء وطين .. هل يستطيع الانسان أن يحافظ على قيمة الانسانية .. هل يستطيع الانسان أن يحيا نظيفا مائة فى المائة ! ؟

ـ ربما كان واقع دنيانا رهيبا وعنيفا .. ولكن الانسان يستطيع مع ذلك أن يقف فى وجه الشرور والانحرافات ويقاوم الاغراءات بقوة ايمانه .

ان أروع لحظات يعيشها الانسان عندما يستطيع أن يتفـوق على واقعه وان يلتصق بقيمه .. انه يسعد لحظتها بسلام روحى يسرى فى بدنه كالمخدر اللذيذ !

● الناس يحرصون فى حياتهم على هدف .. مبدأ .. تحقيق أغراض قريبة او بعيدة .. ما هو أشد ما تحرص عليه ؟

ـ لو فتحت رأسى فلن تجد فيه أملا شخصيا واحدا .. أكثر من أن اربى أولادى واثقفهم وأعطيهم من تجربة حياتى قدر ما يستوعبون .

اما آمالى الوطنية فتتبلور فى أمل واحـد : أن نكمل بنـاء وطننا الكبير ..

● فى قاع المجتمع ، عشت فترة من حياتك طريد أحكام المحاكم .. كيف استفدت من هذه التجربة المرة ؟

ـ علمتنى التجربة اننا كلنا متساوون ، وأن قيمة الانسان ليست فى مال ولا منصب ولا جاه .. انما فى ذاته ، وفيما تحتويه هذه الذات من قيم ومعان ..

وعلمتنى التجربة أن شـعبنا أعظم شـعب فى الدنيا .. عشـت متنقلا بين طبقاته فوجدت الأصالة الشعبية تتركز فى الطبقـات الدنيا وتخف كثافتها كلما ارتفعت الطبقة وتمرغت فى أحضان المدنية !

وعلمتنى التجربة أن كل مهنة شريفة مادامت تدر دخلا حلالا .. ولو قرش تعريفة ! .

***



دكتور عبد المنعم القيسونى

حبيبس ((الباك جراوند)) !

((... اننى أحنى رأسى باجلال واعتبار لمعلومات الرئيس عبد الناصر الاقتصـــادية ، وأحنيها مرة ثانية لحدة ذهنه وسرعة المامه وفهمه للأمور ..

كنت فى أحلك ساعات ازمة الحصار ، أعرض عليه ((المسألة الاقتصادية)) . أقول له مضمونها الاقتصادى وأشرح له وجهة نظرى من الزاوية الاقتصادية البحتة . ويعلق الرئيس عينيــه فى ســقف الحجرة لحظة ، ثم يسرد على جوانب من الأصداء العالمية التى قد تترتب على ((المسألة الاقتصادية)) صدد البحث ، والتى ربما أكون قد أسقطتها من حسابى تماما !)) .

أول لحظة جلست معه ، وضعت اظـافرى بين اسـنانى وأخذت اقضمها .. فقد حيرتنى شخصيته ! فهو يحمل روح طفل برىء .. الذى فى قلبه يحكيه لسانه ، حتى شككت فى أن يكون قلبه فى فمه !

قال لى وكساء وجهه من حمرة الخجل ، أنهم حبسوه طول عمره فى البيت .. لم يتأخر خارجه مرة فى حياته ، ولم يجد نفسه يوما يتمتع بهذا الحق ! ..

كان لا يتأخر فى صباه لأنه يخشى والده البكباشى فى الجيش .. وكان أبوه « حمشا » ، فى سلوكه عسكرية ، وفى طباعه استقامة وصرامة !

ومات والده ، فلم يجرؤ على أن يتأخر خارج البيت .. كان يخشى ان تعانى أمه الوحدة بينما هو يتمتع بالأنس مع الأصدقاء !

وماتت والدته .. ولم يكن يسهر الى أكثر من العاشرة مساء ، لأنه يعلم ان هناك من تنتظره دائما وفى قلبها حبه .. هناك زوجته !

وهكذا — ببساطة — لم يتمتع مرة بحرية الانطلاق بلا مواعيد خارج جدران البيت !

قال لى هذا الكلام وهو يتلعثم من الحياء .

واستطرد يتكلم عن حياته .. حكى لى طفولته بالتفصيل ، وانتقل وجدانى من مكانه ليعيش معه وهو يحكى .. لقد سرقنى وهو ينقل لى أيام صباه !

***

تتبع الدكتور عبد المنعم القيسونى وهو يحكى حياته :

● عد ٤ سنوات من عمرى من أول ما ولدت فى « مصر الجديدة » فى ٩ يونية سنة ١٦ حتى ٩ يونية سنة ٢٠ ، ولا تسألنى عن هذه الفترة فأنا لا أذكر منها شيئا !

● انتقلت بعد ذلك الى « باب اللوق » .. كان أبى يعمل ياورا لوزير الحربية . كنت ابنه الوحيد ، وكانت لى أخت أكبر منى تزوجت وأنا مازلت طفلا ، وتركتنى وحدى أغرق فى حنان أبى وأمى !

● دخلت مدرسة « الفرير » بباب اللوق ، وبقيت حتى السنة الثالثة الابتدائية وأنا أمسك دفة الفصل ، وأطلع — عن جدارة — الأخير فى الترتيب !

وفى السنة الرابعة سحب أبى منى كل رصيد الحنان ، وبدأ يراقبنى .. « جدول الواجبات » الذى كانت ترسله المدرسة كل يوم كان يقرأه ويشرف على وأنا أنفذه .. والشهادة الأسبوعية التى كانت ترسلها المدرسة أخذ يراجع درجات كل علم فيها ويحاسبنى عليها درجة درجة .. وطلعت فى سنة رابعة .. الأول !

● راعنى التفوق الذى إحرزته ، وقررت أن أحافظ عليه .. دخلت مدرسة الخرنفش الثانوية وطلعت الأول على المدرسة فى شهادة الكفاءة سنة ٣٢ ، وشهادة البكالوريا سنة ٣٤ . لم أمارس طوال فترة الدراسة الثانوية نشاطا رياضيا ملحوظا · غير سنة فى فريق « الكشافة » · وسنة فى «الجوالة» . وسنة مارست فيها السباحة . وسنة حملت فيها الأثقال لأقف نمو طولى الذى بدأ يرتفع الى السماء . لكنى فشلت .. واصبح طولى الآن ١٨٤ سنتى !

● دخلت كلية التجارة وحافظت على الأولوية حتى البكالوريوس .. كانت سنوات الجامعة كلها هزات واضطرابات .. وفى الاضطرابات لم يكن يظهر فى الصورة غير ابراهيم الدماطى — وكان سعديا — وعبد المنعم البيه الأستاذ فى تجارة الاسكندرية — وكان من حزب مصر الفتاة — أما أنا فكنت أظل دائما فى « الباك جراوند » !

ومرة واحدة حاولت أن أقيس بدلة الزعيم !. كان ذلك فى اضطرابات المعاهدة سنة ٣٦ . وقفت على أكتاف الطلبة أهتف ، وفوجئت بالجموع تردد هتافى ، فاندفعت أخطب فيهم .. ويبدو أن كلامى لم يعجبهم ، أو اننى لم احسن تمثيل دور الزعيم فصرخ بعضهم فى وجهى : « انزل .. انزل » !

ووجدت نفسى أنزلق من فوق الأكتاف ، وأفسحت مكانى للزعماء الحقيقيين الذين يجيدون اللعب بالعواطف وبالكلام .. وقررت من يومها ألا أغادر حدود « الباك جراوند » فى أى اضراب !

● حصلت على البكالوريوس سنة ٣٨ بدرجة « امتياز مع مرتبة الشرف الأولى » . مات أبى بعد شهر من نجاحى . سافرت فى أكتوبر من نفس السنة الى انجلترا والتحقت بـ « المدرسة العليا للاقتصاد » فى جامعة لندن . رجعت الى مصر فى اجازة قصيرة فى أوائل سبتمبر سنة ٣٩ . اعلنت الحرب العالمية فى ٢٧ سبتمبر فقررت أن أبقى بجوار أمى ولكنها رفضت وطلبت منى أن اسافر ودعواتها الى الله أن يحمينى ..

سافرت وانشغلت فى الدراسة لم أستطع أن اتصل بمصر وانقطعت اخبارى عن امى .. ماتت أمى فى فبراير سنة ٤١ وأنا فى الغربة ..

● كان الدكتور على الجريتلى والدكتور عبد المنعم البيه يدرسان معى فى المدرسة العليا للاقتصاد وبجامعة لندن . لم تكن جامعة لندن تعترف بالبكالوريوس الذى حصلنا عليـــه من « جامعة فؤاد » فبدأنا ندرس للبكالوريوس من جديد . كانت مدة الدراسة ٤ سنوات ولكننى استطعت ان أختصرها وحصلت عـلى البكالوريوس فى سنتين بمرتبة الشرف . كان المفروض أن أدرس سنتين لأحصل على الماجستير وسنتين للدكتوراه ولكن « البروفسور ويل » أستاذ علم « النقود والتجارة الخارجية » فى جامعة لندن ، عندما قرأ رسالتى للماجستير نقــل اسمى من « قسم الماجستير » وسجله فى « قسم الدكتوراه » مباشرة ! .

كانت رســالتى للدكتوراه فى « السياسات النقدية فى البـــلاد الزراعية المنتجــة للمواد الخام » . حصلت على الدكتوراه سنة ٤٣ . وهنأتنى لجنة الممتحنين ولم تعطنى درجة ما . فالدكتوراه من جامعـــة لندن ومعظم جامعات العالم ليس فيها درجات ! .

● كان البحر الأبيض بحيرة مغلقــة والغواصات الألمانيــة تسرى فى أعماقه . ولم يكن مسموحا بالسفر فى البحر أو فى الجو الا للشخصيات العسكرية والشخصيات الدبلوماسية ذات الشـــأن . أرسلت اسمى الى وزارة المواصلات البريطانية ، فقيدته فى قائمة المسافرين على « أقرب وسيلة مواصلات ممكنة » .

شربت مع سكان لندن كل اللعنة التى صبها الفوهرر هتلر على لندن .. كنت أسكن فى فيللا فى مقاطعة « سارى » على بعد ٨كيلو مترات من لندن ، وفى احدى الغاراتسقطت قنبلة فى حديقة الفيللا . لم يصب أحد بسوء . حدث فقط ان طارت شــبابيك الفيللا ومن ورائهـــا العفش واستقرت فى عرض الطريق ! والباب الرئيسى للفيللا طار ودخل المطبخ! وشظايا زجاج كثيرة دخلت دماغى وجبهتى !.

***

● وجدت نفسى وسط أطلال لندن عاطلا بلا عمـــل .. كان العلم فى رأسى والجوع فى بطنى يلف امعائى على الخواء .. قررت أن أعمـــل بعلمى لأحمى امعائى من الجوع !

وطفت فى شوارع لندن أبحث عن عمل . وجدت فى بنك « باركليز » وظيفة كاتب حسابات بمرتب ٤ جنيهات فى الأسبوع فقبلتها على الفور . استطعت فى سنة واحدة ان أكسب ثقة رؤسائى وارتفع مرتبى الى سبعة جنيهات ونصف فى الأسبوع ، كنت أقبضها بالعملة الصعبة !

● جاء دورى فى السفر وأعطونى تذكرة على احدى البواخر الهندية . كانت الباخرة مسافرة من جلاسجو الى الهند ضمن قافلة تضم ٧٠ مركبا تجاريا ، تحرسها حاملة طائرات وعدد من المدمرات والغواصات . دخلت القافلة مضيق جبل طارق واقتربت من الساحل الفرنسى .. كنا قد دخلنا البحر الأبيض عبر المضيق فى الليل . ولم يكد يطلع الصباح حتى هاجمتنا طائرتان ألمانيتان .. واشتبكت مدافع المدمرات معهما فى معركة سريعة فسقطت طائرة تجر وراءها ذيلا من اللهب والدخان ، وهربت الأخرى.. وصلنا بورسعيد بعد ٥ أسابيع .

● استلمت عملى فى وظيفة مدرس بكلية التجارة فى مارس ٤٤ . امضيت أربعة أشهر وأنا أذهب الى الكلية وفى جيبى قروش كنت أقترضها من الأصدقاء ! لم يصرفوا لى مرتبى الا بعد أن استخرجت « الفيش والتشبيه » واستكملت أوراق تعيينى !

وبحثت عن شقة ولكن أزمة المساكن كانت فى فورتها فسكنت مع شقيقتى .

انتدبت للتدريس فى جامعة اسكندرية ، ثم انتدبت للعمل فى « وكالة الوزارة لشئون ما بعد الحرب » التى أنشأها أحمد ماهر .

كان مرتبى من الجامعة ٢٥ جنيها فقط ، وكانت تكاليف المعيشة أكبر من مرتبى فاندفعت أطرق كل الأبواب لأزيد دخلى .. ومن تصحيح الامتحانات والمقالات التى كنت أكتبها فى مجلة « مصر المعاصرة » ، ومن كتبى ومؤلفاتى الجامعية ، ارتفع دخلى الى ٨٠ جنيها فى الشهر !

● استعارنى « صندوق النقد » و « البنك الدولى » فى واشنطن سنة ٤٦ .. اشتغلت فى قسم الشرق الأوسط بمرتب ٤٤٠٠ دولار فى السنة ، وبعد عامين ارتفع مرتبى الى ٧٧٠٠ دولار .. أى أكثر قليلا من مرتبى الحالى !

نقلت سنة ٤٨ الى القاهرة ممثلا لصندوق النقد الدولى فى الشرق الأوسط .

● رقيت أستاذا مساعدا . وكنت ألقى عدة محاضرات على طلبة كلية التجارة كل أسبوع بالاضافة الى عملى الأصلى .

أنشئت وزارة الاقتصاد فى عهد حكومة الوفد الأخيرة سنة ٥٠ . طلب منى محمد الوكيل وزير الاقتصاد ان أتعاون معه فى وظيفة « قائم بأعمال مدير عام التجارة الخارجية » .

● جاء سليمان غنام الى منصب وزير الاقتصاد بعد محمد الوكيل . حدث بيني وبينه خلاف فاستقلت من الوزارة بعد شهور .

اشتغلت في البنك الأهـلي في منصب مساعد مدير الأبحـاث الاقتصادية . بعد سنة رقيت لمنصب مساعد مدير المركز الرئيسي للبنك .. انتقلت الى منصب مدير النقد الأجنبي في البنك في أواخر سنة ٥٣ .

وفي يوم ما زال محفورا في ذاكرتي .. جاء من يبلغني ان الرئيس جمال عبد الناصر يطلبني لمقابلته في بيته في منشية البكري .

وفي طريقي الى بيت الرئيس ، امتلأ رأسي بدوامة من التخمين والقلق والرهبة .. كنت أستنتج شيئا ثم أحس سخافته فأرفض تصديقـه وأندفع ومن ورائي قلقي أستنتج وأخمن !.

ولم ألتقط أنفاسي الا عندما قابلته ، وعرض علي منصب « نائب وزير الماليـة » . وقبلت المنصب دون أن أتردد .. كان ذلك في ١٦ أبريل سنة ٥٤ وفي أول سبتمبر أصبحت الوزير رقم ٩٠ في أقدم وزارة في الدولة . وبقيت من يومها في المناصب الوزارية ..

***

قلت للدكتور عبد المنعم القيسوني :

● أريد أن ترسم لي صورة مبسطة للرخاء .. ما معنى الرخاء .. وهل يتحقق في حالة مستوى معيشة منخفض ومستوى أسعار منخفض ، وأيضـا في حالة مستوى معيشة مرتفع ومستوى أسـعار مرتفع .. وهل هناك رخاء في روسيا وفي أمريكا ؟ .

ـ الرخاء مسألة نسبية من حيث الزمان والمكان . وهو يتوقف على القوة الشرائية للأجـور .. فالدولة الأكثر رخاء هي الدولة التي أجر العامل فيها يمكنه من شراء أكبر كمية من السلع والخدمات يشبع بها أكبر قدر من احتياجاته .

والولايات المتحدة الآن تتمتع برخاء نسبي .. ففي الأزمة العالميـة سنة ٣٠ كانت الأجور في الولايات المتحـدة منخفضة ومستوى الأسعار منخفضا أيضا . وفي الربع قرن الماضي ارتفعت الأجور في أمريكا بنسبة أكبر من ارتفاع مستوى الأسعار .

وفي روسيا أيضا رخاء ولكنه رخاء موجه .. فالدولة هناك تتحكم في احتياجات الأفراد تشبع الأهم منها وبعده الاحتياجات الهامة .. فالأقل أهمية .

والرخاء يقاس دائما بوفرة الانتـــاج ٠٠ وتستطيع أن تحدد درجه الرخاء اذا قسمت مقدار الانتاج على عدد السكان ٠٠ والرخاء ـ باستبعاد فروض اقتصادية أخرى كثيرة ـ يمكن أن يتحقق فى الحالتين ٠٠ حالة مستوى معيشة منخفض ومستوى أسعار منخفض ، وحالة مستوى معيشة مرتفع ومستوى أسعار مرتفع !٠

● عندما يتقابل الطرفان : الدخل والمنصرف ٠٠ يكون الفرد فى حالة توازن ٠٠ حالة رخاء ٠٠ ولـكن الذى يحدث فعلا ، بين فئـة الموظفين خصوصا ، أن المنصرف يبتلع الدخل فى الأيام الأولى من الشهر ويتركهم بقية الشهر للديون والألم والحرمان ٠٠ وهم يبحثون عن معجزة ؟ !

ـ لقد ثبت من الاحصاءات التى أجرتها «وزارة التخطيط» أن ميزانية الأسرة تختلف باختـلاف العادات والاقليم وتخضع للتفاوت الطبقى ٠٠ وثبت أيضا ان الأسرة قد يتقابل دخلها مع منصرفها فى الريف مثلا بينما لا يتقابل مثل هذا الدخل مع منصرف أسرة مماثلة تعيش فى المدينة ٠

وعلى الشعب ألا يلقى العبء كله على الحكومة ٠٠ وبدلا من أن يبحث صغار الموظفين عن معجزة ، عليهم أن يبحثوا كل الطرق لزيادة دخلهم ٠٠ وطرق زيادة الدخل موجودة وان كانت ليست متوافرة بكثرة مطلقة ٠٠ منها :

١ ـ زيادة العمل ٠

٢ ـ محاولة الحصول على شهادة أعلى ٠

٣ ـ البحث عن وظيفة أحسن ٠

٤ ـ الاتجاه الى العمل الحر واستثمار المال فى المشروعات الصغيرة٠

● كانوا يحاولون أن يعصرونا ويحصرونا ٠٠ ولكننا خرجنـــا من الأزمة على أقدامنا باقتصــــاد سليم ٠٠ قل لى : فى قمة الأزمة ـ تتذكر ـ هل كان رأسك يعمل وحده ٠٠ هل كان الرئيس عبد الناصر يشرف على خططك ٠٠ هل كان يوجهك ٠٠ ومن دراستك لشخصيته قل لى بصراحة رأيك فيه ؟ ٠

ـ اننى أحنى رأسى باجلال واعتبار لمعلومات الرئيس عبد الناصر الاقتصادية . وأحنيها مرة ثانية لحدة ذهنه وسرعة المامه وفهمه للأمور .

كنت في أحلك ساعات الأزمة أعرض عليه « المسألة الاقتصادية » ..
أقول له مضمونها الاقتصادى ، وأشرح له وجهة نظرى من الزاوية
الاقتصادية البحتة .. ويعلق الرئيس عينيه فى سقف الحجرة لحظة ، ثم
يسرد لى جوانب من الأصداء العالمية التى قد تترتب على « المسألة
الاقتصادية » ، والتى ربما أكون قد أسقطتها من حسابى تماما !.

أما رأيى فيه : انه يحمل فى شخصيته كل عناصر الزعامة
الحقيقية . وهو رغم الانتصارات الخيالية التى حققها ما زال كما هو ..
نفس الطيبة . نفس التواضع . نفس الطباع الشعبية التى لم تفسدها
أبهة الحكم وبريق السلطان .

حدث - منذ سنوات - أن انتقل بعائلته الى قصر الطاهرة لظرف
مؤقت .. فقد كانوا يجرون بعض الاصلاحات فى بيته القديم .. ولكن
الرئيس لم يطق أن يبقى فى القصر أسابيع حتى تنتهى الاصلاحات ..
وقال لنا فى اجتماع مجلس الوزراء ذات مساء :

« لقد قررت أن أعود الى بيتى قبل أن تنتهى الاصلاحات .. ان
أبنائى وبناتى يشعرون بغرابة جو القصر عليهم .. وأبنائى عندما يكبرون
سوف يعملون فى وظائف الدولة ويمارسون الأعمال التى يمارسها الشعب،
فلا جاه ينتظرهم غير الذى سوف ينتجه جهدهم ، ولا سلطان يتمتعون به
غير الذى سوف يصنعونه بسواعدهم . اننى عائد بهم الى بيتهم قبل أن
يألفوا حياة القصور » !.

وعاد الرئيس وعائلته الى البيت القديم وعلى عتبته آثار الحصى والطوب
وبقايا الجير !.

● كنت وزير المالية فى احرج وقت مرت به مصر .. ما هو أحرج وقت مر بك انت ؟

- ان حياتى مليئة بالأزمات .. ولم تقف فى وجهى أزمة الا وتغلبت
عليها بسلاحين : ايمانى بالله . وثقتى بنفسى !

● كنا نفسر الغلاء أيام الحرب ، بالحرب .. وانتهت الحرب ، وبقى الغلاء .. لماذا ؟

- ان الغلاء ليس عاما ، فهناك سلع لم ترتفع أثمانها منذ الحرب أما
السلع الأخرى فقد ارتفعت أثمانها لأسباب عالمية .. ويرجع الغلاء أيضا
الى زيادة الاستهلاك والى اننا دولة لا تنتج كثيرا من المواد الخام . ولا

تصنع معظم المواد الخام التى تنتجها •• ولذلك سيصحب التصنيع انخفاض فى أسعار كثير من السلع والخدمات ••

وكلمة أحب أن أقولها للذين يتشدقون بالغلاء وارتفاع الأسعار : ان مستوى الأسعار فى مصر من أكثر مستويات الأسعار انخفاضا بين دول العالم •• هذه حقيقة اقتصادية ثابتة يعرفها كل الذين سافروا الى الخارج •

● ازدهر التأمين فى مصر واستطعنا أن نجد الشركة التى تؤمننا ضد الموت وهو أخطر أخطار الحياة •• فمن يؤمننا على المستقبل ؟ •

ــ مزيد من العمل والانتاج !• عمل الفرد وانتاجه وعمل الجماعة وانتاجها •• وسياسة الحكومة الاقتصادية تضع تأمين الشعب ضد المستقبل هدفا أساسيا لها فى نهاية الطريق ••

● اذكر لى خمسة أدمغة اقتصادية معاصرة ؟ •

١ ــ الدكتور « شاخت » وكان متفوقا فى المسائل النقدية حتى سنة ٤٠ .

٢ ــ دكتور « ايرهارت » مستشار ألمانيا الغربية الحالى .

٣ ــ دكتور « روبنسون » أعظم أساتذة النقد فى الولايات المتحدة •

٤ ــ بروفسور « كلارك » فى انجلترا •

٥ ــ بروفسور « هوترى » فى جامعة « هارفارد » بأمريكا •

● اذا وضعنا المال فى كفة والأشخاص فى كفة •• أيهما يرجح فى نظرك ؟ •

ــ الأشخاص طبعا •• لأنهم القوى البشرية المنتجة التى تصنع المال !•

***

لـخ
٤٧



المهندس محمود يونس

العسكرية تتزوج المدنية !

ساقول لك : ان بين قلبى ولسانى اتصالا سلكيا مباشرا .. وأنا لا أرتكب الخطأ عن عمد أو اهمال .. ولا افعل في السر شيئا يحرجنى قدر شعرة ، او انكشف وبان ! .

جرىء الى أبعد حد ، لا أخشى أحدا سوى الرب الذى يطل على من السماء .. أحرص دائما على أن لا أتحمل فوق ما أطيق ، وألتزم دائما بكل ما أتحمله . لا أدخن . ولا أشرب الخمر . ولا أمارس القمار . وليس لى فى دنيا النساء أكثر من زوجتى ! .

مسالم جدا ، وصبور بلا حدود .. حبال صبرى فى معاملاتى مع الناس تمتد الى أبعاد طويلة مثل أسلاك التليفون ..

لكن .. خاف منى ، فأنا ((قرصنى والقبر)) ! .

رسا « اللانش » على الشاطىء الشرقى لقناة السويس ، عند الكيلو ٢٨ جنوب بور سعيد .. وحاول « جونز الكبير » ـ هكذا يسميه أعز من يحب ـ حاول أن يقفز الى الشاطىء . وفى هذه اللحظة تقدم منه عامل عجوز ليحمله على أكتافه .. ورفض « جونز » . قال للعامل العجوز : « يا بويا دانا أقوى منك .. حتى شوف .. » .. ثم قفز أمامه وسبح مترين فى الهواء قبل أن ترتطم قدماه بصخور الشاطىء ..

وقفزت وراءه ! .

انهم هنا يوسعون القناة بالعرض وبالعمق .. آلاف العمال من شرق الدلتا وأعالى الصعيد ، فوق جباههم حبات عرق ساخنة . وعضلاتهم ناضجة نافرة . وقد انهمكوا فى عمليات الحفر بهمة واندماج .. انهم نفس العمال الذين حفروا القناة تحت لسع السياط وقهر أعوان « دى لسبس » . نفس العمال الذين كتب عنهم أيامها المهندس الفرنسى « أوليفييه ريت » : « ان العمال المصريين اذا أحسنت قيادتهم مدهشون حقا . انهم ذوو جلد عظيم ومع كل يوم يزدادون خبرة ومهارة .. لقد استطاعوا فى أقل من ٥٠ يوما أن يرفعوا مليون متر مكعب من الطين حفرا ونقلا .. بينما كانوا كل الوقت أرجلهم فى الماء ، وليس على رؤوسهم غير السماء . ! »

انهم نفس العمال . وطعامهم ساعة الظهيرة نفس الطعام . ولكن .. ثمة فرق هائل تلمحه بقلبك .. انهم يعملون هذه المرة باندماج ومزاج .. لا صرعى ، ولا ضحايا ، ولا كرباج يهوى بقسوة فوق الظهور العارية ! .

وانفلت محمود يونس يمشى بين جموع العمال .. كان يسأل رئيس كل مجموعة منهم :

« بتعملوا كام متر فى الطريحة ؟ » ثم يناقشه بالمتر والساعة ، ويقيس جهد المجموعة كلها فى اليوم بدماغه !

ونحن نسير ، كان العمال يقابلوننا بانفعالات قلبية ساذجة .. كان بعضهم يقول « انتو نورتونا » . وبعضهم كان يتوقف عن الأكل ليحيينا ، ثم ينطلق بفمه المحشو بالطعام يغنى موالا وطنيا شعبيا .. واحد منهم فقط كان يأكل ، وقال لنا « اتفضلوا الغدا » . ورد عليه محمود يونس : « تعرف انك أول واحد كريم قابلناه » .. ثم مال على يده الممدودة برغيف ، أخذ الرغيف وأعطانى نصفه ، وعدنا الى شاطىء القناة وأسناننا تطحن العيش الجاف ، وخلفنا من يقول :

ـ ياسلام يا رجاله .. ياسلام ع الانسانية والنفس الحلوة !

وقفز « جونز الكبير » ـ هكذا يسميه أحب الناس ـ الى «اللانش» .

ونحن فى عرض القناة ، استبد بى الشعور بالوطن فقلت دون وعى « هذه القناة بقت بتاعتنا .. بتاعتنا كلنا .. » ورد محمود يونس : « دى بتاعتنا من زمان .. من زمان خالص .. من اللحظة التى هوت فيها أول فأس هنا تشق الرمل والطين » .

عدنا الى الشاطىء الغربى للقناة . كانت السيارة تنتظر بعيداً أبعد من ١٠٠ متر . وكالعادة وضع محمود يونس أصابعه فى فمه ، وأطلق صفارة رفيعة حادة وجاء السائق بالسيارة يجرى .. وانطلقنا فى الطريق الى الاسماعيلية وأرخى « جونز الكبير » كل عضلاته وأعصابه وراح يحدثنى عن نفسه وعن حياته .. كنت أستمع اليه بأذنى ويدى تكتب ما يقول . أما عيناى فكانتا تسرحان من لحظة للحظة نحو اليسار لترقب مركبا يشق طريقه فى القناة .. ومن اسم المركب ومن العلم الذى يرفرف فوق أعلى الصارى كنت أخمن جنسيته !

***

قال لى المهندس محمود يونس :

● لا أستطيع أن أقول لك اسمى كله .. فالمسألة تحتاج الى شرح !

انا اسمى : محمود يونس .. وأبى : احمد يونس الشهير ب « يونس » فقط .. لذلك تستطيع ان تعتبر « يونس » اسم أبى ، أو الجزء الآخر من اسمى . !

أمى ولدتنى فى بيتنا الذى كنا نملكه بشارع الاربعين نمره ٧ فى حى السيدة زينب . ولدت سنة ١٢ ، وأحتفل فى العادة بعيد ميلادى فى ٣ ابريل من كل عام .

كان أبى موظفا فى السكة الحديد ، وكان يملك بضعة فدادين لا بأس بها من الأرض فى منيا القمح . ومن مرتبه ، ومن ريع الأرض كنا نعيش .

● دخلت « كتاب الشيخ محمود » فى شارع العدوى بالسيدة زينب . تعلمت « الألف باء » وكتبت حروفا بقلم « بسط » وحبر كوبيا على لوح من صفيح . انتقلت الى « المدرسة المصرية » فى شارع « السد الجوانى » . كانت مدرسة روضة أطفال . وكنا نلبس زيا موحداً : بدلة جاكتتها مقفلة وبلا ياقة .. مثل زى عساكر البوليس !

تفتحت آذناى ، لأول مرة ، على هتافات المتظاهرين فى ثورة ١٩ . كانت المظاهرة تمر أمام المدرسة وكنا نخرج اليها نتدحرج على أقدامنا

الصغيرة ، ونهتف مع المتظاهرين : « يا عم حمزة .. احنا التلامذة .. مايهمناش فى القلعة نبات والا المحافظة ! » .

شقيقى الدكتور عبد الحميد يونس كان أكبر منى بسنتين . فى يوم خرجنا معا واندمجنا فى مظاهرة كبيرة عرجت المظاهرة على شارع الأزهر ، وتوغلت بعيداً . بعيدا . حتى لم نعد نعرف طريق العودة الى بيتنا !

وصل المتظاهرون الى الجامع الأزهر ليجدوا الانجليز فى انتظارهم صفوفا صفوفا بعرض الشارع . انطلق رصاص الانجليز فى وجوهنا وسقط على أرض الشارع عشرات من الشهداء والجرحى . تسللت أنا وأخى الى شارع جانبى ورحنا نبحث فى حى الأزهر عن بيتنا .. وبيتنا فى السيدة زينب !

عثرنا على البيت ساعة الغروب . وجدنا العائلة كلها تبحث عنا .. كانت أمى تضع يدها على قلبها وأبى يدعك بأصابعه لحم جبهته . ويومها قال لنا أبى كلاما كثيراً .. نصحنا بأن نحافظ على انفسنا ونحرص من غدر الانجليز ورصاصهم . ولكنه لم يقل لنا ألا نشترك فى المظاهرات . وأيقنت بفطرتى أنه تعمد الا يقولها !

***

● عشقت الكرة « الشراب » وظهرت على أعراض حب اللعبة منذ دخلت مدرسة « محمد على » الابتدائية . كنت كل صباح أبحث عن « طوبة » ملفوفة الأضلاع أسوقها بقدمى أمامى حتى أصل الى المدرسة ثم أركنها بجوار البوابة لأعود بها الى البيت آخر النهار !

ولهذا السبب وحده ، كان حذائى دائما بلون الأرض ، لا يلمع أبدا ! واكثر الأحذية متانة كان لا يصمد فى قدمى أمام طوب الشارع سوى أسبوعين ، ثم يفتح فمه لتطل أصابعى منه على العالم ! . جرب أبى معى كل أنواع الأحذية . كان فى شارع الموسكى محل أسمه « جوستر » يصنع الأحذية من جلد صلب ، ويرصع نعلها بقطع الحديد والمسامير .. وصمدت أحذية « جوستر » أسبوعا ثالثا ! .

● لعبت سنتين فى « القسم المخصوص » بالمدرسة . كانت المنافسة حامية بين مدرستنا ومدرسة باب الشعرية ، ولكننا انتصرنا وأخذنا « الصينية » — يعنى الدرع — سنتين متتاليتين !

● استبدت بنا هواية الرياضة فانشأنا ناديا رياضيا باسم : « نادى الطلبة » .. أجرنا للنادى « حوش أيوب بك » فى السيدة ، بـ ٥٠ قرشا

في الشهر . اشترك في النادى ٩٦ تلميذا ، وكان رسم الاشتراك قرشا واحدا في الأسبوع ..

● كان من بين زملائى في المدرسة فتحى رضوان وزير الارشاد سابقا ، واحمد حسين ، والمرحوم محمود مختار التتش .. وكان التتش « كابتن » فريق الكرة في المدرسة ونجم الملعب . وفي اى مباراة ، عندما كان التتش يشوط الكرة في أى مكان في الملعب ثم يقع على الأرض . كنا نلهب أيدينا بتصفيق حاد ونزأر له بالهتافات .. فما دام التتش قد وقع على الأرض .. اطمئن .. فالكرة حتما قد سكنت الشبكة !

● كنت في ابتدائى تلميذا عاديا .. كنت أحمل في عقلى ذكائى ، ولكنى لم أكن أستعمله ! كنت ألعب وأشترك في المظاهرات لأخرج كل مافي صدرى من طاقة ثائرة .. لست في نفسى ميلا للحساب والرياضة بوجه عام .. أخذت الابتدائية سنة ٢٤ .

● دخلت مدرسة « الخديوية » بدرب الجماميز .. طلعت في هواية جديدة .. هواية الموسيقى .. دخلت فرقة الموسيقى بالمدرسة وتعلمت النفخ في « الفلوت » .. تقلصت هواية الموسيقى في نفسى على مر السنين ، حتى أصبحت الآن مجرد « دندنة » على البيانو بأصبع واحد كلما سنحت الفرصة !

● بدأت الطاقة الثائرة تخرج من صدرى وتأخذ مظهرا . أصبحت أحرص على الاضرابات وأشترك فيها بدور ايجابى . صنعت « نبلة » بقوس من حديد وجلد جامد مزدوج .. العساكر الذين كان يضربوننا في المظاهرات لم أعد أجرى أمامهم .. كنت أتحصن في أحد زوايا الشارع وأطلق على رءوسهم الزلط الصغير وقطع البازلت الأسود !

● اشتريت مسدسا « براونج » بخمسين قرشا .. كانت المسدسات تهرب من ميناء الاسكندرية ، وكنا نستوردها الى القاهرة بسعر رخيص . طلعت مرة فوق سطوح البيت وأشعلت نارا في صفيحة قديمة ووضعت فيها طلقة من رصاص المسدس . بعد نصف دقيقة دوت الطلقة بصوت مسموع .. طلعت أمى على صوت الطلقة .. قالت لى : انت معاك مسدس ؟ قلت : آه .. قالت : ح أقول لأبوك لما ييجى . !

وبالفعل قالت له .. وسألنى أبى عن نوع المسدس قلت له : براونج . قال لى بتعرف تستعمله على كده ؟ .. أجبته باعتزاز : .. زى الجن ! قال : طيب يا ابنى .. وسكت . ولما اطمأننت أنه لن يأخذه منى أخرجته من جيبى ووضعته في يده وقلت : تتفرج عليه يا بابا ؟ !

وكنت كلما خرجت وفى جيبى المسدس شعرت بأننى أكثر رجولة ! وكنت أجد لذة هائلة عندما أمر أمام قسم السيدة والعساكر منتشرون على الرصيف ، ومسدسى فى يدى أقذفه ٥ أمتار فى الهواء ثم ألقفه وبدنى بقشعر من اللذة والرهبة • ويتركز انتباهى كله فجأة على صوت أحد العساكر وهو يشخط فى : ماتجرى يا ابنى تلعب بعيد !!

● كنت أسمع خطب سعد زغلول واقرأها .. واظبت على قراءة جرائد : الاهرام • كوكب الشرق • السياسة الأسبوعية • ومجلة اللطائف المصورة • كنت أقرأ بنهم لأرتبط بالموقف السياسى وبالأحداث •• وعلى الجانب الآخر ، كان أبى يحكى لنا فى جلساته معنا كل مابعه ذهنه عن : أحمد عرابى ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، والشيخ محمد عبده •

● ازداد ميلى للعلوم الرياضية ، ولا سيما الهندسة والجبر وحساب المثلثات •• حصلت على النمر النهائية فى الرياضة والميكانيكا فى امتحان الكفاءة سنة ٢٨ ، والبكالوريا سنة ٣٠ .. تعلقت بالسباحة وتعلمتها فى « حمام المعارف » . مارست الملاكمة عدة شهور ، ثم هجرتها .. فأنا لا أحب أن أقتل غريمى !

● كان لى جد طبيب اسمه « يونس الحكيم » . أصر أبى أن أدخل « مدرسة الطب » لأتخرج « حكيما » مثل جدى ••

مالى ومال « الكيميا العضوية » و « الكيميا غير العضوية » ؟! مالى ومال التشريح وعلم « الأقروبازين » ؟! اننى أميل الى العلوم الرياضية ، ولذلك رسبت فى اعدادى طب •• لم يكن أمامى اذا دخلت « الملحق » الا أن أحول لمدرسة الصيدلة أو طب الأسنان • أضربت نهائيا عن دخول الملحق ،وأقنعت أبى أن أدخل مدرسة الهندسة • دخلت مدرسة الهندسة الملكية سنة ٣١ •

● بعد سنتين تحولت المدرسة الى كلية . كونت أول فريق للجوالة فى الكلية وقمنا برحلة الى الاسكندرية سيرا على الأقدام • كنا نسير ونجر أمامنا « عربة يد » عليها خيامنا وكل لوازم المعسكر • عسكرنا فى سيدى بشر • كان بجوارنا معسكر اصلاحية الأحداث • وفى يوم نزل صبية المعسكر يستحمون فجرفهم الموج وكادوا يغرقون بالجملة •• استنجد بنا المشرفون فنزلنا جميعا وراءهم •• استطعت أن أنقذ وحدى خمسة من الغرقى !

● بدأت لا أقتنع بدور ثانوى فى الاضرابات ، فأخذت لنفسى دور الزعيم !

اشتركت فى « لجنة الطلبة التنفيذية » • وأصبحت أتزعم المظاهرات وأخطب فى المدرجات وأسوق الترام الذى يعترض سير المظـــاهرة •• أسوقه بمفاتيح مصطنعة !

وعشت اضرابات معاهدة ٣٦ كلها ، وشهدت حادث كوبرى عباس • يوم استشهد عبد الحكم الجراحى •• كنا نتقدم المظاهرة وننظم صفوفها أنا وزميل من الهندسة اسمه « مصطفى طلحة » . وزميل آخر من الطب أذكر أن اسمه « محمد بلال » • انصبت صفوف المظاهرة الصاخبة داخل كوبرى عباس وأصبح الكوبرى الطويل مثل قالب ضخم يمتلىء بالحديد المنصهر • وفى نهاية الكوبرى من ناحية الروضة وجدناهم أمامنا •• سيارة « بيك آب » بداخلها ٥ كونستبلات انجليز ، ومن ورائهم عشرات اللوريات مليئة بأصحاب الخوذات النحاسية وبدأ الكونستبلات باطلاق مسدساتهم على المتظاهرين •• كان الواحد منهم يضغط على الزناد حتى تفرغ من مسدسه الطلقات ، فيحشوه فى ثانية ثم يعاود الضرب وكأنه فى معركة حربية !

سرى الذعر بين الجميع ، وكأنهم أصيبوا كلهم فى لحظة بصعقـة كهرباء •• وتلفت حولى ، فوجدت عبد الحكم الجراحى منكفئـــا على وجهه ، ومن حوله ثلاثة من الجرحى •• كان واضــــحا أن عبد الحكم أكثرهم اصابة ، فملت عليه واحتضنته ورفعت وجهه من التراب •• كانت عيناه نصف مغلقتين وفمه يرغى بزبد أبيض ، ودم ساخن ينفجر من صدره ويسقى ملابسه كلها بلون أحمر •• ولمحت زميلا لنا من كليـــة الزراعة اسمه « عباس قورة » •• كان عباس فى سيارته يرقب الموقف• حملت عبد الحكم على صدرى وحمل زملائى بقية الجرحى ووسدناهم داخل السيارة وانطلقنا الى القصر العينى •• وعدت الى البيت وملابسى تشهد بأننى كنت فى مجزرة •• ولم تصدق أمى يومها اننى لم أشترك فى جريمة قتل ، الا بعد أن حلفت لها •• على المصحف !

***

● وقع لى حادثان وانا فى كلية الهندسة .. بعدها أقسمت الا أمد يدى على أحد •• بالضرب !

أول حادث : كنا فى اضراب نقف على باب دار العلوم ليخرج طلبتها وينضموا الينا • حاصرنا البوليس وهجموا علينا وعصيهم الطـــويلة ترتفع ثم تهوى على الرءوس والضلوع •• احتميت فى شارع جانبى حتى هدأت المعركة ثم انطلقت أعدو الى شارع المبتديان •• وفى منتصف الشارع الجانبى قابلنى أحد العساكر وهراوته مشرعة فوق رأسه ..

قال لى بحـــدة : « أقف مطرحك » ٠٠ فـــوقفت مطرحى ٠٠ وجاء هو ليمسكنى ، وربما ليفترسنى وحده ٠٠ وهو يقـــترب حتى أصبح على بعد متر واحد اندفعت فى وجهه بلكمة هائلة ، فاذا به يرتمى فى مكان وعصاه فى مكان ٠٠ وقد غاب عن الدنيا !

ثانى حادث : كنت فى فناء الـــكلية أتناقش مع بعض الزملاء فى السياسة ٠٠ احتد على أحدهم حتى ترك النقاش السياسى وبدأ يكيل ألقابا بذيئة فوق رأس أبى وأمى ٠٠ صفعته قلمـــا فتمدد على الأرض وسكت ، ولم يتكلم الا على وخز رائحة النوشادر ٠٠ وقررت من يومها أن أضع يدى فى جيوبى قبل أن أثور على أحد !

● أخذت البكالوريوس شعبة ميكانيكا وكهرباء سنة ٣٧ . اشتغلت فترة فى مصلحة الميكانيكا والكهرباء بوزارة الأشغال ٠٠ دخلت الجيش ضمن أول دفعة مهندسين تعمل فى القوات المسلحة فى ٢ أكتوبر ســـنة ٣٧ ٠ كنت أول ضابط مهندس يلتحق بكلية أركان حرب ٠ تخرجت فيها فى فبراير سنة ٤٣ ٠ اشتغلت فى « ادارة العمليات الحربية » ثم نقلت مدرسا فى كليـــة أركان حرب ٠ عدت مرة ثانية لســلاح المهندسين ٠ تسلمت معسكر « هاكستب » ومطار القاهرة الدولى القديم ٠٠ تسلمتهما من القوات الأمريكية بعد أن جلت عنها وقمت بتصفية المهمات وبيعهـــا لحساب وزارة المالية ٠

● درســت بالمراسلة « الادارة العسكرية » فى جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة ٠ انقطعت عن الدراسة بعد أن طلبت منى الجامعة أن أسافر هناك لمدة سنة أحصل بعدها على الدبلوم ٠

عدت سنة ٤٧ الى كلية أركان حرب وبقيت فيها حتى قامت الثورة، كنت أدرس علم الادارة وعلم التحركات ٠٠ تعرفت فى هذه الفـــترة بالرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبـــد الحكيم عامر . كان الرئيس يدرس لطلبة الكلية علم « الشئون الادارية » ٠٠

● ليلة ٢٣ يوليو قمت بدور لا أســتطيع أن أكشف تفاصيله .. اشتغلت مدير مكتب الشئون الفنية بالقيادة العامة ٠ قمت بجرد وتصفية أموال الملك السابق وممتلكات أسرة محمد على ٠٠ أثناء عمليات الجرد طلب أحد أعضاء الأسرة التى كانت مالكة أن يبارزنى ليثأر لمتلـكاته ! رفضت أن أبارزه ، فقد كان تكوينه الجسمانى لا يسمح له بأن يبارز فرخة !

● اشتركت فى اللجنة الوزارية لتشكيل مجلس الانتاج . عينت فى المجلس الدائم لتنمية الانتاج القومى ٠٠ عينت عضوا منتدبا للهيئة

العامة للبترول ، ثم رئيسا للهيئة ٠ عينت مستشارا لوزارة التجارة والصناعة لشئون الثروة المعدنية ٠ تركت هذه المناصب كلها في ٢٦ يوليو ٥٦ عندما أمم الرئيس عبد الناصر القناة ، وعينت عضوا منتدبا بمجلس ادارة هيئة قناة السويس ونائبا لرئيس مجلس الادارة .. بعد وفاة المرحوم الدكتور بهجت بدوى ، عينت رئيسا لهيئة القناة .. وأخيرا دخلت الوزارة .

● انني أذكر هذه القصة للتاريخ .. كنت عضوا في « الهيئة العامة للبترول » سنة ٥٥ ، عندما جاء من سوريا وفد اقتصادى يطلب المعونة الفنية لانشاء مصفاة للبترول ـ معمل تكرير ـ ودراسة التخطيط البترولى في سوريا ٠ وقبل أن أسافر الى سوريا ، ذهبت مع وفد من المهندسين المصريين الى الرئيس جمال عبد الناصر أسأله التوجيه ٠٠ وأمسكنى الرئيس من كتفى وضغط على الكلام وهو يقول :

ـ اسمع يا محمود ٠٠ روح اعمل في سوريا كما تعمل في مصر بالضبط ٠٠ ان كنت تعمل في مصر بقلب ، بنفس القلب اشتغل في سوريا ٠٠ انهم أهلنا ، وبلدنا ، وامتداد لوطننا الكبير ٠٠

***

قلت لـ « جونز الكبير » ـ هكذا يناديه أحيانا أحب الناس :

● لقد كنت الأصبع الكبير الذى نفذ تأميم القناة ٠٠ وأنا أريدك أن تقول لى « كلام مذكرات » عن التأميم ٠٠ كلاما لم ينشر من قبل ، وكله أسرار ؟ !

ـ كنا ٣ مجموعات ٠ مجموعة رئيسية في الاسماعيلية وأخرى في السويس وثالثة في بورسعيد ٠٠ كنت على رأس مجموعة الاسماعيلية ٠ لم يكن أحد في المجموعات الثلاث يعلم سر المهمة غيرى أنا والمهندس عبد الحميد أبو بكر سكرتيرعام هيئة القناة والمهندس عزت عادل السكرتير العام المساعد ٠ وصلنا الاسماعيلية بعد الظهر ٠

بدأ الرئيس خطابه في المنشية في السادسة مساء ، وعندما قال : « والآن اخوان لكم ٠٠ » دخلت مع المجموعة مبنى الشركة الرئيسى ٠ لم أجد أحدا من المسئولين فأرسلت من يستدعى : « مسيو منيسيه رئيس القسم الادارى في الشركة » و « مسيو ريمون » رئيس قسم الملاحة و « مسيو دى لاكور » رئيس قسم الأشغال ٠٠ أبلغت الثلاثة الكبار قرار التأميم ٠٠ تلوته عليهم باللغة العربية وترجمه لهم أحد المترجمين الى الفرنسية ٠٠ ثم قلت لهم « انني مفوض من الحكومة بتسلم كل ممتلكات الشركة ، وادارتها ٠٠ وأنا أطلب من كل موظف أن يقوم بعمله كالمعتاد،

وأى محاولة للاخلال بسير العمل سوف تعرض مرتكبها للفصل والجزاء».

وكنت قد وضعت تقديرا كاملا للموقف وانهار الثـــلاثة الكبار ، وطلبوا منى أن أؤمنهم على حياتهم وحياة عائلاتهم .. وقلت لهم : اننا لسنا فى حرب .. اننا ننفذ قانونا أصدره رئيس الدولة من دقيقتين !

وفى هذه اللحظة سمعت هتافات تدوى خارج مبنى الشركة .. انهم شعب الاسماعيلية جاءوا يباركون قرار التأميم ، ويضعـون أنفسهم فى خدمة الموقف ..

وبدأت بالاستفادة من خدمات القوات المسلحة .. استعنت بشـبكة لاسلكى من سلاح الاشارة بعثرتها فى نقط متقاربة بطول القناة . وفى أقل من ساعتين كنت قد سيطرت على جميع مكاتب الشركة فى القاهرة وبورسعيد والاسماعيلية والسويس . وجردت المكاتب والخـــزائن . واستعنت بضباط القوات المسلحـــة والجنود فى السيطرة على محطات الاشارة التى تنتشر على طول القنـاة .. محطة كل ١٠ كيلومترات .. واستعنت أيضا بقوات البوليس فى محافظة القنال ومحافظة السويس.

وجاء الصباح التالى .. صباح ٢٧ يوليو .. فى الساعة التاســعة اتصلت بكل البنوك وطلبت منها أن تضع فى البنك الأهلى جميع أموال الشركة التى لديها باسم هيئة قناة السويس .. وفى الساعة الثانية عشرة ظهرا كان البنك الأهلى قد تسلم ٩ ملايين جنيه من ٩ بنوك .

وظللنا نعمل أربعة أيام متواصلة بعدها أصبح فى يدنا الأمر كله ، وسيطرنا على كل التفاصيل الملاحية الدقيقة فى القناة .. من البحـــر فى الجنوب الى البحر فى الشمال .

وفى فجر أول ليالى التأميم ، جاء الاسماعيلية صحفيان من القاهرة .. ظلا يبحثان عنى حتى عثرا على وأنا أطرقع أصابع قدمى الحافيتين وقـد تمددت على أرض أحد المكاتب بـ « الفانلة والكالسون » !

● ما هو الجـانب العسـكرى فيك .. وما هى آخر معلـوماتك العسكرية .. وهل ما زلت تحمل الرتبة العسكرية ؟ .

ــ اننى أستمع الى الطرفين دائما . وأبت فى الأمور بسرعة . وأتحمل كل المسئوليــة . أضع نفسى فى « القيادة التكتيكية » وأصنع من نفسى نموذجا فى المقدمة يراه الباقون بوضوح .. وأطبق الطريقة العسكرية من ناحية « تقدير الموقف » و « وضع الخطة على الطبيعة » فى كل مســـألة أدرسها :

وشىء غريب .. لقد اتضح لى أن الطرق العسكرية فى التنفيذ تؤدى

بتسلسلها ودقتها ونظامها الى أحسن النتائج الممكنة ٠٠ وأنا أفكر أن ألقى محاضرة عن « تطبيق العلوم العسكرية فى الحياة المدنية » .

أما معلوماتى العسكرية فكما هى ٠ وهى لا تزيد الا بقدر قراءاتى العسكرية المحدودة ٠٠

وقد كنت فى الجيش أحمل رتبة «عميد أركان حرب مهندس». الى أن صدر قانون يقضى بأن « من يترك خدمة الجيش العامل ، لا يحمل الرتبة » ٠٠ ولذلك أنا الآن المهندس محمود يونس ٠٠ فقط ٠٠

● مناطق الصحراء الشرقية ينصب فيها البترول ٠ وفى سيناء آبار بكر ٠٠ قرأت عن نظرية جيولوجية تقول اذا عثرنا بوفرة على البترول فى الصحراء الغربية فمعنى ذلك أن خطا عريضا من حقول البترول يمتد من سينا ــ عبر الدلتا ــ الى الصحراء الغربية ٠٠ ما رأيك ؟

ــ ان أعماق الصحراء الشرقية مازالت مليئة بالبترول ٠٠ ويشاركنى هذا الرأى رجال البترول فى مصر ٠٠

أما الصحراء الغربية ، فوجود البترول فى الجزائر وفى ليبيا ، ووجود كمية ضئيلة منه فى « برج العرب » كل ذلك يؤكد وجود البترول فيها ٠

ومن قراءاتى الخاصة أعتقد أن البترول موجودا أيضا تحت الدلتا ٠٠ محتمل جدا !

● اشرح لى مركز القناة :

١ ــ هل يؤثر عليها مد اسرائيل خطا من أنابيب البترول ، أو حفر قناة اسرائيلية بين العقبة والبحر الأبيض ؟ ٠

٢ ــ كم كان دخل القناة فى أول يوم بعد التأميم ٠٠ وما نوع الارتباط بين دخلها وبين مشروع السد العالى ؟

٣ ــ ما هى الخطة المرسومة لمشروعات تحسين القناة فى السنوات العشر القادمة ؟ ٠

ــ سوف أجيبك بترتيب أسئلتك :

١ ــ أعتقد أن القناة سوف تحتفظ بمركزها الدولى رغم ما يقال عن انشاء خط أنابيب أو مد قناة فى أى مكان آخر ٠٠ حتى لو مدوا خط الأنابيب ، أو حفروا قناة ، فستظل قناتنا الطريق الأنسب والأقصر والأقل فى التكاليف ٠٠ هذا بالاضافة الى أن هناك قاعدة فى سوق التجارة تقول: « ان صاحب المحل القديم يتمتع دائما بمركز هام فى السوق » !

٢ ـ كان دخل القناة أول سنة بعد التأميم ٣٩ مليونا و « كبشة » من مئات الآلاف من الجنيهات . وقد تضـاعف هذا الرقم تقريبا .. أما نوع الارتباط بين الدخل ومشروع السد العالى ، فهذا كلام لا يعلن تفاصيله الا « الريس جمال » نفسه .

٣ ـ هنـاك مشروع ناصر وقد وضع خطوطه الرئيسية جمـال عبد الناصر . ويرمى المشروع ـ بتركيز ـ الىزيادة عمقالقناة وسعتها زيادة كبيرة تتمشى مع الزيادة العالمية فى أحجام السفن .

● صفار المركب التى تطلقها وهى تمر فى قناتنا . انها فى حشرجتها ونغمها النشـاز تشبه صوت وحش هائل يمرن فى خلاء واسع حبـال الصوت فى حنجرته !

قل لى : ألا تذكرك بشىء .. ألا تثير فى نفسك معنى ما ؟ .

ـ انها تحمل دائما معنى الاستغاثة ... فاذا أطلقت المركب صـفارة واحدة فهى تنادى المرشد الذى سيرشدها بقية الطريق .. أما اذا كررت الصفارة خمس مرات فمعنى ذلك أن بها خللا ما ، وكأنها تقول : سوف أقف .. جاى .. الحقونى ..؟!

● انك تضـع فى كلامك كل معالم شخصيتك .. لقد عرفتك من طريقتك فى الكلام ، وأريد أن أعرفك أكثر ؟ .

ـ سأقول لك .. ان بين قلبى ولسانى اتصالا سلكيا مباشرا ..وأنا لا ارتكب الخطأ عن عمد أو اهمال . ولا أفعل فى السر شيئا يحرجنى قدر شعرة ، ولو انكشف وبان . !

جرىء الى أبعد الحدود ، لا أخشى أحدا سوى الرب الذى يطل على من السماء .. أحرص دائما على ألا أتحمل فوق ما أطيق ، وألتزم دائمـا بكل ما أتحمله .. لا أدخن ولا أشرب الخمر ولا القهوة ولا الشاى ولا أمارس القمار ، وليس لى فى دنيا النساء أكثر من زوجتى ! مسالم جدا ، وصبور بلا حدود .. حبال صبرى ، فى معاملاتى مع الناس ، تمتد الى أبعـاد طويلة .. مثل أسلاك التليفون ..

... لكن .. خاف منى ، فأنا « قرصتى والقبر » !!

***



كمال رفعت

مـــذهب الزعيم ؟

« ... كانت جيوش روميـــل تضرب العلمين ، والهزيمة تهز جيوش الحلفاء بعنف .. وسرت اشاعة : ان الانجليز سوف ينسحبون الى فلســطين وسيدمرون قبل انسحابهم الطرق والكبارى والمنشآت .

وثار طلبة الكلية الحربية ، وقرروا أن يفعلوا شيئا لانقاذ البلد من الدمار ..

وذهب ثلاثة من الطلبة كنت واحدا منهم الى الفريق عزيز المصرى فأشـــار علينا ــ ان تحققت الأزمة ــ أن ننتشر فى القرى والمــدن ونمنع عمليات التخريب .. بالقوة ! . »

وقفت على باب شخصيته وقـــد رسمت بجسمى علامة تعجب ·· ضغطت على الجرس فأطل على برأسه من طاقة صغيرة ·· ولكنه لم يفتح لى الباب ! ·

ان شخصيته مسطحة بشكل غريب ·· هى تطبيق انسانى لنظرية « الأوانى المستطرقة » ·· وتستطيع أن تخترق مسطح شـــخصيته ·· وتستطيع أيضـــا أن تغرق فى أعماقه حتى تخنقك « الاسفكسيا » ·· ولكنك لن تخرج منه بدراسة محددة مفيدة ! ·

و « غلب حمارى » ·· فطلبت منه أن يشرح لى نفسه ·· وعاد فسحب رأسه الذى يطل على من الطاقة الصغيرة ، وتكلم من وراء البـــاب ·· قال ··

ـ انا لم أخلق لأكون زعيما ·· خلقت لأخدم فكرة وأنا «تحت الأرض» ·

لم أتصد فى حياتى لفكرة أو مذهب أجمع حوله الناس ، مثلما أفعل الآن .. فانا لا يبهجنى أن تســـلط على خيوط كثيرة من الضوء .. ولا أستريح عندما أكون هدفا لحدقات العيون ··

وأنا تلميذ صغير فى ثانوى ، كنت أشترك فى الاضطرابات الوطنية ، ولكنى لم أنظمها أو أحرض عليها ·· وكنت أسير مع المضربين ، لا أهتف وانما أردد هتافات الزعيم !·

وفى الحرب العالمية الثانية سنة ٤٣ ، وضع روميل عصا الماريشالية تحت ذراعه وعبر حدود مصر عند العلمين ، وقرر الانجليز أن يفروا من وجـــه « ثعلب الصحراء » وأن يدمروا قبل فرارهم الطرق والمنشـــآت فى القطر كله ·· وكنت طالبـــا فى الكلية الحربية ، وفكر زعماء الطلبة أن يذهبوا الى الفريق عزيز المصرى يسألونه المشورة لانقاذ البلاد من الدمار ·· ولم أكن صاحب الفكرة ، ولكنى فقط ذهبت معهم ··

ومن تحت الأرض خدمت أفكارا كثيرة ··

خدمت فكرة الثورة عندما دخلت تنظيم الضباط الأحرار سنة ٤٩ ، عن طريق المشير عبد الحكيم عامر ·· وفى قطاع محـــدود ، كنت أنشر الفكرة وأجمع حولهـــا ضباط الجيش · واشتغلت فى القصر ، فواليت « التنظيم » بكل أخبار القصر !·

وخدمت الوطن فى منطقة القناة عندما ألغيت المعاهـــدة سنة ٥١ ، وعندما كانت مفاوضات الجلاء تدور بين عامى ٥٢ و ٥٤ ·· وكنت أنفذ أوامـــر الزعيم : تتعثر المفاوضات فنفتح من دماء الانجليز شلالا يتدفق

على ضفاف القنـــاة ، وتسير المفاوضـــات هينة فنرفع أيدينـــا مؤقتا من على الزناد !٠

ودخلت مجلس الأمة ٠٠ ثم اشتغلت فى المخابرات لأخـــدم فكرة القومية العربية ، أخدمها بطرق وطنية شريفة ٠ ولا تسألنى عن تفصيلات أكثر من ذلك !

ثم دخلت الوزارة ٠ وتفرغت أخيرا لأمانة الدعوة والفكر بالاتحـــاد الاشتراكى العربى ٠

هذا دورى الذى خلقت له ٠٠

وســـكت صوت كمال الدين رفعت الذى كان يشرح لى نفسه ٠٠ من وراء الباب . !

***

قال لى كمال رفعت :

● اسكندرية : ولدت فى حى الجمرك أول نوفمبر ٢١ ، اسمى كمال الدين ٠٠ واسم أبى : محمود ٠٠ واسم جدى : محمود رفعت ٠٠

أبى كان يعمل مهندس رى فى وزارة الأشغال ٠٠ وعائلتنا تتأرجح بين الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة ٠٠

● شبراخيت : انتقل أبى الى شبراخيت ، كان عمرى ٣ سنوات ولكنى أذكر أحداث الدنيا التى وعيتها فى هذه السن. كنت الاحظ ظاهرة غريبة على أهل المدينة ٠ كانوا يسمعون صفارة قطار الدلتـــا فيندفع الشبان والرجال الى المحطة وكأنهم فى انتظار مدير الاقليم ٠٠ ويصل القطار وفيه رزمة من الصحف تتهافت عليها الجموع ، كل يشـــترى صحيفة ويلتهم سطورها بنهم ٠٠

عرفت لما كبرت أن مصر أيامها كانت فى أزمة شدت أعصاب كل المصريين .. أزمة مقتل « السردار سيرلى ستاك » وخروج الجيش المصرى من السودان ٠٠

● دمنهور : سنة ٢٧ انتقلنا الى دمنهور .. حدث زلزال مشهور فى احدى الليالى ٠٠ دب الذعر بين سكان المدينة ، ونزل سكان العمارة التى كنا نسكنها الى الشارع ، الرجال بالبيجامات والجلاليب.. والنساء بقمصان النوم !٠

دخلت مدرسة الروضة فى دمنهور ٠ كانت المدرسة خارج المدينة ، وكنا نذهب اليها فى أوتوبيس خاص ، لم أتعلم فيها أكثر من طريقة لبس « المريلة » وبعض أشغال القش والقص واللزق !٠

● بني سويف : انتقلنا الى بني‌سويف . أصيب أبي بالشلل في أول اكتوبر ٢٩ ، ومات في اليوم التالي وعمره ٤٢ سنة · تركنا أبي أنا و ٤ اخوة و ٣ أخوات وأمنا لنعيش على معاشه الضئيل ··

كان أخي محمد ـ ضابط بالجيش ـ قد نجح في البكالوريا ·· دخل أخي الكلية الحربية ، فانتقلنا الى القاهرة ·

***

● دخلت مدرسة الأورمان الابتدائية سنة ٣٠ . وأنا في السنة الثانية طلعت الأول في سباق ٥٠ مترا لأقل من ٩ سنوات وحصلت على منبه صغير · وفي سنة ثالثة ورابعة طلعت الأول على الفصل في الترتيب ··

أخذت الابتدائية سنة ٣٤ ·

● دخلت مدرسة السعيدية . أمضيت فيها سنة واحدة ثم انتقلنا الى مصر الجديدة فدخلت مدرسة فؤاد الأول « بالعباسية » ·

تفتح وعيي السياسي على الاضطرابات التي سبقت المعاهدة في عامي ٣٥ و ٣٦ · لم أكن زعيما ، فقد كانت الزعامة في المدرسة مقصورة على الكبار . وكنت أجتمع معهم في « النادي السعدي » بالمنيرة لنقرر أيام الاضراب ·

من قراءة الصحف بدأت أطل على العالم . كانت أهم الأحداث الخارجية في هذه الفترة غزو ايطاليا للحبشة سنة ٣٥ . استمرت الحرب بينهما ٧ شهور قاوم فيها الأحباش مقاومة عنيفة · كان الجيش الحبشي يحارب بالحراب والبنادق القديمة. وكان الجيش الايطالي يستعمل المدافع والبنادق السريعة الحديثة · · ولم ينتصر الجيش الأيطالي ولم يدخل « أديس أبابا » الا بعد أن خنق المحاربين الأحباش بالغازات السامة !

تشكلت في مصر أيامها « لجان مساعدة الحبشة » لجمع التبرعات وكانت تشرف على اللجان جماعة « الشبان المسلمين » ··

● انتقلت الى مدرسة « فاروق الأول » بالعباسية . كانت مدرسة نموذجية اختاروا تلاميذها من مدرسة « فؤاد الأول » ومدرسة القبة على أساس حسن السلوك والأخلاق ··

زاد اهتمامي بالألعاب الرياضية · لعبت الملاكمة وزن « خفيف المتوسط » وفزت بالمرتبة الثانية في بطولة المدارس الثانوية ·· لعبت مباريات كثيرة ولكني لم أقع مرة على الأرض بضربة قاضية !·

● اتجهت الى قراءة الكتب .. قرأت الكتب السياسية التي كان

يصدرها حزب « مصر الفتاة » ·· قرأت أيضا « مجدولين » للمنفلوطى ، « محمد » للدكتور حسين هيكل ، « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، « أساطين العلم » لفؤاد صروف ··

● كانت الرياضة تشغل فراغى كله ، وكنت لا أغادر ملعب المدرسة قبل السادسة مساء ·· منعتنى الرياضة من الانحراف فى سن المراهقة ، ومنعتنى أيضا من أن أتفوق فى دراستى !· أخـــذت التوجيهية شعبة علوم سنة ٤٠ ··

● دخلت الكلية الحربية فى سبتمبر سنة ٤٢ . وتخرجت فيها فى سبتمبر ٤٣ . كنت رابع دفعتى و « باشجاويش » السرية الثالثة دائما فى امتحانات « الدورة » ··

لعبت ألعاب قوى ، وجريت مسافات طويلة ·· أخذت بطولة الجامعة فى الملاكمة وزن « متوسط » ، وبطولة الجرى لمسافات ٨٠٠ متر ، ١٥٠٠ متر ، ٥٠٠٠ متر ·

● ونحن فى الدورة النهائية قبل التخرج ، كانت جيوش روميل تضرب العلمين والهزيمة تهز جيوش الحلفاء بعنف ·· وسرت اشاعة : ان الانجليز سوف ينسحبون الى فلسطين ، وسيدمرون قبل انسحابهم الطرق والكبارى والمنشآت وثار طلبة الكلية الحربية ، وقرروا أن يفعلوا شيئا لانقاذ البلد من الدمار ·· وذهب ثلاثة من الطلبة كنت واحدا منهم الى الفريق عزيز المصرى .. فأشار علينا ، ان تحققت الأزمة ، أن ننتشر فى القرى والمدن ونمنع عمليات التخريب بالقوة !

لكن ثعلب الصحراء ارتد منسحبا بعد هزائم متوالية وانقذت مصر من الدمار ··

● خدمت أول سنة بعد التخرج مع الـكتيبة الأولى مشـــاه فى الخرطوم وفى جبل أولياء ··

استطعت مع بعض الضباط أن نجمع حولنا بعض عنـــاصر الطبقة المثقفة فى السودان وكونا تنظيما سريا لمقاومة احتلال الانجليز ·· حاولنا أن نهرب اليهم أسلحة من مصر ، ولكن مدة خدمتنا انتهت ورفضت رئاسة الجيش أن تجددها · عدت الى القاهرة ·

● أمضيت سنة أخرى مع الكتيبة الأولى بالماظة . وقع على الاختيار للخدمة فى «الحرس الملكى» فى يوليو ٤٤ .. وكانت مدتى فى «الحرس الملكى » هى أسوأ فترات حياتى ·· عشت بالقرب من العدسة المجمعة للفساد !· كنت أرى نساء مجهولات يدخلن القصر فى الظلام ويخرجن منه

فى الظلام ‥ والليل الذى لا يقضيه الملك فى القصر كان يسهره أما مع الورق و « فيشـــات » القمار فى نادى الســـيارات ‥ أو فى نادى « الاسكرابيه » وراء سينما ستوديو مصر وسط شلة من النساء ‥

وفى اللحظة التى كان يصحو فيها الشعب ليبحث عن رزقه ، كان « جلالته » يعود الى القصر وقد أذاب وعيه فى كؤوس الخمر ، فينام حتى تبدأ السهرة التالية فى المساء ‥

وقتلنى الضجر !.

***

● بدأت كتائب المتطوعين حربا غير نظامية فى فلسطين .. قدمت طلبا لرئاسة الحرس أطلب الانضمام الى كتيبة الشهيد أحمد عبد العزيز ، فرفضوا طلبى ‥

بدأت الحرب النظامية ودخـــل الجيش المعركة فى ١٥ مايو ٤٨ ، طلبت أن أشترك مع الكتيبة الأولى مشاة التى سافرت الى الميـــدان ، وجاءنى الرد : ان جلالة مولانا المعظم سيرســـل كتيبة من حرسه الخاص الى الميدان ‥ انتظر !.

● سافرت مع كتيبة الحرس بعد أن بدأت الحرب بأسبوع ، وصلنا دير سنيد والمعركة فيها دائرة ‥ انسحب اليهود بعد ساعات عبر نفق يصل المستعمرة بواد خلفها ‥ بقى منهم ١٥ فردا ليغطوا الانسحاب . قضينا عليهم وطهرنا المستعمرة تمـــاما . شن اليهود هجوما مضـــادا فى المساء ، اشتبكنا معهم فى معركة عنيفة وانسحبوا مع الفجر ‥

● انتقلنا الى المجدل واحتللنا بعض المواقع الأمامية .. على بعد ٣٠٠ متر خلفنا كانت هناك بطارية من مدفعيتنا استمرت تضرب طول الليل ثم سكتت فجأة ‥ ذهبنا نستطلع فى الصباح فوجدنا المدفع نائما على ظهره ، وقد تمددت أمامه ماسورته مشققة مثل الباذنجان المشوى ، ولم نعثر على أثر لطاقم المدفع ‥ لقد انفجرت فى المدفع احدى الدانات الفاسدة ، فأطاحت بالمدفع والطاقم كله ! وصدر البلاغ الرسمى يقول : ان احـــدى بطاريات مدفعيتنا أصيبت بطلقة مبـــاشرة من المـــدفعية الاسرائيلية !! .

● اشتركت فى معـــركة نيتساليم .. كان واجبنا حماية أطراف القوات المصرية التى تهاجم المستعمرة من أى هجوم مضاد . بدأت المعركة فى السابعة صباحا وانتهت فى الرابعة بعـــد الظهر . دخلنا المستعمرة وأسرنا ١٥٠ يهوديا رحلناهم الى العريش .

● توليت عمليات نقل الجنود كنت أنقلهم من المجدل الى الخطوط الأمامية فى أسدود . التقيت بالرئيس جمال عبد الناصر فى أسدود .. كان يسأل القادمين دائما : ايه أخبار ضحايا الأسلحة الفاسدة ؟. ماهو شعور الضباط والعساكر ؟. كيف حال الموقف فى الخطوط الخلفية ؟.

● كنا نتعذب بالأجازات التى نمضيها فى القاهرة . الطبقة الحاكمة كانت تتاجر بالأسلحة الفاسدة ولكنها لم تكن تحس بالحرب .. حفلات « ملكات السيقان » و « ملكات أجمل قوام » كانت تقام كل مساء باسم الخير .. وكان الملك ضيف الشرف فى كل حفلة .. وصور الحفلات العارية تملأ الصحف وتغطى على أخبار الحرب ..

وانتشر التذمر بين الضباط .. وبدأوا يتكلمون عن « تغيير الأوضاع » ! .

***

● عدت بعد الحرب الى « الحرس الملكى » . انضممت الى تنظيم الضباط الأحرار عن طريق المشير عبد الحكيم عامر .. كنت عين التنظيم فى القصر ..

بدأت أتكلم فى العلن عن تذمرى من الخدمة فى الحرس الملكى . نقلونى فى سنة ٥٠ الى منقباد ، نقلت مرة أخرى الى العريش ، وخدمت هناك سنة أضم صفوفا جديدة الى تنظيم الضباط الأحرار وانشر الفكرة بين الضباط ..

● نقلت الى الكلية الحربية . كنت أدرس للطلبة « التكتيك » والأسلحة . ألغيت المعاهدة فى اكتوبر ٥١ .

جمعت الفدائيين من طلبة الجامعة والموظفين ، ودربتهم فى صحراء الفيوم على الأسلحة والتكتيك وحرب العصابات .. وبدأت حرب المقاومة ضد الانجليز فى منطقة القناة .. كنت أسافر الى القنال يومى الخميس والجمعة كل أسبوع لأشرف على عمليات الفدائيين . كان أهم عمليات قمنا بها :

ـ عملية القصاصين : هاجمنا « كامب المهندسين » ساعة الغروب بقصد الازعاج . قتلنا ٥ عساكر انجليز سقطوا الواحد بعد الآخر من أبراج الحراسة المرتفعة .!

ـ عملية التل الكبير : هاجمنا مرشح الميـــاه الذى يمون معسكرات المنطقة • بدأ الاشتباك مع حرس المرشح الساعة ١١ مساء ، واستمر ٤٥ دقيقة • كنا ٣٠ فــــدائيا وكانت القوة التى تحرس المرشح تزيد على الخمسين . أذاعت « محطة فايد » فى اليوم التالى ان الفدائيين أغاروا على مرشح مياه التل الكبير وقتلوا ١٢ جنديا •

ـ معركة القرين : هاجمنا أكبر معسكر فى المنطقة • كان هجومنا سريعا ومفاجئا • دب الذعر فى المعسكر كله ، واستعمل الانجليز مدافع الهاون ضدنا لأول مرة !

● تقرر نهائيا أن تقوم الثورة فى شهر ابريل ٥٢ . . تأجل الميعاد ٣ شهور لأسباب أرجو يوما أن يرويها التاريخ ••

كان فى الحساب أن نستخدم طلبة الكلية الحربية فى بعض عمليات الثورة •• ولكن ليلة ٢٣ يوليو كان الطلبة فى أجازة ، فأسندت الى عملية أخرى ••

كلفت بالقبض على بعض الرتب الـــكبيرة فى الجيش •• استطعت أن أجمع عناوين منازلهم قبل قيام الثورة بيومين . كان المفروض أن تبدأ الثورة فى الواحـــدة صباحا ، ولـــكن الخبر تسرب الى الرتب الـكبيرة وضباط القيادة فقدم الميعاد ساعة . استدعى كبار الضباط الى القيادة فى منتصف الليل . تجمعوا كالبيض فى سلة واحدة . كان من السهل القبض عليهم دفعة واحدة !

● انتقلت الى ادارة المخابرات . أشرفت على القسم الخاص بالانجليز فى منطقة القنال . توليت عمليات الفدائيين فى المنطقة فى الفترة بين ٥٢ و ٥٤ . كانت عمليات الفدائيين تسير بجانب مفاوضات الجلاء . اذا تعثرت المفاوضات فتحنا من دماء الانجليز شـــلالا يتدفق على ضفاف القناة • وان سارت هينة رفعنا أيدينا مؤقتا من على الزناد . .

هذا بجانب حرب سيكلوجية شنناها على قوات الاحتلال ، واستعملنا فيها الاشاعات والمنشورات •• وحصلنا مرة أثناء المفاوضات على تقرير سرى من المخابرات البريطانية • كان التقرير يقول ان السياسيين فى بريطانيا يعارضون الجلاء •• بينما يؤكد العسكريون الانجليز ان الجلاء أصبح ضرورة لا مفر منها •• لقد عملوا «تقدير موقف» وقرروا ان القاعدة لم تعد لها أية قيمة عسكرية ما دامت محاطة بشعب كله أعداء !

● توليت قيادة أعمال المقاومة السرية في منطقة القناة اثنان العدوان .. كان الهدف هو القيام بحرب عصابات تخريبية في الخطوط الخلفية للعدو اذا فرض أنه تمكن من احتـــلال المنطقة .. وكانت مهمة الجيش الدفاع عن المدن ، ومهمة المقاومة السرية الدفاع عن القرى والمناطق خارج المدن .. وقد بلغت قوات المقاومة السرية أثناء العدوان ١٢٠٠ فرد من طلبة الجامعة والعمال والفلاحين ..

● ليلة وقف القتال : اشتبكنا مع طلائع القوات الانجليزية في معركة عند « الحرش » جنوب بور سعيد ، قتلنا منهم عددا لم نستطع حصره واستشهد ٣ من رجال المقاومة ..

نسفنا طريق القنال وطريق المعاهدة الذى يتوسط ترعة الاسماعيلية وقناة السويس .. اختلطت مياه الترعة الحلوة بمياه القنال . أشـــاع الانجليز في بور سعيد اننا قطعنا عنهم الميـــاه الحلوة ، فسددنا فجوة الطريق لننقذ سكان بور سعيد . نسفنا بعض الكبارى في المنطقة ودخلنا بور سعيد وأدخلنا معنا الأسلحة والذخيرة وأجهزة اللاسلكى .. قمنا بعمليات تخريب في مخازن العدو وتجمعاته ، وعمليات خطف جنود وضباط الأعداء ، كان أهمها خطف الملازم « مور هاوس » .

● دخلت الوزارة في ٣١ مارس سنة ٥٧ . وتفرغت أخيرا للعمل بأمانة الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى العربى .

***

قلت لكمال رفعت :

● الزعيم .. من هو الزعيم .. وهل لابد للزعيم من مذهب سياسى أو روحى يبنى عليه زعامته ؟ .

ــ الزعيم هو الشخص الذى يؤمن بأهداف ومبادىء معينة ، ويملك القدرة على اقناع الجماهير وتجميعها لتسير وراءه نحو هـــذه الأهداف والمبادىء ..

وليس شرطا أن يلتقى الزعيم بأفكاره مع افكار الجماهير .. ان افكار الجماهير أحيانا تقصر عن فهم الصالح العام ، خصوصا اذا كان الصالح العام يتعلق بأهداف بعيدة المدى ليست واضحة تماما في أذهان الناس .. والزعامة التى تستجيب للجماهير دائما لمجرد ارضائها وتخديرها ليست زعامة شعبية وليست لها قيمة .. فكثيرا ما يكون ارضاء شهوات الجماهير على حساب المصلحة العامة للدولة .

والزعيم يجب أن يتمتع بفكر بعيد ، ورأس بارد ·· يقول نابليون :

« القائد الناجح هو صاحب الرأس البارد الذى تتساوى عنده الأخبار السارة والأخبار المحزنة » ·· والزعيم قائد شعب ·· ولا بد من مذهب سياسى أو روحى يسند عليه الزعيم زعامته ··

● يقولون : ان مشكلة هذا العالم سببها الصراع الحاد بين المبادىء ·· والحل الواقعى للمشكلة ينبسط فى تجميد أطماع المبادىء ، والمعسكرات التى تمثلها هذه المبادىء ·· هل توافق على تجميد أطماع المبادىء السياسية والاقتصادية كحل عملى لمشكلة هذا العالم ؟ ·

ـ الحل فى رأيى ليس فى تجميد الأطماع ·· ففى العالم معسكران مختلفان من الناحية المذهبية والعالم فى حاجة الى قوة تمنع الاحتكاك المباشر بين المعسكرين وتوطد فكرة التعايش السلمى بينهما . . هذه القوة الدولية تتمثل الآن فى دول عدم الانحياز ··

● أعتقد أن سياسة الأحلاف الأمريكية تتعثر فى فشلها الآن ، بعد أن استنفدت معظم طاقاتها فى الخلافات والحروب المحلية المحدودة ·· ثم أن « تكتيك الأحلاف » أبطأ بكثير من تكتيك الحرب القادمة الذى يصفه المراقبون السياسيون بانه « تكتيك عنيف سريع يعتمد فى حركته على ومضات قصيرة من الوقت » ·· ألا ترى أن سياسة الأحلاف أصبحت « ورقة بائرة » فى يد الغرب ؟ ·

ـ ان الحرب القادمة ستكون حرب فناء ·· والآلام الفظيعة التى تعرضت لها شعوب العالم فى الحربين الماضيتين بذرت كراهية الحرب فى نفوس هذه الشعوب ·· بما فيها الشعب الأمريكى والشعب السوفييتى نفسه ! ·

والشعوب تكره فكرة الأحلاف العسكرية ، لأنها تحمل فى طياتها « نية الاعتداء » ، ويتجسم فيها شبح حرب قد تقع ·· ولذلك تحاول قوى الاستعمار اقامة أحلافها بالتعاون مع حكومات لها طابع خاص . . حكومات لا تمثل آمال ورغبات شعوبها ·

واذا لم ينبذ الغرب سياسة الأحلاف سيأتى وقت لايجد فيه الحكومات التى يتعاون معها فى تنفيذ سياسته ·· ويومها ستنهار سياسة الغرب من أساسها ·

● عرف السياسة ·· هل هى حرفة ·· فن ·· أم موهبة ؟ ·

ـ السياسة هى احدى وسائل التعبير الجماعى عن رغبات الجماهير ٠٠ والسياسة فن ، وموهبة أيضـــا ٠٠ ولكنها ليست حرفة ٠ فالسياسة الناجحة ترتبط دائما بمبادىء سليمة ٠ والسياسى يوم يحترف يبيع مبادئه !٠

● منطقة الشرق الأوسط ٠٠ هل يمكن ان ترسم لها صورة تحدد فيها تخطيطها السياسى بعد ١٠ سنوات ؟

ـ ان منطقة الشرق الأوسط تقوم بدور هام جدا فى السياسة العالمية ٠٠ وبعض الناس خارج المنطقة يعتقدون أن الشرق الأوسط ميدان صراع بين نفوذ الشرق والغرب ، وان الأحداث التى تمر بالمنطقة الآن هى أحد مظاهر هذا الصراع ٠٠

وهذا تفكير غير سليم ٠٠ فالشرق الأوسط له دور تاريخى قـــديم فى تطور العالم ٠٠ الا أن الأحداث التى مرت به منذ أواخر القرن الماضى جعلته يتخلف عن أداء هذا الدور ٠٠ وقد بدأت شعوب المنطقة تصحو من غفوتها واستأنفت على الفور تأدية رسالتها نحو العالم ونحو الانسانية ٠٠ خصوصا من الناحية الأيديولوجية والروحية .

والمبادىء والأهداف التى انبثقت من المنطقة فى السنوات الأخـــيرة سوف تؤدى دورا هاما يؤثر على المبادىء والمذاهب السياسية الســائدة فى العالم الآن تأثيرا لصالح البشرية !٠ ولكن الطريق أمام الدور الذى يؤديه الشرق الأوسط ملىء بالعقبات والحكومات المصنوعة !

وبعد ١٠ سنوات ٠٠ أتخيل المنطقة وقد أدت مرحلة كبيرة من دورها٠ وأتخيل العقبات المصنوعة وقد زال معظمها من على الطريق ٠٠ لتلتقى الجماهير العربية عبر الحدود الموهومة ، وتتحقق الوحدة ٠

***



دكتور نور الدين طراف

حياتى : معركة .. معركة !

« ... وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو أحسست أن ثمة عناية قريبة سوف تضع حدا لمتاعب الوطن وآلام الجماهير وأحسست بالفرج يأتى من الأرض.. وكنا ننتظره من السماء ! »

من فمه عرفت تفاصيل أسطورة بطل الطلبة الشهيد « عبد الحكم الجراحى » .

كانت ذكراه تتجدد كل خريف ، واسمه يتردد داخل حناجر الطلبة عبر السنين . ولم يكن أحد يعرف الاسطورة على وجه التحديد .. حتى زعماء الطلبة الذين كانوا يقودون الاضرابات الصاخبة باسمه .. ليس اكثر من بضع معلومات تقول ان عبد الحكم الجراحى كان زعيما من زعماء الجامعة .. وانه مات فى مكان ما فى وقت ما برصاص الانجليز .. وإن على الطلبة فى انحاء البلاد ان يجددوا ذكراه مع انسام الخريف باضراب صاخب يصرخون فيه وهم يرددون اسمه .. ويضيع اليوم الدراسى ويتسلل الطلبة من المظاهرة واحدا فى أثر الآخر ، وهم يدعون لعبد الحكم الجراحى وينتظرون يوم ذكراه فى الخريف القادم !

ولكن من فمه ، سمعت تفاصيل أسطورة بطل الطلبة الشهيد ..

كان ذلك فى خريف عام ٣٥ .. الأحزاب فى مصر تلد أحزابا صغيرة لتختلف معها فى طريقة الوصول الى الحكم وكسب قلوب الجماهير ! وحزب الوفد أدار ظهره للانجليز وراح يطالب بعودة « دستور سنة ٢٣ » الذى ألغاه اسماعيل صدقى ووضع مكانه دستورا هزيلا يحمل اسم « دستور سنة ٣٠ » . والحزب الوطنى ومصر الفتاة وبعض العقول الشابة فى الأحزاب الأخرى تقول ان جلاء الانجليز هو القضية الكبرى التى يجب أن نعبىء من أجلها مشاعر الشعب .. أما معركة الدستور فمعركة جانبية ستبتلع الجهد ، وتحول تيار المد الثورى الكبير .

واتفقوا جميعا على الا يتفقوا !.

وهم فى قمة الخلاف ، أصدر « صامويل هور » وزير خارجية بريطانيا بيانا هاجم فيه حركات التمرد فى مستعمرات التاج ، وعرج فى بيانه على مصر ، فاتهم الاتجاه الثورى الجديد الذى اندلع بين صفوف الشعب مناديا بالجلاء بأنه « اتجاه مجنون من شعب لا يعرف مصالحه الحقيقية » !.

وكان تصريح « صامويل هور » الشرارة الأولى التى ألهبت أكوام الحطب .

ففى الصباح ، امتلأ شارع الجامعة بطوفان من الطلبة ووقف عبد الحكم الجراحى زعيم كلية الآداب على سور « حديقة الحيوانات »

يلقى في الطلبة آخر خطبة له فى حياته .. وتبعه على عفيفى زعيم كلية دار العلوم .. ثم حملوهما على الأعناق ، وتحرك الطوفان الصاخب الى الجيزة فى طريقه الى مبنى رئاسة الوزراء بشارع قصر العينى .

وصلت جموع الطلبة الى ميدان الجيزة . وخرجت النسوة الى الشرفات وعلى السنتهن زغاريد كأغاريد النسور .. واغلقت المحال فى الميدان ، وانضم أصحابها الى الطلبة .. يهتفون : الجلاء بالدماء .. الموت للانجليز .. اما الجلاء واما الفناء !

وانحدرت الجموع من الميدان فى طريقها الى كوبرى عباس ..وعلى بعد مائة متر من الكوبرى وجدوا الطريق أمامهم مسدودا بالمدافع الرشاشة !. وأصدر الكونستبلات الانجليز أوامرهم الى العساكر المصريين .. ففتحوا على جموع الطلبة نيران مدافعهم فى مستوى ما فوق الرءوس .. واصابت عبد الحكم خمس رصاصات فى صدره وفى فمه .. واخترقت بطن على عفيفى رصاصتان .. وسقط الاثنان من فوق اعناق الطلبة وفى صدر كل منهما انفاس أخيرة واهنة تخرج ولا تعود .. ومن حولهما عشرات من الجرحى يسدون بجثثهم وأناتهم عرض الطريق .

***

قال لى الدكتور نور الدين طراف « لقد شهدت هذه المعركة .. وانا عندما اذكرها تقفز الى ذهنى معارك كثيرة اخرى خضتها فى حياتى » .

وحكى لى حياته معركة معركة .. قال :

● دخلت الدنيا لأعيش فيها للآن .. ودخلت « الكتاب » لأتعلم القرآن ومبادىء الحساب .. ودخلت سجن الاستئناف لأمضى فيه ٥٤ يوما بينى وبين الدنيا قضبان من حديد مستورد من الخارج !.

ودخلت الوزارة مع الثوار .. وبقيت معهم ومع الثورة أخدم تحت اعلامها .

ولكل دخلة قصة . ومجموع هذه القصص يساوى ٥٥ عاما من عمرى !

● دخلت الدنيا فى عزبة صغيرة اسمها عزبة « على طراف » تقع فى حضن قرية دمشير مركز المنيا . وكان تاريخ اليوم ٣ ابريل والسنة ١٠ .. وعندما تعلمت المشى ، كان أول مشوار مشيته الى كتاب العزبة .. واستلمنى « الشيخ أبو بكر مخلوف » عريف الكتاب فدس فى راسى جزء «عم» ومشيت عدة سور فى جزء « تبارك » . وحفظنى من جدول

الضرب أرقاما صغيرة مضروبة فى أرقام صغيرة لم تكن فى حاصلها تتعدى « خانة العشرات » .. ومع كلام العريف لأبى احسست أننى بهـــذه المعلومات المتواضعة قد عرفت من الدنيا كل ما فيها !.

* كان شقيقاى عمر طراف وشمس الدين طراف قد سبقانى الى القاهرة . لحقت بهما ودخلت مدرسة الحسينية الابتدائية .

وبعد شهور قامت ثورة ١٩ .. تعطلت الدراسة فى المدارس وتقطعت المواصلات . واندلعت الثورة فى انحاء البلاد ..

وانضم اخى عمر ، ومن بعده اخى شمس الدين الى « جمعية انصار الفضيلة » . كانت الجمعية فى ظاهرها تدعو الى الفضيلة . أما رسالتها الحقيقية فكانت استثارة الجماهير وتعبئة الشعب للثورة واغتيال الانجليز . وكان أعضاء الجمعية يجتمعون فى بيتنا بالعباسية ، يضعون الخطط ويناقشونها ، واحيانا يجتمعون فى بيت احد الأعضاء فى الهرم ويخرج « أولاد عنايت » مسدساتهم ينظفونها ويزيتونها ثم يطلقونها على اهداف مثبتة بعيدا فى الرمال !.

وكنت افهم كلامهم ، واناقش معهم خططهم ، ولكنهم كانوا يهربون منى ساعة التنفيذ ولا يسمحون لى ولو بدور صغير !.

وفكر اخى عمر أن يبعدنى عن خطر الأحداث .. وصباح الثورة ، أخذنى من يدى ووضعنى فى مركب فى النيل كان متجها الى الصعيد .. وكانت المراكب ايامها هى المواصلة الوحيدة التى لم تتوقف عن المسير .. ووصلت المنيا بعد ٣ أيام !

● عدت الى القاهرة بعد أن هدأت الأحوال . ونجحت فى الابتدائية من مدرسة القربية بالعباسية .. ودخلت مدرسة السعيدية الثانوية ، واذكر من زملاء الدراسة فيها جلال الحمامصى والمرحوم مختار التتش ..

ودخلت كلية الطب ، وكونت « كتلة الطلبة القوميين » . وكانت اهداف الكتلة أن نرتقى بالتفكير الوطنى ، وان نتحرك سياسيا فى اتجاه واحد نحو قضية الوطن الكبرى .. الجلاء ..

.. ولم يكن الجلاء قضية الوفد ولا معظم الأحزاب الأخرى .. كان همهم أن يشعلوا شباب الاحزاب نارا تطالب السنتها بعودة دستور ١٩٢٣ واجراء انتخابات ليقفزوا الى الحكم أولا ، ثم يمطوا اعناقهم بعد ذلك ليناقشوا الانجليز فى مسألة الجلاء !.

واصطدمت « كتلة الطلبة القوميين » بشباب الأحزاب مرات كثيرة ، وفى كل مرة كنا ننتصر بنظافتنا وصدق مبادئنا ..

وقفزت مبادىء الكتلة الى كليات الجامعة الاخرى،واصبحت الأغلبية في كل كلية من انصارنا .. وزاد من قوتنا انني أصبحت وكيل اتحاد الجامعة الذى كان يرأسه الدكتور مصطفى مشرفة عميد كلية العلوم .. واستطعت أن أقنع أعضاء الاتحاد بمبادىء الكتلة .

● تكون حزب « مصر الفتـــاة » سنة ٣٢ فانضـــممت اليه .. ثم اختلفت أنا والزميل فتحى رضوان وبعض الأعضاء مع أحمد حسين حول انحرافات طرأت على اتجاه الحزب ، فاستقلنا منه ودخلنـــا « الحـــزب الوطنى» .

● كانت الأذهان مهيأة للثورة .. والمعركة التى تخوضها الأحزاب من أجل الدستور والانتخابات معركة سطحية لا تخدم القضية ، وتطفىء جمرات الثورة التى كنا ننفخ فيها .. وقررنا نحن شباب الحزب الوطنى، أن نضع رءوس الأحزاب فى «طاقية» واحدة ! اتصلنا بحافظ رمضان ومحمد محمود وباقى الزعماء ، واستطعنا أن نوحد الجهود .. ولكنهـا كانت وحدة شكلية لا تسندها روح ..

وقفزت على الأفق السياسى فكرة مفاوضة الانجليـــز .. وحدد الحزب الوطنى موقفه على الفور ، فنادى أن«لا مفاوضة الا بعد الجلاء» . ورفض أن يشترك فى هيئة المفاوضات .. واستقل حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين بتكوين هيئة لمفاوضة المستر انتـــونى ايدن وزير خارجية حزب المحافظين .. وانتهت المفاوضات بـ « كارثة » سنة ٣٦ !

● بعد أسبوع ، ذهب مكرم عبيد الى قاعة الاحتفـــالات بالجامعة ليلقى محاضرة عن « مزايا معاهدة ٣٦ » .. وقمت من الفجر مع بعض أعضاء « كتلة الطلبة القوميين » وحملنا « الفرش » و « جرادل البوية » وملأنا شارع الجامعة بكتابات كبيرة : « تسقط المعاهدة » .. « مزيد من الأغلال حققتها المعاهدة » ! .

لكن البوليس أزال ما كتبناه فى الصباح ، وضرب حصـــارا على الجامعة ، وسمح بالدخول لشباب كل الأحزاب .. ماعدا طلبة الحـــزب الوطنى ، وكتلة الطلبة القوميين !.

***

● دخلت سجن الاستئناف مرتين لأسباب سياسية .. مرة سنة ٣٥ ، وخرجت منه بعد ٤ أيام .. ومرة أخرى سنة ٣٧ ، وامضيت وراء القضبان ٥٠ يوما . وامتحنت لبـــكالوريوس الطب وأنا فى السجن ، وخرجت منه وأنا أحمل مؤهل الطبيب !.

● اشتغلت طبيبا فى مركز رعاية الطفل بالجيزة .. وتشكلت أول نقابة للأطباء سنة ٤١ ، ورشحت نفسى فيها عن الأطباء الجدد .. ونجحت .

فكرت فى أن أتخصص ، وحصلت على دبلومين : دبلوم فى أمراض الأطفال ، ودبلوم فى أمراض النساء والولادة .

وبدأت أحضر للدكتوراه ، ولكننى انتخبت سكرتيرا لنقابة الأطباء ، ونجحت فى انتخابات مجلس النواب عن دائرة دمشير سنة٤٤ .. وشغلنى عملى فى النقابة وفى البرلمان عن الدكتوراه .. فصرفت عنها النظر !.

كنت أحد ممثلى المعارضة فى مجلس النواب الذى كانت تسوده اغلبية مؤتلفة من السعديين والأحرار الدستوريين .. ودخلت معركة الانتخابات سنة ٤٩ .. ورشحت نفسى عن نفس الدائرة « دمشير » واستمرت عضويتى فى المجلس الجديد الى أن صدر قرار بحله فى مارس سنة ٥٢ ..

● عدت الى عيادتى بالجيزة أمارس فيها عملى ، ونجحت فى انتخابات « وكيل نقابة الأطباء » .. ولم أرشح نفسى لمنصب النقيب لاننى لم يكن قد قضى على ١٥ عاما وانا أمارس المهنة ، وهى المدة القانونية التى يجب توافرها فيمن يرشح نفسه لهذا المنصب ..

وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو احسست أن ثمة نهاية قريبة سوف تضع حدا لمتاعب الوطن وآلام الشعب .. أحسست بالفرج يأتى من الأرض وكنا ننتظره من السماء !

وتمنيت أن أصنع شيئا .. وأن أسير مع الركب الجديد الذى انتظرته الأجيال . وتحققت أمنيتى فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٢ عندما اختارتنى الثورة لأشترك فى الوزارة . ومازلت أخدم تحت أعلام الثورة حتى الآن .





عبدالخالق حسونه

منطق الدول الصغيرة ؟

« .. ذهبنا فى الصباح الى مدرسة الحقوق ، وقد اعتلى وجوهنا الوجوم .. تحول الانفعال بالوجوم الى الى ثورة عارمة انتشر لهيبها بين طلبة المدرسة . بدأنا نهتف هتافات عدائية ضد الانجليز .. ونطالب باطلاق سراح أعضاء الوفد .. قررنا ألا ندخل فصول الدراسة الا اذا خرج سعد وزملاؤه من زنزانة قصر النيل ..

وخرج الينا « مسيو والتون » ناظر المدرسة .. حاول أن يهدىء ثورتنا ، ولكن الزمام كان قد أفلت من يديه ، ومن أيدينا .. كنا جميعا نحترق بنار الشعور الوطنى وكراهية الانجليز ، ومستحيل أن يطفى نارنا من أشعل فينا النار . ! » .

شكا لى من الغلاء .. قال انه يصرف أول كل شهر مرتب وزير ، ومرتب الوزير — بعد الاستقطاعات — ٢٠٨ جنيهات وبضعة قروش ، وعدد من ورقات البوستة فئة المليم يتركها معظم الوزراء ، فى العادة لصراف الخزانة !.

وهو يسكن فى فيلا يملكها فى حى منشية البكرى .. فيلا تدخلها فتراودك على الفور فكرة خبيثة .. الا تخرج منها .! ويعانى من الروماتيزم فى ساقيه ولكنه يملك ثمن العلاج ويدفعه لأطباء مشهورين ولأصحاب « حمامات الرمال » فى حلوان !

وشكا لى من الغلاء !!

قال ان أولاده كثيرون ، ٥ أولاد : ابن يدرس القانون فى كلية الحقوق ودرس العلوم السياسية فى جامعة « كامبريدج » . وابن آخر تخرج أيضا فى الحقوق . وبنت متزوجة من أحد أعضاء الوفد الدائم فى الأمم المتحدة بنيويورك . وابن وبنت فى الجامعة .

.. وأنت لا تتصور .. الأولاد بيكلفوا .!

***

وانتهى عبد الخالق حسونة أمين عام الجامعة العربية من حديث الغلاء ، وبدأ الحديث عن نفسه ورحلة عمره .. :

● وجدت أولادا كثيرين يزورون البيت عندما بدأت أعى الأشياء من حولى .. كان أبى « الشيخ محمد حسونة » عالما فى الأزهر ، وكان يسكن فى بيت العائلة بشارع عمر شاه فى حى السيدة زينب مع ستة من اخوته .. كلهم متزوجون ولهم أولاد .

وفى بيت العائلة ولدت فى ٢٨ اكتوبر ١٨٩٨ .

● لما بلغت ٥ سنوات ، أجلسنى أبى فى أحد فصول مدرسة « السلطان مصطفى » الأولية حفظت فى المدرسة بعض سور القرآن الصغيرة وتعلمت مبادىء القراءة والحساب .

انتقلت الى مدرسة « محمد على » الابتدائية ، كنت تلميذا هادئا ومجتهدا أثرت تربيتى المحافظة على بناء شخصيتى وأنا فى هذه السن المبكرة فكنت منطويا لا أعطى صداقتى الا لعدد محدود من الصبية

التلاميذ . اما بقية أصدقائي فكانوا من كتب الأدب ودواوين الشعر القديم . وكنت أخلو اليهم معظم الوقت فى مكتبة المدرسة !.

لم يكن ينتشر فى أيامى غير لعبتين : كرة القدم ، والجمباز .. وكرة القدم لعبة جماعية .. فضلت أن ألعب الجمباز !

أخذت الابتدائية سنة ١٢ ، وكان ترتيبى الـ ٦٧ على القطر .

● دخلت مدرسة الخديوية التجهيزية .. بدأت الحرب العظمى .. أعلن الانجليز الحماية على مصر وخلعوا الخديو عباس حلمى وملأوا كرسى السلطنة بالسلطان حسين كامل !.

كانت معسكرات الانجليز تنتشر فى القاهرة وضواحيها . كنت لا تمشى خطوة حتى تتعثر فى معسكر تطل منه وجوه حمراء .. فى العباسية وفى قصر النيل وفى ناحية المعادى المهجورة .

وكان للجنود الاستراليون والنيوزيلنديين هواية غريبة .. عند الغروب كانوا ينطلقون فى الشوارع كالمردة يخطفون الطرابيش من على رءوس الناس ، ينزعون « الزر » ثم يضغطونها فوق رءوسهم وينطلقون مع الريح تشيعهم ضحكات المارة ، ولعنات أصحاب الطرابيش ! .

وكانت الحركة الوطنية قاصرة على الحزب الوطنى ، مصطفى كامل قد مات فى فبراير سنة ٩. ومحمد فريد منفى فى المانيا . وكل من تحوم حوله شبهة الوطنية تنفيه السلطة على أول باخرة الى مالطة !

● غزت السياسة تفكيرى كما غزت تفكير الكثرة من شباب العصر .. كنت اتتبع أخبار الحرب واخبار الحركة الوطنية فى جرائد : اللواء المؤيد . المقطم . الجريدة .

اغرقت فى قراءة الأدب العربى وادب شكسبير .. قرأت : كليلة ودمنة . والف ليلة . ومقدمة ابن خلدون . وقرأت هاملت وتاجر البندقية .. شدنى غموض شكسبير ورمزيته .

أخذت الكفاءة سنة ١٤ . والبكالوريا « شعبة آداب » سنة ١٦ .

***

● فى « عابدين » بالقرب من الميدان .. كان يسير موكب السلطان .. سقطت قنبلة يدوية على الموكب فأخرجت احشاء أحد الحراس ، وجرحت كثيرين .. وقع الحادث بالقرب من مدرسة الحقوق ، فأمر السلطان حسين بنقل المدرسة الى الجيزة !.

دخلت مدرسة الحقوق فى الجيزة .. كان عدد طلبة المدرسة ٢٠٠ طالب ، فى كل سنة دراسية ٥٠ طالبا فقط . انتهت الحرب العظمى ، بدأ الشعب يطالب بالتخلص من الحماية البريطانية .. كون سعد زغلول وفدا وطلب من المندوب السامى أن يسمح له بالسفر الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية . رفض المندوب السامى ، وأمر بالقبض على سعد وسائر أعضاء الوفد . قبضوا على سعد وعلى شعراوى وحمد الباسل وعبد العال حلمى وعبد العزيز فهمى ووضعوهم تحت حراسة شديدة فى احدى زنزانات ثكنات قصر النيل ..

ذهبنا فى الصباح الى مدرسة الحقوق،وقد اعتلى وجوهنا الوجوم. تحول الانفعال بالوجوم الى ثورة عارمة انتشر لهيبها بين طلبة المدرسة .. بدأنا نهتف هتافات عدائية ضد الانجليز ، ونطالب باطلاق سراح أعضاء الوفد . قررنا الا ندخل فصول الدراسة الا اذا خرج سعد وزملاؤه من زنزانة قصر النيل .

وخرج الينا « مستر والتون » ناظر المدرسة .. حاول أن يهدىء ثورتنا ، ولكن الزمام كان قد أفلت من يديه ، ومن ايدينا .. كنا جميعا نحترق بنار الشعور الوطنى وكراهية الانجليز ، ومستحيل أن يطفىء نارنا من أشعل فينا النار !.

واتصل والتون بمستر شيلدون ايموس مستشار وزارة الحقانية .. وجاء شيلدون ، وكنا نعرف عنه حبه للمصريين ، وحاول أن يلقى الماء على ثورتنا .. قال لنا « أنا معكم .. سوف نصلح كل شىء ، فقط ادخلوا الدراسة الآن » .

وهتفنا فى صوت واحد : « فصول الدراسة حرام علينا .. حتى تفرجوا عن المعتقلين » ..

وتدفقنا خارج المدرسة الكتف تسند الكتف ، والحناجر تردد الشعارات الوطنية والهتافات العدائية ، والأيدى ٠٠ مئات الأيدى ٠٠ تلوح فى الهواء بالنذير ٠

ومررنا على مدرسة الطب والزراعة والمهندسخانة ، وعلى باب كل مدرسة كانت تنضم الينا مئات الحناجر ليرتفع زئير الخضم الثائر .

وامتدت الثورة من الحناجر الى الأيدى . ومن أيدى الطلبة الى أيدى الوف الموظفين والعمال . وبدأت موجة من العنف الصاخب .. قطعت الأشجار ، واقتلعت أعمدة النور ، وخرجت عربات الترام عن القضبان!.

ثم تألفت « لجنة الموظفين » لتنظيم اضراب الموظفين ، و « لجنة العمال» .. ولجان أخرى لكل الطوائف .

ثم صدرت القاهرة ثورتها الى الأقاليم .. فتقطعت المواصلات .. وتكسرت أعمدة التلغراف ونزعت عنها أسلاكها . وخلعت قضبان السكة الحديد .

وكانت ثورة ١٩ .. التى اشتعل لهيبها ، أول ما اشتعل ، فى حوش مدرسة الحقوق بالجيزة !

● حرمنا من الامتحان ، وضاع علينا العام .. كنت سأحصل على ليسانس الحقوق سنة ٢٠ فحصلت عليه سنة ٢١ !

***

● اشتغلت محاميا فى مكتب المرحوم اسماعيل زهدى . أعلن تصريح ٢٨ فبراير ٢٢ ، وبمقتضى الاستقلال الاسمى الذى حصلت عليه مصر انشئت وزارة الخارجية وسمح لمصر بانشاء سلك دبلوماسى لأول مرة .. أعلنت وزارة الخارجية عن بعثة الى انجلترا وأخرى الى فرنسا يكون أعضاؤها نواة للسلك الدبلوماسى الجديد .. وقع الاختيار على لاسافر فى بعثة لندن .

امضيت ٣ سنوات فى جامعة كامبريدج .. درست الاقتصاد والعلوم السياسية وحصلت على درجة الماجستير ..

عدت الى مصر سنة ٢٥ ..

● لم أجد لنفسى مكانا فى وزارة الخارجية .. طلبتنى النيابة فاشتغلت وكيلا للنائب العام فى الاسكندرية لمدة ٦ شهور .

استدعتنى وزارة الخارجية ، وأمضيت ٦ سنوات أشغل هذه المناصب الدبلوماسية :

برلين : عينت ملحقا سياسيا فى السفارة المصرية ببرلين سنة ٢٦ كانت المانيا قد استعادت شعر رأسها الذى فقدته فى الحرب العظمى .. الخرائب والاطلال ارتفعت مكانها المداخن والعمارات . البطالة الحادة تحولت الى عمالة تامة . كل المانى يجد ما يعمله ، وما يأكله . كانت ألمانيا قد دفعت كل التعويضات التى فرضت عليها بقرارات مؤتمر فرساى سنة ١٩ .. كان « فون هاندنبورج » رئيس دولة المانيا يحاول أن ينسى شعب ألمانيا طعم الحديد والنار . كانت ألمانيا فى حالها تخوض « معركة الخبز والزبد » !

براغ : سنة ٢٨ نقلت الى وظيفة قائم بالاعمال فى تشيكوسلوفاكيا .. عندما رأيت براغ لأول مرة ، كانت المدينة كلها غارقة فى الفرحة بالعيد العاشر لاستقلال تشيكوسلوفاكيا عن امبراطورية النمسا .. كان

اسم « الدكتور مازارايك » رئيس الدولة على كل لســـــان .. كانوا يعتبرونه أسطورة ، وينادونه : « أبو الاستقلال » .

بروكسل : نقلت سكرتيرا ثالثا في السفارة المصرية ببلجيكا .. بعد ان وصلت بروكسل بأسابيع ، أقيم « معرض انفيرس » وبعده « معرض ليبزج » الدولى . اشتركت مصر فى المعرضين . انشئت أيامها « غرفة التجارة المصرية ـ البلجيكية » .. وكان أول رئيس لها مسيو « فيرمان فاندنبورش » النائب العام المختلط السابق فى مصر ووالد مسيو « جان فاندرنبورش » ســفير بلجيكا لعــدة ســنوات لدى الجمهورية العربية المتحدة .

زار مصر الملك « البير الثانى » ملك بلجيكا بدعوة رسمية من الملك « فؤاد » بنيت لهذه المناسبة السفارة البلجيكية الحالية فى جاردن‌سيتى ليقيم فيها ملك بلجيكا طول مدة الزيارة .

روما : نقلت سكرتيرا ثانيا فى سفارتنا بايطاليا سنة ٣٠ . كان قد مضى على موسولينى ١٠ سنوات وهو يحكم ايطاليا ، كنت تلمـــح آثار الديكتاتورية الصالحة فى كل شبر من ايطاليا .. النظام يسود ،والتقدم الصناعى ، والرخاء .

كان الدوتشى فى نظر الايطاليين أيامها مبعوث السماء !.

***

● عدت الى مصر سنة ٣٢ . اشتغلت مديرا لمكتب عبد الفتاح يحيى وزير الخارجية ثم تقلبت بين هذه المناصب :

* رقيت مديرا لادارة الشئون السياسية «٣٤»
* سكرتيرا عاما لوزارة الخارجية بدرجة وزير مفوض «٣٨»
* وكيل لوزارة الشئون الاجتماعية «٣٩»
* محافظا للاسكندرية «٤٢»
* وكيلا لوزارة الخارجية بدرجة سفير «٤٨»
* وزيرا للشئون الاجتماعية فى وزارة حسين سرى «٤٩»
* وزيرا للمعارف فى وزارة على ماهر «٥٢»
* وزيرا للخارجية فى وزارة نجيب الهلالى قبيل الثورة .
* أمينا عاما للجامعة العربية بدرجة وزير فى سبتمبر ٥٢ .. كنت الأمين رقم (٢) للجامعة بعد عبد الرحمن عزام ..

***

قلت للسيد عبد الخالق حسونة :

● من تعتقد انه القادم على الطريق ليضع يده في أيدينا على طريق الوحدة ؟ .

ـ الشعب العربى كله ، فأنا أرجو أن أعيش قريبا اليوم الذى تصبح فيه وحدة العرب شاملة لجميع شعوبهم واقطارهم .. عندئذ يمكننا أن نستمد من هذه الوحدة كل القوة وكل العدة التى تلزمنا للنرفع بها مستوى الفرد ومستوى أمتنا الكبرى .. عندئذ سنستغل امكاناتنا الهائلة ونوجهها الاتجاه الذى يكفل لنا تحقيق أمانينا ..

● ما هو المفهوم العلمى للقومية العربية .. ثم : هل اكتشف الرئيس عبد الناصر القومية العربية .. أم أوجدها ؟ .

ـ القومية العربية هى احساس كل عربى يعيش فى المنطقة بوجوده وتحمله لمسئولياته دون اعتبار لفواصل أو حدود . احساس تحمله القلوب للوطن العربى الكبير ..

والقومية العربية موجودة من قديم .. منذ كان للعرب أمة واحدة تحتل المنطقة كلها .. وبمرور الأيام وبتوالى ألوان الاستعمار المختلفة تفتتت أمة العرب الى دويلات ، وتفتتت القومية العربية الى قوميات عنصرية .

والذى يحدث الآن على يد الرئيس عبد الناصر عملية بعث لروح القومية العربية ، لنعود كما كنا يوما أمة واحدة ..

● ان القوة تسند الحق ، والقوة هى منطق الدول الكبيرة ، فما هو منطق الدول الصغيرة ؟ .

ـ القوة أيضا ! وليس هناك طريق أمام الدول الصغيرة يوصلها الى القوة غير طريق الوحدة !





الأمير عبد الكريم الخطابى
((المرحوم))

انه يوم الأمل العظيم !

« .. لن أقول ماتزيني ولا غريبالدى . ولن أقول بسمارك ولا ابراهام لنكولن .. انه بطل حى يبهرنى بشخصيته ونجاحه السياسى .. انه ابنى وأخى وزعيمى جمال عبد الناصر .. فهو الزعيم الأمثل لأكبر حركة قومية فى الشرق كله .. واشد ما يعجبنى فيه : قوة شخصيته وثباته . وحكمته . وصبره . وصلابته فى الكفاح ..

تمسكوا به .. والتفوا حوله .. فانه الأمل والروح .. »

أكتوبر عام ٥٧ ٠٠ شد « لاكوست » الوزير الفرنسي المقيم فى الجزائر شعر رأسه ، ثم صرخ فى الوزارة الناعمة النائمة فى باريس وطلب مزيدا من المال والعتاد والرجال ٠٠ وانغرزت الصرخة كالطعنة فى قلب «كريستيان بينو » وزير الخارجية الفرنسي ٠٠ لقد أطلق لاكوست ومن قبله كثيرون من « المقيمين العامين » فى الجزائر مثل هذه الصرخة ٠٠ ولكنها لم تكن تحمل مثل هذا اليأس والفزع ٠٠ ان الأحوال اذن تتأزم بخطـــورة فى سهول الجزائر وعلى قمم الجبال ! .

وأمسك بينو قلما أحمر وكتب مذكرة صغيرة طلب فيهـــا زيادة اعتمادات حرب الجزائر عـــدة مليارات من الفرنكات .. وقدم المذكرة للجمعية الوطنية ٠٠ وقرأ النواب الفرنسيون المذكرة الحمراء ثم صاحوا فى ثورة : « لا . . ان هذا كثير . . أكثر مما تطيقه خزانة الدولة » ! .

وبهدوء ٠٠ أخرج بينو نظارته الطبية ووضعها فوق عينيه ووقف يسرد عليهم الموقف ٠ قال : « لقد كنا نحارب « الريفيين » فى مراكش سنة ٢١ بأكثر من مليون جندى فكيف تستكثرون علينا هذه الاعتمادات ونحن نحارب فى الجزائر جيشا أكثر عددا وأضخم استعدادا ؟٠٠ اننا نحارب فى الجزائر جيشا نظاميا !٠ »

وسرى الاقتناع فى صفوف نواب الجمعيـــة الوطنية ٠٠ وخـــرج كريستيان بينو وفى جيبه مذكرته الحمراء وعليها اجماع بالموافقة ٠٠

***

و « حرب الريف » المراكشي هى أكبر معركة فى فجر الكفاح العربى ٠٠ أشعل لهيبها أمير مراكشي فلاح ٠٠ وامتدت ألسنتها من القطـــاع الشمالى فى ريف مراكش فشملت « ايالة » ـ منطقة ـ الريف بأكملها . ثم اتسعت فغطت كل شبر فى أرض مراكش بالدم والبارود .. فى بدء المعركة انتصر الأمير الفلاح على الاسبان بسلاح الاسبان ٠٠ ثم تدخلت فرنسا وفتحت لنفسها جبهة أخرى فى المعركة ٠٠

وبعد ٤ سنوات صمتت بنادق الأمير الفلاح أمام مدافع « الفرنسيين » ٠٠ وقبضوا على الأمير « محمد عبد الكريم الخطابى » ونفوه مع عائلته الى جزيرة « رى أونيون » فى المحيط الهادى ٠ وبعد ٢١ عاما فى المنفى حملوه على ظهر باخرة يونانية الى فرنسا ٠ ولكنه فى الطريق ٠٠ والباخرة تعبر قناة السويس ، هرب واحتمى فى أرض الحمى ٠٠ فى مصر ٠٠

وعاش لم يتكلم ·· لم يقل لأحد أنه بطل ·· لم يتحرك لسانه بتفاصيل معركة الكفاح التى هدت تكاليفها اقتصاد فرنسا ·· وبعد الصمت الطويل ، تكلم بطل « حرب الريف » قبل شهور قليلة من وفاته·

قال لى الأمير عبد الكريم الخطابى :

● فى « ايالة » — منطقة — الريف المراكشى فى الشمال .. وفى قرية « أجدير » ولدت فى ١٥ شعبان سنة ١٣٠١ هجرية ·· أبى الأمير عبد الكريم الخطابى كان حاكم قبيلة « بنى ورياغل » ·· وفى مراكش كلها ٧٠٠ قبيلة منها ٤٠ قبيلة تسكن ايالة الريف ··

كان يحكم مراكش السلطان « الحسن » ·· ولم يكن سلطانه يمتد الى خارج أسوار المدن الرئيسية فى مراكش ·· أما فى الريف فكان أمير القبيلة هو السلطان الحقيقى ·

● مات السلطان « الحسن » وتولى مكانه ابنه السلطان « عبد العزيز ابن الحسن» . جاء قرية أجدير رسول من السلطان الجديد يطلب من أبى البيعة · كتب أبى صيغة البيعة ثم أمضاها وختمها بخاتم القبيلة وأعطاها لرسول السلطان .. وظل أبى يمارس سلطاته على القبيلة كالمعتاد وكأن شيئا لم يحدث !·

● كان عمرى ٤ سنوات ، عندما بدأت أتردد على « المكتب الخاص » الذى أنشأه أبى ليتعلم فيه أبناء العائلة · لم نكن نذهب الى « المكتب العام » الذى يتعلم فيه سائر أبناء القبيلة · كان فى المكتب مدرس مراكشى يحفظنا القرآن ·· وكان أبى يعطينا من حين لآخر دروسا فى التوحيد والفقه والنحو والتاريخ والسيرة النبوية ومبادىء الحساب ··

حفظت القرآن كله .. ثم جودته بطريقة « السبعة » .. وطريقة السبعة تتفرع منها ٢١ طريقة فى القراءة المنغمة ، وسميت بهذا الاسم لأن ٧ من شيوخ الاسلام اتفقوا على القراءة بها · وقد ذكرهم الامام الشاطبى الأندلسى فى كتابه ·

● كنت فى صباى نشيطا لا أهدأ ·· مارست مع صبية القبيلة كل أنواع اللعب الشعبية المراكشية · لعبت معهم لعبة « الأحجم » ·· فكنا ندق وتدا ونضع حوله أشياء يملكها ٥ من اللاعبين ويقوم ٥ آخرون بخطف هذه الأشياء حتى اذا خطفوها كلها انهالوا على حراسها بالضرب المبرح !·

ولعبت أيضا « الطقشيرت » وهي تشبه الجولف . وكنا نلعبها بكرة من الخشب . !

وآذكر من ٧٠ عاما .. وأنا ألعب مع صبية القبيلة لعبة الـ «هيه » كان الواحد منهم ينحنى وهو واقف ثم نمر واحدا واحدا ، كل واحد يضربه بقبضته ، وهو يحاول أن يمسك الذى يضربه .. وضربت صبيا مرة فانكفأ على وجهه وراح فى غيبوبة طويلة ! .

● لم تكن قبيلتنا فى أجدير تشكو الفقر فكل عائلة كانت تملك بيتا وقطعة من الأرض وقطيعا من الأغنام .. ولكنها كانت تشكو الثأر ! .

كان دم أحد أفراد العائلة يسيل نهرا وبجوار جثته يسيل نهر آخر من دم قاتله .. فى اللحظة !.

وانقسمت القبيلة الى فريقين : فريق معنا ، وفريق علينا .. وكان يحمل لواء الثأر فى عائلتنا عم أبى الأمير « سى زيان عبد الكريم » الذى كان يرابط ـ معظم شهور السنة ـ على خط النار يثأر لقتلانا . ومات عم أبى وتولى أبى حماية العائلة !.

● أمضيت فترة من صباى أزرع القمح والشعير والحمص وأجمع ثمار التين واللوز .. وبلغت سن السابعة .. وأصبحت رجلا يجب عليه حمل السلاح ..

وحملت أول ما حملت البندقية « الصيوانى » وهى بندقية اسبانية قديمة حاربت بها اسبانيا مستعمراتها فى كوبا والفلبين عام ١٨٩٠ .. تحشى بالبارود من مقدم ماسورتها ثم تطلقها . وتمسك سيخا ـ لا بد ! ـ تنظف به الماسورة بين الطلقة والطلقة !.

وفى الأعياد الدينية والمواسم القومية كانت القبيلة بكل رجل فيها تخرج الى الغيطان لتتمرن على ضرب النار .. وكنت أخرج أنا وعمى وبعض صبيان العائلة ننصب « الحجرة » ـ أى الهدف ـ وهى حصى صغيرة ترتكز على عود قصير من الخشب ، ثم نبتعد عنها ٢٠٠ متر أو أكثر ونضغط على الزناد !.

وكنت أكثر صبية العائلة اجادة للنيشان .. تعلمت النيشان على البندقية « الصيوانى » .. ثم كبرت فاستعملت بندقية الـ « ماشوكا » وكانت أول بندقية تحشى من الخلف .. وتدربت بعد ذلك على البندقية « الموزر » .

● دخلت أول معـــركة للثأر .. دارت المعركة بيننا وبين « آيت » ـ عائلة ـ داود . خرجنا اليهم على بعد ٤ كيلومترات من قريتنا أجدير .. حفرنا الخنادق وظللنا نتبادل الرصاص طول النهار .. ومع الغروب انسحب « آيت » داود الى بيوتهم ، ولم نتبعهم ، فالتقاليد عندما تقضى الا يلاحق المحاربون من ينسحب أمامهم . فالانسحاب يعنى الهزيمة ! .

يومها مات واحد منهم وجرح منا اثنان . وأطلقت ٢٠ طلقة ! .

● كان عمرى ١٤ سنة ، عندما سافرت الى تطوان لأتعلم .. دخلت مدرسة جامع « السوق الفوقى » . كنا نشترى الكتب ونجلس فى حلقات فى صحن الجامع نستمع الى محاضرة الشيخ .. درست الفقه والنحو والحديث والبلاغة والسيرة النبوية وبعض المحفوظات من الشعر .

● عدت الى أجدير ، وأمضيت عامين أفلح الأرض واحفظ الشعر حتى بلغ مجموع ما حفظته منه ٧٠ الف بيت من مختلف العصور ، ويدخل ضمنها المعلقات السبع المشهورة ..

سافرت بعد ذلك الى « فاس » دخلت مدرسة « جامع القرويين » وهى جامعة اسلامية قديمة أقدم من « جامعة الزيتونة » فى تونس . وجامعة الزيتونة أقدم جامعة دينية ، فقد أنشئت قبـل الأزهر بنصف قرن ! أمضيت سنتين ونصف سنة فى جامع القـرويين . توسعت فى عـــلم الحساب وعلم الفلك القديم والحديث . كانت مدرسة الفلك القديمـــة مبنية على أساس ان الشمس تدور حول الأرض أما المدرسة الحديثـة فأساسها العلمى أن الأرض هى التى تدور حول الشمس !.

درست أيضا « علم التوقيت » وهو علم يبحث فى معرفة الوقت من خلال الظواهر الطبيعية على مدى اليوم الجغرافى ويستخدم لذلك ميزان للظل اسمه « الاسطرلاب » وآلة أخرى اسمها « الربع » ..

كان جامع القرويين يخرج قضاة يعملون فى محاكم مراكش ..

● مرة ثانية عدت الى أجدير . ثم رجعت الى فاس لأكمل دراستى .. أمضيت فى مدرسة جامع القرويين ٦ شهور أخرى ، ثم بدأت الفتنـة تجتاح ريف مراكش ..

حمل لواء الفتنة رجل من قبيلة « طرغون » اسمه « سى الجيلانى ابن عبد السلام الظرغونى » .. كان « سى الظرغونى » شيطانا فاسدا يدمن الخمر والحشيش فلا يفيق أبدا ، ويملك حريما من المحظيات !. أغـراه ضعف السلطان عبد العزيز فادعى أنه ابن الحسن شقيق السلطان وطالب بالملك وامتدت ألسنة الفتنة فى البلاد فزادتها تمزيقا ..

وفى ربيع سنة ١٩٠٢ ، قاد « سى الظرغونى » جيشا قوامه ١٠ آلاف محارب من قبائل : « الغيانة » و « الدسول » و « البرانس » ·· يدق أبواب مدينة فاس ويهدد عرش السلطان ·· وخرج اليه السلطان عبد العزيز بجيش ضخم · وعلى أبواب فاس دارت بين الجيشين معركة رهيبة هزم فيهـا الظرغونى وتقهقر بفلوله الى قلعـة « سلوان » فى أرض « آيت قلعية » ··

واانكمش الظرغونى يلعق جراحه سنوات ··

● مرت ٦ سنوات · تضمخ الظرغونى برائحة الفتنة وخرج من قلعة سلوان ليعاود غاراته من جديد · كان أبى مواليا للسلطان وكان يسيطر على معظم ريف مراكش ·· وقرر الظرغونى أن تكون ضربته هذه المرة فوق رأس أبى فى الريف !·

خرجنا لنلقاه فى وطأة ــ سهل ــ « وادى النكور » على مسافة ١٠ كيلومترات شرق أجدير · كنا مسلحين ببنادق الموزر وبالخناجر ·· هاجم خنادقنا قبل الغروب ، وعندما سقط الليل كنا قد رددناه الى معسكره · وعاد مرة أخرى مع الفجر يستأنف الهجوم ، وشهدت أشـعة الشـمس الأولى هزيمته فانسحب من المعركة وعلى أرضها ٨٦ من قتلاه ، وفى الليل هجمنا عليه فى معسكره ، وظلت المعركة مستمرة طول الليل وطلقـات الرصاص تدوى وهى تمرق فتنير الظلام ·· ومع الفجر كان قد فر بمن بقى معه الى قلعة سلوان ··

كان جيشه يزيد على ١٠ آلاف جندى ، ولم يكن جيشنا يتعدى الـ ٤ آلاف · قاد أبى المعركة من قرية « آمزورن » وهى قرية تشرف على وادى النكور · أطلقت من بندقيتى فى هذه المعركة أكثر من ١٠٠ طلقة ،وقتلت ٦ من جيش الظرغونى !

● ارتد سى الظرغونى بعد ذلك الى الجنوب ، هام على وجهـه فى الصحارى والحقول حتى آوته قبيلة « الشتالة » . قبض عليه السلطان عبد العزيز بعد شهور ووضعه فى قفص من حديد حمله الحراس وطافوا به شوارع فاس ·· هذا يلكزه وآخر ينغزه ، وبصق عليه كل الناس !· وفى القبو المظلم تحت قصر السلطان أسقطوه طعاما سـائغا لعشرات من الأسود الجياع !·

● عام ١٩٠٤ عقدت فرنسا مع انجلترا « الاتفاق الثنائى » · وبمقتضى الاتفاق أطلقت انجلترا يدها فى مصر وأطلقت فرنسا يدها فى المغـرب العربى ·· احتلت جيوش فرنسا « الايالة » الجنوبية من مراكش ··

وكانت أسبانيا تحتل ميناءين صغيرين على البحر المتوسط منذ القرن ١٧ : ميناء « ثابتة » وميناء « دميلة » ·· وجاءت جيوش الاسبان سنة ١٩ ومعها أوامر باحتلال الريف المراكشي كله ..

● كانت آخر معركة خاضها أبي ضد الاسبان هي معركة «تفارسيت» ·· احتال عليه ابن القائد الخائن عبد السلام التفارسيتي ودس له السم في طبق من البيض المقلي . مات أبي بعد عودته من المعركة بأيام . أصبحت معركة الريف بلا قائد ، فتوليت القيادة !·

● أنفقت ٧ أشهر أطوف بالقبائل لأجمع شمل رجالها على نبذ الضغائن ودم الثأر المهدور ، وأحضهم على التفرغ للمعركة الكبرى . طفت ببني ورياغل وبني بوعياش ، وبني عبد الله ، وبني حذيفة ، وبني يوسف ، وبني علي ·· واتخذت من شريعة الاسلام دستورا يطبق على الجميع ·

● بدأت معركة الريف في ١٠ أبريل سنة ٢١ · بدأت بمعركة صغيرة اسمها معركة « جبل القامة » كنا نرابط فوق جبل القامة لنحميه من الأسبان · وكان معنى أن يسقط الجبل في يد الأسبان أن يسهل عليهم غزو المنطقة كلها ، فقد كان الجبل يشرف على سهول الريف ويسيطر على طرق المواصلات والقوافل ·

هرب الينا صبي صغير من القطاع الاسباني وقال لنا ان الاسبان سيهجمون عند الفجر · كانت أشجار الغابات تغطي سفح الجبل فأشعلنا فيها النار . رأت قواتنا في القرى القريبة اشارتنا فجاءت على عجل . دارت المعركة وبعد ساعات كان الأسبان قد فروا يحملون جرحاهم ! .

● ثم جاءت المعركة الكبرى ·· « معركة أغربين » · كنا ٢٠٠٠ ريفي نحارب ٣٠ ألف اسباني تحت قيادة الجنرال « سلفستري » · كنا مسلحين بالبنادق فقط · وكانوا مسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة ومدافع الميدان والمدافع الجبلية ··

ارسل الي الجنرال سلفستري انذارا يطلب مني التسليم قبل مضي ٢٤ ساعة فرددت عليه بهجوم مباغت سريع .. استمرت المعركة قوية رهيبة طوال ٥ أيام وعلى امتداد جبهة طولها ٦٠ كيلومترا تنتهي عند قرية « سيدي ادريس » على ساحل البحر المتوسط · كان للهجوم المفاجيء اثره في بث الذعر بين صفوف الاسبان · قمنا بحركة التفاف سريعة حتى طوقناهم تماما ·· وظلوا تحت وطأة حصارنا عدة أسابيع أكلوا فيها خيولهم وشربوا بولهم ! وقتلنا منهم ٨ آلاف وأسرنا ٣ آلاف ، وهرب الباقون ·· واستولينا على كميات هائلة من البنادق والمدافع

الجبلية وصناديق الذخيرة . أما الجنرال سلفستري فأطلق الرصاص على رأسه وانتحر !.

● استمرت المعارك بعد ذلك . كنا نخرج من معركة لنخوض معركة أخرى . كنا نحارب الاسبان برصيدنا من أسلحتهم !. قدت جيوش الفلاحين فى ٢٠٠ معركة كان آخرها معركة « تحللث » . وانتصرنا على الاسبان فى كل ميدان التقينا بهم فيه . حاولوا أن يفاوضونا ويعطونا الحكم الذاتى تحت الحماية الاسبانية ، وعرضوا على منصب السلطان ، ولكنى رفضت المنصب ورفضت أن أفاوضهم ..

● أصبح حتما أن يخرج الأسبان من الريف المراكشى بقوة السلاح . كانت فرنسا تقف موقف المتفرج ولكنها خشيت أن ننقض عليهم فى الجنوب بعد جلاء الاسبان ثم تتسع جبهة القتال لتشمل تونس والجزائر والمغرب العربى كله ..

ودخلت فرنسا المعركة .. فتحت جبهة جديدة للقتال فى غرب مراكش لتجبرنا على أن نحارب فى جبهتين .. اجتمع أمراء القبائل ونصبونى سلطانا على ايالة الريف . استعملت فرنسا أساطيلها وغذت المعركة بأكثر من مليون جندى ، و٥٠٠ طائرة !. كانت الطائرات الفرنسية تلقى علينا قنابلها الحارقة وشديدة الانفجار فى أول المعركة ، وفى أواخر المعركة بدأت تلقى علينا قنابل الغازات السامة !.

فقدت بصرى بفعل الغازات ولم أسترده الا بعملية جراحية . كان تعداد الريف المراكشى ٨٥٠ ألف نسمة منهم ٤٠ ألف مجاهد يخوضون المعارك ضد الاسبان والفرنسيين فى الجبهتين . هلك نصف السكان واستشهد معظم شباب الريف حتى لم يبق غير النسوة والأطفال والعجائز!

انتهت الحرب فى ٢٦ مايو سنة ٢٦ . ووقعت مع كل أفراد أسرتى فى الأسر .. شردت أسبانيا وفرنسا بقية أعوانى وجنودى ، واتفقت الدولتان على ألا تنفرد احداهما بالتصرف فى مصيرى ومصير أسرتى .. حرمت الدولتان على شعب مراكش أن يسمى أبناءه باسمى ، والابن الذى يسمى باسم عبد الكريم كانوا يشطبون اسمه ويحاكمون أباه !.

● بلا محاكمة حكموا على بالنفى المؤبد فى جزيرة « رى أونيون » بالقرب من جزيرة مدغشقر . نزلت هناك مع ٤٠ من أفراد أسرتى فى قصر قديم مهجور يحمل اسم « شودرون » . كانوا يصرفون لى ١٢ ألف فرنك ـ ١٢ جنيها ونصف جنيه ـ فى الشهر . اضطررت أن أشتغل بالزراعة وأن أتاجر فى المحاصيل مع تجار باكستان الذين كانوا يهربون لنا الصحف المصرية وبعض أنواع الأطعمة والأدوات المنزلية .

كان معنا على الجزيرة ملكة مدغشقر . والملك « فين سان » ملك الهند الصينية • وبعض الزعماء الوطنيين فى المستعمرات الفرنسية !•

ساوموني على منصب السلطان فأبيت أن أكون شبحا مثل خيال الظل فى بلادى •• فى الحرب العالمية الأخيرة طلبوا منى ابنى عبد الكريم لكى يحارب فى « كاسيتو » بايطاليا فقلت لهم : اعدموه هنا •• لكنه لن يذهب ليحارب فى صفوفكم !•

● ماتت أمى ونحن فى المنفى فطلبت من الحكومة الفرنسية أن تدفنها فى مقابر الأسرة فى أجدير ، ولكنهم رفضوا طلبى •• أصيب سائر أفراد الأسرة بملاريا مزمنة بعد أن عجزنا عن محاربة « ناموس » الجزيرة الوحشى !• أمضينا فى المنفى ٢١ عاما و٧ شهور ، ثم قررت الحكومة الفرنسية سنة ٤٧ أن تنقلنا الى فرنسا •• ركبنا الباخرة اليونانية « كاتومبا » • وفى السويس استطعت أن أتسلل من الباخرة مع كل أفراد الأسرة • ولجأت الى مصر •• أرض الحمى ••

***

قلت لبطل « حرب الريف » :

● لابد أنك قرأت كثيرا عن أبطال الحركات القومية •• من منهم يملأ قلبك ؟ •

ــ لن أقول « ماتزينى » ولا « غاريبالدى » . ولن أقول « بسمارك » ولا « ابراهام لنكولن » •• انه بطل حى يبهرنى بشخصيته ونجاحه السياسى .. انه ابنى وأخى وزعيمى : جمال عبد الناصر .. فهو الزعيم الأمثل لأكبر حركة قومية فى الشرق الأوسط •• وأشد ما يعجبنى فيه قوة شخصيته وثباته وحكمته وصبره وصلابته فى الكفاح ••

تمسكوا به ، والتفوا حوله ، فهو الأمل والروح ••

● اذن قل لى •• ما هى توقعاتك السياسية للقومية العربية ؟ •

ــ سيأتى يوم ، وأحسب أنه لن يطول بنا انتظاره ، تملأ فيه رقعة الأرض بين الخليج والمحيط دولة عربية موحدة لها عاصمة واحدة ويحكمها حاكم واحد •• وربما ساعده فى الحكم حكام متفرقون فى شتى الولايات العربية الموحدة •• انه يوم سيعيد فيه تاريخ دولة الاسلام نفسه •• وتجتمع فيه كلمة العرب شاملة كاملة على الحزم والعزم وقوة البأس والشوكة ••

انه يوم الأمل الأعظم •• فترقبوه •

● **قلت انك كنت فى المنفى مع ٤٠ من افراد اسرتك .. كم منهم ابناؤك ؟ .**

ـ ١١ فقط .. ٦ أولاد ، ٥ بنات ..

● **سمعتك ترطن مع حفيدك بلهجة غريبة . هل هى اللهجة البربرية أم شىء آخر ؟ .**

ـ المستعمرون يسمونها اللهجة البربرية ، ويطلقون على معظم سكان المغرب العربى لقب « آلبربر » .. أما نحن فنسميها ، لغة « الشلحة » . كل المراكشيين يتكلمونها ، وبعضهم يكتبها ويدرس قواعدها !.

● **قل لى : متى تعود الى مراكش .. وما هى شروطك للعودة ؟ .**

ـ لقد طلب منى « حزب الاستقلال » المراكشى أخيرا أن أعود ، عرض على أن يرد لى كل ممتلكاتى وممتلكات العائلة ، وان يصرف لى تعويضا مناسبا .. لكنى رفضت أن أناقشهم .. ان مراكش مازالت كما هى .. ان فيها ١٨٠ ألفا من جنود الاحتلال الفرنسى ومعظم موظفى الادارة فرنسيون !.

وأنا لن أعود الى وطنى الا بعد أن يتحرر تماما !.

● **أى سلاح تستطيع أن تحمله .. هل تعرف كيف تستعمل الأسلحة الحديثة ؟ .**

ـ لقد استعملت فى كفاحى بنادق « الصيوانى » و « الماشوكا » و « الموزر » .. أما الأسلحة الأوتوماتيكية الحديثة فلم أستعملها قط .. ولكنى مستعد أن أتعلم !..

●

... على أن الموت لم يترك للثائر الشيخ الفرصة !.

***



السلطان علي عبد الكريم

« هرشة السبع سنوات » ؟!

« والهزيمة العسكرية لا ترتبط بالانهزام السياسى .. فقد تكون القوة فى جانب ، والنصر السياسى فى الجانب الآخر ..

والقوة ـ حتى الآن ـ فى يد الانجليز .. انهم هناك لا يملكون الحق ولكنهم يملكون السلطان .. ومع ذلك فالنصر كالفجر تملأ تباشيره أفق الصحارى الممتدة فى جنوب الجزيرة ..

ولكن النصر فى قضايا الشعوب كحجر الماس .. يظل دفين الرمال آلاف السنين ، ثم تحين فترة نضوجه .. وساعتها يصبح الوقت له حساب ..

... وقد آن الأوان !. »

ماهى الهزيمة ؟. ليست الهزيمة فشلا ، ولكنها الطرف السالب لطرف آخر موجب هو : النجاح ! . والهزيمة يتوه مدلولها الفردى الضيق ، عندما تخرج الى نطاق الشعوب .. والمثال حرب السويس .. الظاهر العسكرى للمعركة كان فى صالح الغزاة ، ولكن حقيقة المعركة كانت تضع النصر فى كفتنا .. وضعته يوم انسحبت قوات العدوان . ويوم سقط جى موليه واعتزل أنتونى ايدن الحكم بعد أن انهار حكمه وانهارت أعصابه !.

والهزيمة العسكرية لا ترتبط بالانهزام السياسى .. فقد تكون القوة فى جانب ، والنصر السياسى فى الجانب الآخر . !

والقوة الآن فى يد الانجليز .. انهم هناك لا يملكون الحق ولكنهم يملكون السلطان . ومع ذلك فالنصر كالفجر تملأ تباشيره أفق الصحارى وقمم الجبال الممتدة فى جنوب الجزيرة ..

وقطع السلطان على عبد الكريم حديثه بلحظة تأمل ، ثم استأنف كلامه :

ولكن النصر فى قضايا الشعوب كحجر الماس .. يظل مدفونا فى الرمال آلاف السنين ثم تحين فترة نضوجه .. وساعتها يصبح الوقت له حساب ..

وقد آن الأوان !.

فجنوب الجزيرة تمتلىء وديانه بمليون نسمة يعيشون فى ١٤ سلطنة ومشيخة وامارة . وسلطنة لحج هى أقوى المناطق السياسية . والقتال هناك دوار . والفرصة ناضجة ليتحرر جنوب الجزيرة .. والا فسيضغطون على السلاطين والمشايخ والأمراء .. سيضعونهم فى سلاسل اتحاد فيدرالى مزيف ، ثم يسوقونهم كالقطيع الى السجن الاستعمارى الكبير .. سجن الكومنولث ..

قلت له : ولماذا لا تعود ؟.

أجاب والحسرة تحشو فمه : ان هناك من يمثلنى ويقاوم باسمى .. والقوانين هناك ما زالت تصدر باسمى ، وأئمة المساجد فى « الحوطة » يدعون لى فى خطبهم . ولكنى لا أستطيع الآن أن أعود .. فعندما

ســحبوا اعترافهم بى كسلطان كتبت لى وزارة المستعمرات فى خطاب ، حب الاعتراف تقول :

« وقد اتخذت الاجراءات اللازمة لمنع عظمتكم من دخول المنطقة بأسرها » !٠

ولكن ٠٠ قد لا يتصورون ، اننى حتما سأعود !٠

***

قال لى السلطان على عبد الكريم سلطان لحج وعضو الجبهة القومية لتحرير الجنوب المحتل :

● من صغرى وأنا أميل الى النواحى الكشفية والعسكرية ٠٠ كنت أجمع صبيان الحوطة وأقطع لكل منهم فرع شجرة من حديقة القصر وأضع فرعا غليظا على كتفى فيفعلون مثلى ثم أسير بهم صفا منتظما فى حوش القصر . !

● دخلت المدرسة المحسنية فى الحوطة .. كانت الدراسة فيها ٦ سنوات ولكن لم يكن شرطا أن تنجح من سنة الى سنة كل سنة ٠٠ فالمسألة ترجع الى الشيخ عمر الصيرفى الناظر يرقى من يشاء ويذل من يشاء !٠

كنت فى أول السنة ألتهم دروسى بانتظام ثم ينتابنى الملل فى آخر السنة فانصرف عن « المذاكرة » الى فريق الكشافة ٠٠ وأثقل العلوم على قلبى كان الحساب والهندسة والجبر ٠٠ والنحو ٠٠ خصوصا النحو !٠

أمضيت فى « صف الهجاء » ــ روضة ــ سنتين ٠٠ وأخذت شهادة المدرسة بعد ٦ سنوات ٠ كان عمرى ١٣ سنة ٠٠

● قعدت فى القصر ادرس دروسا خصوصية .. كنت أذهب الى قصرنا فى عدن لأدرس اللغة الانجليزية على يد « الحاج يس راجمتار » ثلاثة أيام فى الأسبوع ، ثم أعود الى الحوطة لأدرس اللغة العربية على يد الشيخ حسن زكريا بقية أيام الأسبوع ٠٠ استمرت الدراسة سنتين ٠

● جئت الى مصر سنة ٣٩ . دخلت كلية فكتوريا بالاسكندرية بقيت فيها الى مايو سنة ٤٠ ٠ دخلت ايطاليا الحرب وتصور النـــاس أن الجيوش الايطالية ستتسلل من ليبيا لتكتسح مصر ٠٠ خاف على أبى فاستدعانى الى لحج ! .

● استمرت دراستى الخاصة ٥ سنوات . انتهت الحرب سنة ٤٦ . اتفقت مع أبى أن أسافر الى انجلترا وأدخل جامعة أكسفورد ولكنه مرض بالقلب ٠ سافر أبى الى مصر وظل شهرين تحت العلاج فى مستشفى المواساة ، وتوليت أنا منصب « نائب السلطان » ٠

ساءت حال أبى وعاد الى الحوطة وهو يحتضر .. ظل شهرين فى غيبوبة متقطعة وفى أيامه الأخيرة كان يغفو بضع دقائق ثم يفتح عينيه ويقول : « احذروا الانجليز .. يريدوا ياخدوا بلادنا .. عار علينا ! » . ثم يلتفت الى ومن حوله جمع من المديرين وكبار رجال السلطنة ويقول . « عينكم على أولادى . عينكم عليهم من الانجليز » .

وظل يكرر جملته حتى أسلم الروح ..

● طالبتنى قبائل لحج جميعها بأن أتولى السلطنة ، ولكنى رفضت تركت كرسى السلطان لأخى الأكبر « فضل عبد الكريم » . زرع اجماع القبائل على تنصيبى الحكم جفوة بينى وبين أخى السلطان . استغل الانجليز الفرصة فراحوا يوغرون صدر قابيل على أخيه هابيل .. رفض اخى أن يعيش معى فى « قصر الروضة » وبنى لنفسه قصرا آخر بجواره .

وجاء ليل ٣١ ديسمبر سنة ٥٠ وكانت ليلة زواجى .. القصر يعوم فى الأضواء ويمتلىء بالمعازيم . وفجأة رن التليفون ورفعت السماعة لأسمع اخى يصرخ فى وجهى :

« انت بتتآمر على .. تتآمر على قتلى .. أخرج من بلادى قبل الفجر يا وغد !. » وركبت السيارة ومعى زوجتى لأقضى شهر العسل فى المنفى .. فى عدن !.

***

امضيت فى عدن سنة كاملة . أمر أخى باعدام الأمير احمد مهدى وابن العم الأمير حسن بن على .. نفذ الحكم على الفور رميا بالرصاص . تذمر شعب لحج وتمردت بعض صفوف الجيش فتسلل السلطان هاربا الى اليمن . حاولت أن أدخل لحج لأتدارك الموقف . منعنى الانجليز .

زحفت القوات البريطانية من عدن واحتلت الحوطة وفرضت الحماية على السلطنة . ثارت قبائل المنتصر والصبيحة وآل البان وبقية قبائل لحج وطالبوا بعودتى الى السلطنة .. توليت عرش السلطنة فى ١١ يونية سنة ٥٢ .

● كان الانجليز قد سيطروا على ادارات المالية والمواصلات والجيش . بدأت استعيد السلطة .. انشأت مجلسا تشريعيا بموجب الدستور اللحجى يتكون من ٢١ عضوا يمثلون الأمراء والقبائل واعيان البلاد . كان قائد الجيش الانجليزى فى عدن هو قائد جيش لحج. عينت ضابطا لحجيا فى منصب القائد وسيطر الضباط اللحجيون على الجيش. كان الموظفون فى الادارات ينفذون أوامر الانجليز . رفضوا الأوامر ،

وبدأوا ينفذون أوامر مجلس المديرين..وفى ستة شهور كنا قداستعدنا سلطاتنا الشرعية وصفينا نفوذ الانجليز تماما ..

* بدأت المتاعب .. نشب بيننا وبين الانجليز صراع طويل حاول فيه الانجليز أن يسلبوا المجلس التشريعى كل سلطاته .. حاولوا ان يفرضوا علينا أنظمة للحكم والادارة تسلبنا السلطة الفعلية وتجمع النفوذ فى يد سير وليم لوس المندوب السامى البريطانى فى عدن .. وكنت أقف فى وجههم كل مرة .. وأرفض كل مشروع لا يصدق عليه المجلس التشريعى .

● رسمت سياسة محددة تهدف الى خلق قوة كافية من الجيش والبوليس .. حاولت أن أتوسع فى التعليم وارسال البعثات الى مصر لأكون جيلا مثقفا يتولى المراكز الفنية والرئاسية فى الدولة .. احتج الانجليز وطالبونا بالانصراف الى المشروعات الأهم للبلاد .. مثل اصلاح الطرق ورشها وكنسها .. وكلها مشروعات — هكذا قالوا لنا — تتعلق بصحة الشعب !

● مضيت فى الطريق رغم المتاعب .. وضعنا مشروع الانعاش الزراعى . يشمل المشروع ادخال زراعة القطن وتنظيم طرق الرى . كان الرى فى لحج يعتمد على السيول تصب فى الوديان ثم تنصرف المياه الى الحقول فى ترع بدائية تضمن الرى الدائم ٤ شهور فقط على مدار السنة . وكان المشروع يتضمن انشاء سد فى منطقة « دكين » وسد آخر قرب « المسيمير » . يضمن السدان زيادة الأراضى المزروعة من ٢٨ الفا الى ٩٠ ألف فدان .. ومشروع آخر وضعناه .. مشروع لانشاء وحدات مجمعة فى كل مركز يسيطر على مجموعة من القرى تشمل مدرسة ومستوصفا ونقطة بوليس ..

ذعر الانجليز من موجة الاصلاح وبدأوا مقاومتهم الفعلية . طلبات استيراد الآلات تدخلوا لدى الشركة ليعرقلوها . الفنيون الانجليز الذين كنا نستعين بهم فى مشروعاتنا تعمدوا الكسل ، والمشروع الذى يمكن تنفيذه فى ٦ شهور نفذوه بطريقة مسلوقة فى ٣ سنوات .. الأطباء المصريون الذين كنا نتعاقد معهم ليعملوا فى مستشفياتنا كانوا ينزلون فى عدن وهناك ترفض السلطات البريطانية أن تعطيهم « فيزا » لدخول لحج .. حاولوا اثارة الفتنة بين صفوف القبائل ففشلوا .. وأخيرا أسقطوا القناع عن وجههم الاستعمارى وزحفوا الى الحوطة بقوة ٤ آلاف جندى و ١٨٠ سيارة مصفحة و ٦٠ مدفع ميدان ، وكأنهم يفتحون جبهة جديدة فى حرب عالمية !

كان ذلك يوم ١٨ ابريل سنة ٥٨ .. وكان احتلالهم للحج عملية سحق للحكومة الوطنية وارهاب لبقية المشايخ والأمراء والسلاطين فى

جنوب الجزيرة . حاولوا القبض على محمد الجفرى رئيس المجلس التشريعي ولكنه هرب . قبضوا على عبد الله الجفرى مدير المعارف والصحة ونفوه الى جزيرة « سوقطرة » في بحر العرب ..

● خرجت أمام أعينهم وقدمت احتجاجا الى « وليم لوس » المندوب السامي . سافرت الى لندن وقابلت « الينوكس بويد » وزير المستعمرات أيامها .. حاول أن يراوغني بمنطق دبلوماسي غير مفهوم فلم يفلح . طلب مني أن اكتب مذكرة ثم نتناقش بعد ذلك في الحجج القانونية . كتبت له ٤ مذكرات بلا جدوى . شممت في الجو رائحة مؤامرة .. كانت القوات البريطانية تشن حملة ارهاب واعتقال في لحج بينما تبحث عن مبرر قانوني للاحتلال الجديد . والمسئولون الانجليز في لندن ينتظرون مني بادرة خطأ ليعتقلوني . سافرت الى ايطاليا .. كنت في ميلانو عندما تمرد الجيش اللحجي ـ عدده ٦٠٠ جندي وضابط مسلحين بالبنادق والرشاشات ومدافع المورتار الخفيفة ـ وانسحب الى اليمن . أعتبر الحادث تآمرا شخصيا مني على حكومة جلالة الملكة ! . ويوم ١٠ يوليو سنة ٥٨ أرسلت الى الحكومة البريطانية خطابا تسحب فيه اعترافها بي كسلطان للحج .. انهم لم ينصبوني على عرش السلطنة وهم ليسوا أصحاب السلطة ، ولم يعترفوا يوما بشرعية حكمي لكي يسحبوا اعترافهم .. انه تبجح المستعمرين ! .

●

قلت للسلطان الثائر :

● لا اكذب اذا قلت لك انني لا أعلم عن لحج أكثر من أنها تقع في جنوب شبه الجزيرة .. حدثني عنها وعن سكانها وشيء موجز عن تاريخها وثرواتها . ؟

ـ سكانها ١٠٠ ألف ، أى أقل من سكان حي عابدين !وميزانيتها ٢٠٠ ألف جنيه مثل ميزانية أى مجلس بلدى متواضع في مصر .. وهي بلد فقير عاطل من الثروات المعدنية كسائر امارات الجنوب ، وتعتمد على الزراعة . حكمت مصر منطقة جنوب الجزيرة كلها أيام صلاح الدين الأيوبي ، وحكمتها « الدولة الصليحية » في اليمن فترة من الزمن .. كانت الحكومة التركية تمر بفترة قوة وفترات ضعف .. كانت تقوى فيمتد سلطانها الى المناطق كلها وتتخذ لنفسها عاصمة أحيانا في «تعز» وأحيانا في « صنعاء » وأحيانا في « جبلة » . وتارة كانت الحكومة المركزية تضعف فتستقل المناطق وتحكم نفسها !

حكمت اليمن سلطنة لحج ٩٢ سنة .. جاءت عائلتنا ـ عائلة العبادل ـ

الى الحكم من ٢٤٠ سنة . حكم فيها قبلى ١٤ سلطانا ، وانا السلطان رقم ١٥ .

● هل تعطينى دراسة خفيفة لمشاكل لحج • ومشاكل امارات جنوب الجزيرة ؟ .

ــ انها مشكلة واحدة رئيسية اسمها « الاستعمار البريطانى » . ونوع واحد من المعاهدات يربط المنطقة كلهابوزارة المستعمرات البريطانية .. وتنص هذه المعاهدات على بندين أساسيين : الحماية ، والاستشارة .. القوات الانجليزية للحماية والحاكم البريطانى للاستشارة ، وان كان رأيه دائما ملزما ! ومنذ سنة ١٨٤٨ حتى الآن عقدت سلطنة لحج مع انجلترا ٢٢ معاهدة من هذا النوع كان آخرها معاهدة سنة ٥٢ .

● الاستعمار ليس فقط اغتصابا للسلطة .. الاستعمار أثر اجتماعى متخلف .. انه يلف المجتمع كالاخطبوط ويشده دائما الى الوراء .. ما هو اثر الاستعمار الاجتماعى فى سلطنة لحج ؟ .

ــ الواقع ان المنطقة فقيرة ومتخلفة اصلا . والاستعمار يتخذها قاعدة عسكرية ومفتاحا للبحر الأحمر والمحيط الهندى .. ولم يظهر أثر الاستعمار الاجتماعى الا فى السنوات العشر الأخيرة عندما تفتحت الأذهان وبدأت تستعد لنهضة اصلاح شاملة ، فجاء الاستعمار يحاول كتم انفاس الوعى الجديد ..

● حدثنى عن نظام الحكم فى لحج .. كيف تحكمون ، وما هى السلطات الممثلة فى الحكم ؟ .

ــ السلطان على راس السلطنة .. ثم مجلس مديرين ــ مثل مجلس الوزراء ــ يضم مديرى ادارات : المالية والمعارف والشئون الخارجية والصحة والزراعة والشئون القبلية والأمن العام والداخلية .. ثم المجلس التشريعى ويضم ٢١ عضوا يعينهم السلطان ويمثلون طبقات الشعب المختلفة . وعندنا بعد ذلك السلطة القضائية ، وهى سلطة مستقلة .. والسلطان يمارس سلطاته من خلال مجلس المديرين .. أى انه يملك ولا يحكم !

● ما هو مبدؤك الذى يتبلور حوله كل حماسك ؟ .

ــ القومية العربية . ثم « الوحدة والتحرر والاشتراكية » .. وهو شعار الوطنيين فى لحج وفى كل امارات الجنوب .. وهو يكاد يكون تفسيرا لمعنى القومية العربية ..

● اى لون يعجبك من الحكام ؟ .

ـ لونه .. الرجل الأسمر .. الرمز .. والقائد : أبو خالد !

● انت متزوج من ٧ سنوات .. الم تتغير افكارك عن الزواج .. الم تشعر ب « هرشة السبع سنوات » ؟ انهم يقولون أنها حالة نفسية تصيب الزوج بعد ٧ سنوات وتدفعه الى رفع حواجبه عدة مرات كلما صادف فى طريقه .. امرأة ! ؟

ـ لم تمر بى هذه الحالة .. صدقنى .. اننى مازلت مع رفيقةعمرى فى شهر العسل !.

● متى يطير من عينيك النوم ؟ .

ـ عندما أفكر فى المستقبل .. مستقبلى ومستقبل بلادى .. ولا يداهمنى التفكير فى المستقبل الا عندما اتمدد فى السرير فأظل أتقلب من عذاب الى الأرق حتى يدركنى الصباح !

***



دكتور طه حسين

تلاميذى أولا .. وكتبى ثانيا !

((ان أول ما يجب على العقل هو أن يكون متواضعا .. وأن يعلم انه قد وصل الى أشياء كثيرة ، لكنه لم يصل بعد الى كل شيء .. والدليل انه يصل كل يوم الى اكتشاف شيء جديد .. ولكنه فى النهاية لن يتعدى حدا معينا من اكتشاف أسرار الكون ..

وأنا لا أحب أن يدخل العقل فى المناقشات الدينية ، وانما الدين شعور يملأ القلب ، ويملك الضمير ، ويسيطر على العمل .. شعور داخلى علينا ان نسلم به ولا نناقشه .. والعالم ((باستير)) كان يقول دائما ((ان ايمانى كايمان العجائز !)) وكان يقول لأصدقائه : ((أحب أن أؤمن ببساطة كما يؤمن بائع الفحم .!))

الفيلا التى بناها وعطرها بلمسات فنية رائعة شملت اثاثها ولوحاتها وتوزيع أحواض الزهور فى الحديقة الحية التى تحيـــط بها ، ثم اطلق عليها قبل أن يهجر الزمالك ويسكنها اسم « رامتان » .. تقف فى الشارع الرابع بعد « الأوبرج » فى طريق الهرم ، وكأنها منسك لعــــابد مخلص يتذوق الجمال ولا يكف أبدا عن الاتصال بالله !.

والاتصال بالناسك المخلص عن طريق تليفون بيتـــــه .. كالولادة العسرة .. كلاهما يحتاج الى عملية جراحية .!

قلت له فى التليفون : اننى اكتب سلسلة من الأحاديث الصــحفية على مستوى عال بعنوان « عصير حياتى » وأملى أن أكتب عنك فى هذه السلسلة ..

وضحك الناسك المخلص .. ضحك لطرافة العنوان..وكانت زوجته بجواره فترجم لها كلمة « عصير حياتى » بالفرنسية .. قال لها ان احد الزملاء الصحفيين يريد أن يكتب عنى حديثــا بعنوان « لى جودى ماڤى » .. وسمعت ضحكة أخرى على التليفون .!

***

وفى الكعبة التى تغطى الخمائل نصف جدرانها على طريق الهرم .. شهدت وفود الحجاج .. أدباء صغار كثيرون يلتفون حول عميد الأدب داخل حجرة مكتبته التى تئن رفوفها من ثقل ما تحمل من المعــرفة .. الجميع يشكون لعميد الأدب .. ضياع دولة الأدب .!

شكاوى وعتاب واقتراحات .. وطه حسين يصغى فى صـــمت . ويلوم . ويشجع . ويرسم لجنوده الصغار خطة يلقى عليهم مهمـــة تنفيذها . ويتكفل وحده فى نفس الوقت بالاشراف عليها من أجل نهضة الأدب ، ومن أجل اعمدة لا تهتز يقف عليهـــا الأدب المصرى بين آداب العالم ..

ان الرجل فى أواخر العمر لا يريد أن يستكين . انه يريد أن يصنع شيئا .. اكثر مما صنع !

وعندما تجلس مع طه حسين تضطر أن تلغى شخصيتك تماما بعـد أن توجه اليه كل سؤال .. فهو لا يتكلم ولا « يدردش » . يملى فقط وعليك أن تكتب .

كنت أقول له عند كل سؤال : ·· فيه سؤال بيقول ·· ولم يدعها عميد الأدب تمر .. قال لى : انت اللى بتقول .. والا السؤال اللى بيقول ..؟

واحسست بالقفشة .. فقلت : أنا وضعت السؤال .. وهو الآن الذى يقول !

ضحك وقال : دهدى .. انت بتتفلسف ؟ اجبت على الفور : غير معقول أن تفلسف وأنا أجلس أمامك !

قلت لشيخ الأدب العربى وعميده :

● أنا أود أن تقول لى شيئا جديدا فى قصة حياتك · شيئا لم تكتبه فى « أيامك » ؟

ـ مالك ومال قصة حياتى .. ان قصة حياتى خاصة بى . أكتب منها ما أشاء فيما اكتب وأضن بما أشاء !.

● هل أنت عبقرى ·· أو نابغة ·· أو مجرد مجتهد ؟

ـ أشهد الله والناس على أننى لا أعتقد فيما بينى وبين نفسى وضميرى اننى عبقرى ، أو نابغة ، أو حتى مجتهد !

● فى بدء حياتك ، هل وضعت لنفسك رسالة محددة المعالم والاتجاه ·· وهل تشعر الآن أنك أديت رسالتك ؟··

ـ أنا لا أشعر اننى أديت رسالتى ·· ولا يشعر انه أدى رسالته الى المحمقون · انما يحكم على ذلك التاريخ ! وما دام الانسان حيا قادرا على النشاط والانتاج ، فمهمته باقية ورسالته لم تؤد بعد !·

● اندثر سلطان العضلات ·· وأصبحت سيادة الانسان نابعة من عقله وتفكيره ·· فما هى أحدث الأدلة ـ عن طريق العقل ـ على وجود الله ؟

ـ كنت أناقش بعض الكتاب البلغار فى نفس هذا الموضوع من يومين وقلت لهم أن أول ما يجب على العقل أن يكون متواضعا ·· وأن يعلم أنه قد وصل الى أشياء كثيرة ، لكنه لم يصل بعد الى كل شىء ·· والدليل أنه يصل كل يوم الى اكتشاف شىء جديد ·· ولكنه فى النهاية لن يتعدى حدا معينا من أسرار الكون ·

وأنا لا أحب أن يدخل العقل فى المناقشات الدينية ، وانما الدين شعور يملأ القلب ويملك الضمير ، ويسيطر على العمل ·· هو شعور داخلى علينا أن نسلم به ولا نناقشه ·· والعالم باستير كان يقول دائما :

« ان ايماني كايمان العجائز » • وكان يقول لأصدقائه « أحب أن أؤمن ببساطة كما يؤمن بائع الفحم » !

● كنت أحد أبناء الأزهر في أول أيامك •• ثم دب بينك وبينه عداء تقليدى •• فما رأيك في الأزهر بوضعه الراهن ؟••

ــ الأزهر من حيث هو معهد من معاهد العلم أحب معاهد العلم الى • لأننى نشأت فيه أولا ، وتعلمت الفهم والنقد والتعبير عما أريد •• وما زلت أحفظ لأساتذتى الأزهريين أخلص الوفاء ••

● كنت في اتجاهك الأدبي محافظا من أشد المحافظين •• ثم تحولت الى مجدد رائد للمجددين •• فما هو سر هذا التحول ؟••

ــ أيام كنت طالبا فى الأزهر كنت محافظا حقا •• ثم طردنى الأزهر لأننى خرجت على المحافظة ! وتاريخى منذ هذا اليوم يؤكد اننى مازلت خارجا على المحافظة !

● من كان أول من ربعك على كرسي الأدب كعميد للأدب العربي ؟

ــ أنا لست عميد الأدب العربى ! انها كذبة صحفية لها قصة سياسية !

ففى الأعوام الأولى بعد سنة ٣٠ كنت عميدا لكلية الآداب ، وجاءت وزارة اسماعيل صدقى فغضبت على لأسباب سياسية وأخرجتنى من عمادة الكلية •• وعز الموقف على الصحفيين والكتاب •• فبدأوا يلقبوننى فى كتاباتهم بلقب « عميد الأدب العربى » • ولصق بى اللقب منذ ذلك الحين !

● قلب أكثر من مرة أن عاصمة الأدب سوف تنتقل من القاهرة الى بيروت •• فهل ما زالت القاهرة عاصمة الأدب ؟

ــ اننى أقول ذلك فى القاهرة • لكنى فى بيروت أقول أن عاصمة الأدب ستنقل الى دمشق !

وبهذا أخلق جوا من المنافسة بين الأدباء فى العواصم العربية •• والواقع ان بيروت بدأت فى السنوات الأخيرة تنافسنا منافسة حامية • فالأدب المترجم أغزر فى بيروت من سائر العواصم العربية •• وأدبنا وكتبنا تستوردها بيروت ثم تعيد تصديرها الى الدول العربية ، ودول المغرب العربى • حتى أدباءنا أصبحوا اليوم يكتبون فى المجلات اللبنانية ويواظبون على قراءتها !•

***

● العمر كله الذى قضيته أستاذا فى كلية الآداب ‥ وأنت لا تلقى محاضراتك الا يوم الأربعاء ‥ فما السر ‥ وهل لذلك صلة بسلسلة كتبك المعروفة « حديث الأربعاء » ؟‥

ـ مطلقا ‥ لقد اقترحت كلية الآداب أن تكون محاضراتى يوم الأربعاء ٠ وقد كنت أنفذ جدول كلية الآداب فحسب !

● فى كل عام منذ قيام الثورة تتغير لهجة الحديث عنا فى الخارج ‥ وأنت عائد من أوروبا منذ أيام ٠ فماذا يقولون عنا وعن ثورتنا هذا العام ؟‥

ـ ان شعوب أوروبا كلها معجبة بنا ‥ ، والشعب الايطالى على الخصوص يتحمس لنا ويتتبع أخبارنا ‥ وعندما كنت فى ايطاليا قبل حرب السويس لقيت الكاتب الفرنسى المعروف جاك مادول ٠ قال لى : ألا ترى ان اتجاه زعيمكم « ناصر » أن ينشئ امبراطورية عربية ؟

قلت له : كان كلامك يساير أكثر منطق العصر لو كنا نعيش فى القرن الماضى ٠ أما فى القرن العشرين وفى العصر الذى زالت فيه الامبراطورية الفرنسية وصفت امبراطورية الانجليز معظم ممتلكاتها ، وفشلت محاولات الدوتشى لاعادة الامبراطورية الرومانية ‥ فى هذا العصر ، لا يعقل أن تراود قائدنا فكرة خلق امبراطورية جديدة ‥ يا صاحبى ‥ لقد زال عصر الامبراطوريات !

● ناديت يوما بالتحلل من قواعد الاملاء فى الكتابة ‥ فهل ما زلت مصرا على هذه الدعوة الجديدة ؟‥

ـ اننى أؤمن اننا فى مصر والدول العربية اذا لم نكتب اللغة كما ننطقها ونسمعها تماما فسوف تضيع « اللغة الفصحى » نهائيا ‥ خاصة بعد أن أصبح التعليم الزاميا ‥

وهذه الملايين من الأطفال والشبان فى المدارس يجب أن نعلمها كيف تقرأ لتفهم ، لا أن نعلمها كيف تفهم لتقرأ !

فاذا كتبت كلمة « كتب » مثلا ، فالطفل معذور ان قرأها بأى تشكيل لا يعطيها معناها الصحيح المطلوب فى الجملة ‥ فغير المعقول أن تطلب منه أن يفهم السياق قبل أن يقرأ الكلمات ‥ واذا أمليت طفلا جملة « دعا الفتى رجلا » فمن الظلم أن تطلب اليه أن يكتب « دعا » بالألف و « الفتى » بالياء ! .

والأمة العربية مخيرة الآن بين أن تصلح قواعد الاملاء فى الكتابة وبين أن تضيع اللغة ‥ ومع اللغة سوف يضيع أيضا القرآن !

● ألا يحل تشكيل الكلمات هذه المشكلة ؟٠

ـ يخفف منهـــا فقط ٠٠ بشرط أن يفرض تشكيل كل الكلمات في المرحلة الابتدائية والمرحلة الثانوية أيضا !

● أنت أول أديب عربي حصل على أكبر عدد من الجوائز الأدبيـــة المحلية والعالمية ٠٠ فكم جائزة حصلت عليها حتى الآن ٠٠ وما هي قصة كل جائزة ؟

ـ كانت أول جائزة حصلت عليها في مصر سنة ١٤ ، وكانت شيكا بعشرين جنيها ذهبا أعطاه الى علوى « باشا » عندما حصلت على درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة ٠ وكنت أول من منحته هـــذه الجامعة درجة الدكتوراه ٠٠

وأول جائزة حصلت عليها من الخارج كانت جائزة « لاتور » التى منحتها لى « كوليج دى فرانس » وهذه أول مدرسة عليا للدراسة الحرة أنشئت في القرن السادس عشر في باريس ولا تعطى شهادات ولا درجات ٠٠ تعلم فقط من أجل العلم وحده ٠٠ وكنت قد تقدمت لها سنة ١٨ برسالة عن « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ٠

وحصلت أيضا على هذه الجوائز :

ـ نيشان ال « جراند أوفيسيير » وهو نيشان أنشأه نابليون ومنحته الحكومة الفرنسية لى أيام كنت وزيرا للمعارف ٠٠ وقد أرسلته أثنـاء حرب السويس الى المفوضية السويسرية وطلبت أن يردوه الى حكومة فرنسا !

ـ ميـــدالية ذهبية من « الأكاديمى فرانسيز » فى اللغة الفرنسية سنة ٥٠ ٠

ـ « جائزة الدولة » من الحكومة المصرية سنة ٤٩ ٠

ـ ميدالية من «جامعة باريس» سنة ٥١ ، وكانت قد قررت أن تمنحنى الدكتوراه الفخرية ولكنها وجدت أن ذلك يتعارض مع لائحتها الداخليـــة ٠٠ لأننى تخرجت فيها !

ـ ست «دكتوراه فخرية» واحدة من مونبيلييه ٠ وواحدة من ليون ٠ وواحدة من روما ٠ وواحدة من أثينا ٠ وواحدة من مدريد ٠ وواحـــدة من اكسفورد ٠٠

ـ جائزة الدولة التقديرية ٠٠ وميداليات وجوائز أخرى لا أذكرها !

● ما هي متعتك في الحياة ؟٠٠

ـ القراءة ‥ فأنا أقرأ طول الوقت الذى يمضيه معى « فريد » ـ يقصد سكرتيره ـ وفى وقت الغداء يتركنى فريد ، وتقرأ لى سيدة أخرى من الساعة الثالثة حتى الخامسة ‥ وبعد العشاء ، تقرأ لى زوجتى حتى أنام ‥

● **ليس أقل من ١٠ ساعات ؟**

ـ أقمنى ذلك !

● **الذين عاشوا فى القرية يشجيهم الناى ‥ والذين عاشوا فى المدينة يشجيهم البيانو أو الكمان ‥ فأى آلات الموسيقى تشجيك ؟‥**

ـ أنغام البيانو تطربنى ‥ وتشجينى الموسيقى الغربية ، وموسيقى السيمفونى بوجه خاص ‥

أما الموسيقى المصرية والغناء المصرى فيضايقنى أشد المضايقة ولا يبلغ من نفسى شيئا ‥ وفى احدى المرات سمعت فى الراديو أحد المغنيين المحدثين ممن أصابوا شهرة واسعة هذه الأيام ، وكان يتشنج بصوت مريض فأغلقت الراديو فى الحال !

● **لا شك أن لك ما تعتز به فى حياتك وتعتبره عصير العمر كله ‥ فما هو ذلك الشىء ؟‥**

ـ انه تلاميذى أولا ‥ وكتبى ثانيا ‥

وأنا أشعر بالغبطة والكبرياء عندما أرى أحد تلاميذى وقد نجح فى أداء مهمته فى الحياة ‥ وأفرح من أجله ألف مرة أكثر من فرحتى بكتاب جديد أنشره على الناس !

***



فاطمة اليوسف
المرحومة

الصحافة ليست مهنة .. بل حب !

« قلت لهم فجـأة : سوف أسميها روزاليوسف ! كان هـذا الاسم هو الذى اشتهرت به على الخشبة المقدسة وعرفه الناس . فأردت أن أتوج به عملا كبيرا قدمه للناس .. ولم أنتظر صدور الترخيص ، بدأت أتصل بأول المحررين الذين سيشتركون معى فى اصدار المجلة ، الصـديق محمد التابعى .. كان التابعى موظفا فى مجلس النواب ، وكان فى نفس الوقت يكتب النقـد الفنى لجريدة « الأهرام » .. سألت عنـه فعلمت أنه فى الاسكندرية . وكان الوقت ضيقا .. والحلم الكبير يعذبنى بالأرق والسهاد ..ـ فاتصلت بالتـابعى بالتليفون ، شرحت له الحكاية وطلبت منه الحضور الى القـاهرة فورا .. ولم يصدق التابعى الفكرة .. ظننى أسخر منه ، أو أدبر له مقلبا يشربه !.. »

كنت أكلمها فى البيت فأجـــدها فى « روزاليوسف » ·· وأكلمهـــا فى « روزاليوسف » فأجـــدها فى البيت ·· يحدث هذا فى الدقيقـــة الواحدة ! وقلت لنفسى : لقـــد عجزت عن أن أدخـــل اليها عن طريق التليفون ·· اذن فلا دخل اليها عن طريق قلبها ! واتصلت بقلبها فى التليفون ، ورد على احسان عبد القدوس ·· قال لى « طيب ·· خليك على التليفون لحظة » ··

وحول السكة على مكتب والدته ، وعلى مسمع منى قال لها :

« يا ماما بس أنت مش راضية ليه ·· ده صحفى كويس ثم هو حيورى حضرتك العصير قبل ما ينشر » ··

ووافقت « ســارة برنار الشرق » والأم الشرعية لنصف الصحفيين والكتاب الذين يأكلون عيشهم من الورق الفلنـــدى والحبر الانجليزى الأسود !

وفى الميعاد ذهبت اليها فى مكتبها ·· حجرة مكتب عادية جـــدا فيها ربع الأناقة وربع مســـحة « المودرنيزم » المنتشرة فى حجرة مكتب احسان نفسه ·· وبالقرب من باب الحجرة « بارفان » تشعلق عليه كل ساسة مصر فى نصف القرن الماضى فى رسوم كاريكاتورية تبرز مساوئهم بشكل مضحك ··

وبدأت هى تتكلم ·· كنت أزن كلامها وأفكارها ، وأحاول أن أصل الى الجذور الدفينة فى أعماق « أم الصحفيين » ··

***

قالت لى السيدة فاطمة اليوسف :

● ان أبرز خط فى شخصيتى هو الكفاح ·· والكفاح فى حيـــاتى طريق طويل لم يغطه أحد بالأسفلت ·· وقد مشيت الطـــريق كله على ساقى حتى كلتا من المسير وأصيبتا بضيق فى الشرايين !

وضعتنى المقادير على أول الطريق وعمرى ٥ سنوات ·· كان على أن أكسب وأن أعـــول نفسى ·· تلفت حولى فوجدت الجمعيات التمثيليـــة كثيرة ·· كل جماعة يملكون موهبة الظهور على المسرح ، ومع الموهبة بعض المال ، كانوا يكونون جمعية للتمثيل ويحترفون الفن !

وبدأت حياتى معهم كـ « كومبارس » ·· كل يوم مع فرقة جديدة ، أعتلى الخشبة المقدسة وأقول كلمة او كلمتين ثم أنزل . وقبل ان أزيل ألوان « الماكياج » أذهب الى شباك التذاكر فيعطوننى ٥٠ قرشا أصرها فى منديلى وأذهب لسبيلى ·

وكان يدفعنى الى احتراف التمثيل عاملان : عامل الكسب · وميلى الجارف الى أن أكون لنفسى بيتا أضع فيه عفشنا ، وأضع فى جيبى مفتاحه !

ولحظة أن تجمع فى يدى أول جنيه ذهبت الى الموسكى واشتريت « كانون » من الحديد بخمسة قروش وحلة نحاس دفعت فيها ١٢ قرشا ومرتبة وكرسيا وأشياء أخرى دفعت فيها الجنيه كله ·· واستأجرت حجرة من شقة تسكنها عائلة أرمنية فى أول شبرا ·وأصبح لى بيت أملك مفتاحه ، وعمرى ١٢ سنة !

● الذين شهدونى فى مطلع حياتى وأنا أقف على المسرح قالوا اننى موهوبة ·· لذلك حرصت على أن أصقل موهبتى من خلال الأدوار الصغيرة التى كنت أمثلها ·

جاءت سنوات الحرب العالمية الأولى ·· كنت مشغولة بمعركتى الخاصة عن معارك « الامبراطور غليوم » ·· وكنت أسمع أخبار الحرب وكأنها تدور فى عالم آخر غير الدنيا التى أعيش فيها ·· مالى ومالهم ، اننى أكسب القدر الذى يكفينى لأعيش ·· وآكل بقرش واحد حتى أشبع ، وهذا يكفى ·!

● أخيرا وصلت اليه ·· الى دور البطولة الذى كان يملأ على أحلامى·· أسند الى « جورج أبيض » سنة ١٧ ، الدور الرئيسى فى رواية «فلاميو» ـ الشعلة ـ وهى تمثيلية وطنية مترجمة عن الفرنسية ··

***

● تعرفت على عزيز عيد ، كون عزيز مع أمين صدقى ثنائيا فنيا مثل الريحانى وبديع خيرى فيما بعد ·· استأجر مسرح « برنتانيا » ـ مكان سينما « كايرو بالاس » الآن ـ وافتتح المسرح بفرقة مختلطة من الهواة وصغار المحترفين · بدأنا بمسرحية « القرية الحمراء » · وكان أبطال المسرحية ثلاثة : عمدة كفر البلاص ، والخفير ، و « عين أبوها » بنت الخفير · يغتصب العمدة بنت الخفير التى تعمل عنده ، فيقتلها أبوها ··

مثل عزيز عيد دور العمدة ومثل نجيب الريحانى دور الخفير ، وقمت أنا بدور عين أبوها ·· ولاقت الرواية فشلا ساحقا ، فالدنيا

حرب ، والجنود الانجليز يعبون الخمر • ومعظم رواد المسرح أيامهـا كانوا من الجنود الانجليز !

● تعاقدت « مدام مارسيل » مع عزيز عيد على أن يعمل بفرقتـه على مسرح « كازينو دى بارى » الذى تملكه فى شارع « عماد الدين » • بدأنا برواية « حنجل بوبو » وهى مترجمة عن المسرحية الفرنسية « ليلة الزفاف » •• مر يومان كانت الصالة فيهما تزدحم بالمتفرجين ، معظمهم من الانجليز • ظنت مدام مارسيل فى الاول أن الاقبال الشديد يرجع الى نجاح المسرحية •• لكن حدث فى اليوم الثالث أن امتلأت الصـالة بالعساكر الانجليز وامتلأت برائحة المؤامرة • ولم تكد المسرحية تبدأ حتى انهال الانجليز على الممثلين بالبيض والطماطم وحزم البرسيم !

كان يوسف وهبى « منولوجست » هاويا فى الفـرقة • ظهـر على المسرح ليلقى منولوجا اسمه : امسكوه •• وما كاد يبـدأ المنولوج حتى طارت الى رأسه بيضة كالقذيفة وسال بياضها مختلطا بصفارها على وجهه وانزلق الى حلقه •• ودولت أبيض قذفوها بحزمة برسيم فغادرت خشبة المسرح مذعورة تجرجر فى ذيل فستانها حزمة البرسيم !•• أما أنا فكنت أقوم بدور « بنت البلد » •• ولم أكد أظهر على المسرح بالملاية اللف حتى ارتفع صفير الجنود الانجليز ، ودوى التصفيق !!

● انتقل عزيز عيد بفرقتـه الى مسرح « دار التمثيل العربى » ، كان يخرج رواية « عواطف البنين » ليبدأ بها الموسم ، وكان فى الرواية ٣ أدوار نسائية : بنت وأم ، وجدة •• كانت الفرقة تضم ٦ ممثـلات كلهن سوريات مسيحيات : ألمظ ستانى ، ابريز ستانى ، مريم سماط ، ورده ميلان ، صالحة قاصين ، وكن جميعا فوق الأربعين ما عدا صالحة فكانت فى سن الشباب •• أسند عزيزعيد دور البنت الى صالحة قاصين، ودور الأم الى ابريز سـتانى ، ورفضت الباقيات أن يمثلن دور الجدة ، فأسنده الى ولم أكن أتجاوز ١٦ سنة !

مثلت الدور بنجاح ، فقد كان صوتى نحيفا خافتا بـلا تصنع ، وكانت الكلمات ترتعش على شـفتى ، ليس من الشيخوخة وانما من فرط الخوف والارتبـاك ! والثياب كانت ثقيلة للغـاية حتى انحنى ظهرى لثقلها • والأضواء كانت ترهبنى فكنت أنكس رأسى وأخطو على خشبة المسرح وأنا أستند على عصا وأتعثر فى خطاى !

● يلوكون بألسنتهم كثيرا حجة رخيصـة تقول أن الحاسـة الفنية عند الجماهير حاسة سطحية ضعيفة ومنكمشة •• وأنا أسـوق الى الذين يزعمون أن الجمهور ، سواء فى المسرح أو السينما ، لا يقبل الا على روايات

التهريج الرخيص ٠٠ والى الذين يعتذرون عن ضعف عملهم الفنى بأنهم انما ينزلون آلى مستوى الجماهير .. أسوق هذه الحكاية :

من ٢٢ سنة كانت فرقة رمسيس تمثل رواية « غادة الكاميليا » على مسرح رمسيس ٠ وكان الاقبال على المسرحيةمنقطع النظير ٠ والمتفرجون من لحظة رفع الستار عن المشهد الأول حتى هبوطه على المشهد الأخير يجلسون فى خشوع وصمت وكأنهم فى معبد بوذى ٠٠ وقد أحدثت المسرحية هزة كبرى بين النقاد والناس من كل الطبقات ٠٠ وبدأوا ينظرون الى ممثلى المسرح باحترام ، فقد كانوا يقدمون لأول مرة شيئا جديا عمليا هاما مثل السياسة والاقتصاد والتعليم !

وكان يحدث أحيانا أن يغمى على أحد الرواد من شدة التأثر ٠٠ ولم يكن أحد يتحرك أو يحس به ٠٠بينما يتسلل عامل الصالة فيحمل المتفرج المغمى عليه فى هدوء !

لقد كانت هناك اصالة فى فن المسرح وفن الفرجة على المسرح !

● اعتزلت المسرح سنة ٢٥ ٠٠ وفى سنة ٣٤ وقع حريق كبير فى قرية « محلة زيادة » التهم القرية بأكملها وشد أعصاب الشعب فى القطر كله ٠٠ وتسابق الناس الى التبرع لاعادة بناء القرية المحترقة ، فقررت أن أعود الى الخشبة المقدسة لأمثل دور البطولة فى مسرحية « غادة الكاميليا » ليلتين فقط يخصص دخلهما لصالح القرية المنكوبة ٠٠

وقبل أن يرتفع الستار ، كان محمد التابعى يجلس فى الصفوف الأمامية وهو يهمس الى أصدقائه من النقاد : يا ترى حتعرف تمثل بعد الاعتزال الطويل ؟!

لكنى مثلت دورى وايمانى بفنى يصعد بى الى القمة ، وكانتا ليلتين خالدتين ٠٠

وفى فجر الليلة الثانية ، غادرت خشبة المسرح بلا عودة ٠٠ الى الأبد !

***

● عشت فترة فراغ ٠٠ وذات أصيل ، كنت أجلس فى محل « كساب » الحلوانى ــ مكان سينما ديانا الآن ــ وكان يجلس معى الأصدقاء : محمود عزمى ، أحمد حسن ، وابراهيم خليل صراف « روزاليوسف » الآن ٠٠ وتطرق الحديث الى حاجتنا الى صحافة فنية

محترمة ونقد فني سليم ينهض بالحيـــاة الفنية ويقف في وجه موجة « المجلات الهزيلة » التي كانت تعيش كالنباتات الطفيلية على حساب الفن ..

ووجدت نفسي أقول للزملاء فجأة : لماذا لا أصدر مجلة فنية ؟

وكنت جادة فيما أقول فأدهشتهم الجدية التي ألقيت بها الاقـتراح .. وكان ابراهيم خليل يعمل في جريدة « البلاغ » ويصاهر صاحبها المرحوم عبد القادر حمزة .. فسألته :

« كم يتكلف اصـــدار ٣ آلاف نسخة من مجلة ملزمتين على ورق أنيق ؟ » ..

وبسرعـــة أخرج ابراهيم خليـــل ورقة وقلما وراح يعبث بالأرقام برهة ثم قال :

« ١٢ جنيها تكسب ٥ جنيه اذا بيعت النسخ كلها » .

ورحت أسأل الزملاء « قولوا لي .. ماذا نسمي المجلة ؟ » .. وأجاب بعضهم بأسماء علمية فكاهية ، وبعضهم اقترح عـــدة أسماء أدبية .. وللمرة الثانية ، قلت لهم فجأة : « سوف نسميها روزاليوسف » .

كان هو الاسم الذي اشتهرت بهعلى الخشبة المقدسة وعرفه الناس .. فأردت أن أتوج به عملا كبيرا أقدمه للناس !

وتفرقت جلستنا .. وأغلب الظن ان الزمـــلاء تركوا فكرة المجلة على باب محل « كساب » الحلواني وهم يدفعون ثمن الطلبات ، وربما اعتقدوا انه « فك مجالس » .. أما أنا فقد قضيت ليلتي ســاهرة تعبث بي زوابع من التفكير الشديد ..

وفي الصباح ذهبت الى « ابراهيم خليل » في مكتبه بجريدة «البلاغ» وملأت استمارة بطلب رخصة مجلة .. وذهبت الى وزارة الداخلية لأقدم الاستمارة بنفسي بين دهشة موظفي الوزارة !

● ولم أنتظر صـــدور الترخيص .. بدأت أتصـــل بأول المحررين الذين سيشتركون معي في اصدار المجلة .. الصديق محمد التابعي . كان التابعي موظفا في « مجلس النواب » وكان في الوقت يكتب النقـد لجريدة « الاهرام » . سألت عنه فعلمت انه في الاسكندرية .. وكان الوقت ضيقا ، والحلم الكبير يعذبني بالأرق والسهاد ، فاتصلت بالتابعي تليفونيا ودعوته للحضور الى القاهرة فورا .. ولم يصدق التابعي الفكرة .. ظنني أسخر منه أو أدبر له مقلبا يشربه !

● ركب التابعي أول قطـار الى العاصمة وأسرعت أذيع نبأ مجلتي الجديدة في الوسط الصحفي ، فاستدعاني « محمد بك مسعود » مدير المطبوعات ليحاسبني على هذا التصرف ..

قلت له في اصرار : « انني سوف أصدر المجلة بالفعل .. وأنا أحمل الوزارة مسئولية التلكؤ في منحي الترخيص اللازم ! »

● كنت أسكن في بيت بشارع جلال ، يملكه أمير الشعراء أحمـد شوقي . قررت أن أحول شقتي مقرا للمجلة الجديدة . كانت الشقة في الدور الثـالث ، ولذلك كان على كل من يشترك في تحرير المجلة أن يصعد ٩٥ درجة من درجات السلم الطويل قبل أن يسلم مقالاته !

بدأنا نعمل لاصدار العـدد الأول بكل ما في أجسـادنا من طاقة وأعصاب .. وصباح يوم من أيام اكتوبر سنة ٢٥ ، انطلق الباعة وأشعة الشمس المشرقة تنسـكب من الأفق ، يصرخون : « روزاليوسف .. روزاليوسف يا جدع .. اقرأ روزاليوسف » !

***

● في مجلتي ، تعـلم ابني احسان .. كان احسـان يمضي اجازة الصيف في الاسكندرية . وكانت الوزارة والوزراء كلهم هنـاك في « بولكلي » .. ومرض مراسل « روزاليوسف » في الاسكندرية فجأة ، فاتصلت باحسان بالتليفون وطلبت منه أن يحاول الحصول على بعض الأخبار وأن يغطي نشاط المراسل ..

ذهب احسان الى فندق « وندسور » ـ وكان ملتقى كبار الساسة ـ وفي بهو الفنـدق عثر على المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، فتقدم منه وحياه ، ثم قال ببساطة : « أنا عايز أخبار » .. ودهش الدكتور هيكل ، وقال : « أخبار ؟ .. أخبار ايه يا ابني ؟ » قال احسـان : « ماما قالت لي هات أخبار » !. وزادت دهشة الدكتور هيكل .. حتى عرف الحقيقة ، وعرف أنه ابني ، فضحك ملء شدقيه ورحب به ..

ويومها أرسل لي احسان أخبارا كثيرة في ٥ صفحات فولسكاب ، ملأت ـ بعد أن مزقتها ـ سلة المهملات !!

● ان قصة كفـاحي بعد ذلك طويلة ورهيبة .. ولو وجدت الوقت الذي أحكيها لك فيه ، لما وجدت أنت الورق الذي تكتب عليه سطورها !

لقـد عشت مع « روزاليوسف » اليومية ثم الأسبوعية ٣٣ عاما انصهر في فرن السياسـة .. اهتزت الأرض من تحتي مرات ، ولم أهتز .. وضعت أمامي مبادئي ، ومضيت العمر أحميها من غربان السياسة

وفئران القصر ٠٠ كنت أقف وراء كل سياسى كبير يلف حول عنقه شرفه ووطنيته ، وأتخلى عنه فى اللحظة التى يخلع فيها رباط عنقه !

صادروا مجلتى حتى كانت تصـــدر عددا وتصادر ٥ أعـــداد ٠٠ وقاومت ٠!

أغرونى بالمال وعذبونى بالتهديد ٠٠ وقاومت ٠!

أرسلونى فى نزهات كثيرة الى النيابة العمومية أحيانا ، وأحيــانا الى سجن مصر ٠٠ وقاومت ٠!

لقد كتبت مسحة عابرة من قصة كفاحى فى كتابى « ذكريات » ٠٠ أما بقية القصة فما زالت فى قلبى مختلطة بدمى ٠٠

وأملى أن أكمل القصة يوما ٠٠ أو يكملها ، بعد أن أصبح ذكرى ، ابنى احسان !٠

***

قلت لأم الصحفيين :

● أنت صاحبــة دار صحفية ناجحة ٠٠ كيف صــنعتها ٠٠ لا بد ان هناك دافعــا غير عادى كان يؤرق شبابك ٠٠ هل هو الحــرص ٠٠ هل هو الخوف من المجهول ٠٠ هل هو حب الكفاح ؟٠٠

ـ لاأستطيع أن أحدد بالضبط ٠٠ ربما كان كل ذلك ٠ أضف الى هذا ان الحركة الوطنية كانت تلهبنى بنـــارها ، وكنت دائما ثائرة ، وكانت « روزاليوسف » هى سلاحى الذى أعبر به عن ثورتى ٠٠ ودافع آخر هو تلك المجلات الفنية الهزيلة التى كانت تهاجم الفن والفنانين ولا تصمت حتى تقبض الثمن ٠٠ وقد أردت أن أخلق صحافة فنية شريفــة وهادفة ٠

ثم ٠٠ طبيعتى التى تخضبت منذ وعيت الدنيـــا بلون الكفاح ٠٠ اننى ما زلت حتى الآن لاأستطيع أن أنسلت من طبيعتى وميلى للكفاح الذى يلتصق بى مثل جلدى ٠٠ وأنا لا أطيق أن أغير جلدى !

لقد كان بينى وبين ابنى احسان ميثاق ٠٠ كنت أقول له وهو طالب صــغير اننى سوف أضع فى يده كل الأمور عنـــدما يكمل دراسته ، وأستريح ٠٠ كان يشمى فى دروسه ٠ ويحلق شعر راسه ٠ ولا يغادر البيت طوال شهور الامتحانات ٠٠ وتخرج احســـان ولكننى لم أستطع أن أنفذ الميثاق ٠٠ وظللت أحشر أنفى فى كل المسائل والمسئوليات ٠ وان كنت قد تركت له « شئون التحرير » وتفرغت « لشئون الادارة » فقط ٠٠

● **الصحافة مهنــة قاسية • ان الصحفى ضحية مهنتــه ، يعرق من الجهد ويعاني من القلق •• ان « صاحبة الجلالة » هى أقسى ملكة تلبس تاجا فى هذا العالم !**

هل أجد عندك حلا يضمن للصحفى أن يعرق ، ويحميه من أن يقلق ؟••

ـ الصحافة فى نظرى ليست مهنة •• انها حب •• والحب مهما شحن بالآلام لا يضنى المحبين بل يسعدهم !

● **بعد هذه السن وهذه التجربة الطويلة •• كيف ترين الدنيا •• هل تتلون فى نظرك كل يوم لونا •• أم أن لك فيهـا فهما عاما راسخا لا يغير من لونها فى عينيك ، ويحميك من الأزمات النفسية ؟**

ـ أنا لا أقلق الا من أجــل شيئين : ابنى احســان وابنتى آمال• ومستقبل « روزاليوسف » •• وأنا عندما أقلق لا أسمح لنفسى أن تتأزم •• بل أحاسب نفسي وأسألها : لماذا أنا قلقة ؟ •• وأحدد أسباب القلق وأعالجها ••

انني دائما أبسط المســائل ولذلك لا أهتز بسرعة أو باسراف ، ولا تتغير الدنيــا فى عينى بألوان فاقعة •• لقــد قالوا فى يوما انني « آجي على الشقاء » •!

● **هل المرأة لغز •• هل هى فعلا جنس ضعيف بلا سلاح •• ثم متى تنتهي المرأة ؟••**

ـ المرأة ليست لغزا •• واذا كانت هنــاك امرأة غامضه ، فهناك أيضا الرجــل الغامض ! وهى ليست جنســا ضعيفا •• انها تملك ـ بالاضافة الى أسلحتها الخاصة ـ معظم الأسلحة التى يملكها الرجل •• وخذني مثلا •!

أما متى تنتهى المرأة •• فحدد سؤالك « شوية » لأني لا أفهمك •!

● **أقصد من حيث الحيويه ؟**

ـ حيوية المرأة أطول عمرا من حيوية الرجل فى اعتقادى ••

● **ومن حيث الشرف ؟**

ـ ان المرأة تنتهى عنــدما تخون •• وأنا لا أغفر الخيانة الزوجية بالنسبة للجنسين !

● من واقع طفولتك وأمومتك ٠٠ ما رأيك في تعليم الجنس للأطفال في البيت ٠٠ ان العزيز « احسان » ينادى بأن يفتح كل بيت مدرسة لتلقين أطفاله مبادىء الجنس ؟!

ـ وأنا معه ٠٠ بشرط أن يكون هنـاك اختصاص ٠٠ الأب يعلم الابن والأم تلقن البنت !

● سأسألك سؤالا سخيفا : هل خلعت شيئا من اسنانك ٠٠ وهل تعالجين نفسك من أمراض ما ؟٠٠

ـ خلعت ضرسا واحـدا فقط فى فكى الأسـفل ٠٠ وأعانى ـ بلا خطورة ـ من « المرارة » وأعالجها علاجا بسيطا ، كما اننى مريضة بضيق فى شرايين الساقين ٠ لكننى أقف صلبة أمام المرض ، ومن صلابتى أستمد شفائى !

● قال احسان أن مذكراتك فى كتاب « ذكريات » ناقصة ٠٠ وقلت أنت « ان من الأشـياء ما يصعب على المرء أن يقوله ، أو يوضحه » ٠٠ وأنا أريد أن تقولى لى شيئا يصعب عليك أن تقوليه أو توضحيه ؟!

ـ أحسبان من حبه لأمه يريد أن يقرأ الناس عنها كل شىء فى حياتها وفى كفاحها ٠٠ هذا ما يقصده ٠ وما قلت عنه فى «ذكريات» انه يصعب على أن أقوله أو أوضحه .. فان شاء احسان فليقله ويوضحه من بعدى !

● ان لك أشياء كثيرة تربطك بالدنيـا ٠٠ لو كتبت وصيتك ماذا تقولين ؟

ـ لقد كتبت وصيتى من الآن ٠٠ فقد أنشأت من دار «روزاليوسف» شركة ٠٠ قسمتها حسب شريعـة الاسلام ٤٠ سهما لى ، و ٤٠ سهما لابنى احسان ، و ٢٠ سهما لابنتى « آمال » ٠٠

وليس هناك ما يربطنى بالدنيا ٠٠ أكثر من ذلك !

***

وبعد أيام قليلة من هذا الحديث ، فكت فاطمة اليوسف رباطهـا بالدنيا ٠٠ رحلت أم الصحفيين !



فكري أباظه

حورية .. بلا ضرة !

((لقد خطبت فى حياتى ١٢ مرة ، ولم أتزوج مرة واحدة ! خطبت أول واحدة من الزقازيق سنة ٢٠ ، وأثناء الخطبة ماتت . وخطبت لآخر مرة سنة ٣٦ ، وجاءها عريس أصغر منى فى السن فلطشها منى .. وكانت قاصرا ، وكنت أنا محاميها ، فحصلت لها على الموافقة على الزواج من المجلس الحسبى ! . وعندما علم زوجها بقصتى صعبت عليه ، فدعانى الى بيته لنتناول الشاى . واستقر رأيى من ١٥ سنة على أن أعيش أعزب الى الأبد .. ان الشىء الوحيد الذى أستريح له ، ان الحورية التى تنتظرنى فى الجنة سوف تسعد بى حتما .. فلم اتخذ عليها فى الدنيا ضرة واحدة ! » .

يبدأ اليوم بالسعادة ، وينتهي أيضا بالسعادة .. فلا حزن يكرمش جبهته ولا هم يثقل قلبه فينقله من مكانه • وأحزان الأمس تقف على عتبة باب اليوم السعيد .. وقلق الغد يؤجل للغد ، ليبقى اليوم السعيد أبيض بلون الأمل • ثم يدور خيط السعادة على قلوب الأحبة ، فيربطهم جميعا في دائرة واحدة حول المائدة .. وعلى المائدة شموع بعدد حيات العمر، في أطرافها نار تضيء الطريق لعام جديد ، ويميل الرجل السعيد على صف الشموع وينفخ من رئتيه بخار المحبة لينقذ بقية الشموع من أن تحترق .. ثم يعتدل في وقفته لتغمر وجهه القبل وتحتويه الأحضان بحنان ويمتليء حجره بالهدايا والأماني .. وتتكرر الهمسات : كل سنة وانت طيب .

يحتفل الناس بأعياد ميلادهم – عادة – بهذا الشكل ، ولكن « شيخ الصحافة» غرق في شيخوخته ، ومرت عليه أكوام السنين فلم يحتفل مرة بعيد ميلاده !. عمدة بلدهم ظلمه ، وجامل والده ، فلم يقيد تاريخ ميلاده في دفتر المواليد •• وعاش فكرى أباظة في الدنيا تائها بين السنين !•

والسنوات للناس مثل الساعة ، بنظرة واحدة تعرف مكانك من الزمن .. انها صمام أمن يحمي أعمار الناس من السرقة . وفكرى أباظة ظل طول حياته يحمل على كتفيه عمرا مباحا فقد صمام أمنه !

على باب الكتاب ، سألوه : كم عمرك ؟

وعلى باب مدرسة الحقوق ، سألوه : كم عمرك ؟

وعلى باب مجلس النواب ، سألوه : كم عمرك ؟

وعلى باب ادارة التجنيد ، وباب مصلحة الجوازات والجنسية .. سألوه نفس السؤال .

ولم يكن يجيب • كان يذهب ليقدر عمره جزافا عند طبيب •• أو يخبيء بين أصابعه نقودا يدسها في جيب شيخ الحارة !

ولكنه لم يعرف أبدا عمره بالتحديد . وعاش في الدنيا تائها بين السنين .. عمدة بلدهم ظلمه ، وجامل والده !

***

قال لى فكرى أباظة :

● عائلة الأباظية لها أربعة رؤوس .. راسان منها كانا يحملان لقب « باشا » السيد « باشا » أباظة ، وسليمان « باشا » أباظة .. وراسان لا يحملان اللقب : قمحاوى أباظة وبغدادى أباظة •

والسيد « باشا » هو « أبويا » •

● دخلت الدنيا فى يوم لا أعرفه .. فقد أراد عمدة بلدنا – كفر أبو شحاته مركز منيا القمح – ان يجامل والدى فاسقط قيدى ولم يكتب اسمى فى دفتر المواليد لكى يوفر لأبى ٢٠ جنيها قيمة « بدلية » التجنيد وقد سببت لى هذه المجاملة شريطا من المتاعب لا ينتهى ، كلما دخلت مدرسة ! أو رشحت نفسى فى الانتخابات ، أو وقفت على باب ادارة الجوازات أنتظر جواز السفر .. وآخر متاعب سقوط قيدى اننى حتى الآن معرض لأن يجرنى أى عسكرى بوليس الى القسم ليتحروا عنى بسبب بطاقتى الشخصية التى لم أتسلمها للآن !.

وقد سببت لى هذه المجاملة أيضا عقدة حياتى ... فالناس كلهم يحتفلون باعياد ميلادهم ماعداى .

وفوق ذلك انا لا أقرأ « البخت » الذى تنشره الصحف والمجلات .. ولا أعرف ان كان طالعى فى برج « الميزان » او برج « العذراء » ! كل ما أعرفه أننى لست من مواليد القرن الثامن عشر ، ولا القرن العشرين !.. وأنهم قدروا سنى مرة على حساب اننى ولدت سنة ١٨٩٧ !

● كانت موضة العصر أن ينوع الآباء فى تعليم أولادهم .. اذا تعلم اثنان منهم فى المدارس ، يدخل الثالث الأزهر .

وكان اخى فؤاد أباظة مدير الجمعية الزراعية السابق ، وأخى عثمان اباظة وكيل وزارة المالية السابق ، قد سبقانى الى التعليم فى المدارس .. وقرر ابى أن يدخلنى الازهر .. دخلت كتاب « الشيخة صابحة » فى «كفر أبو شحاته » .. حفظت نصف القرآن ، ثم انتقلت الى كتاب الجامع الأزهر .

كنا نجلس فى صحن الأزهر نحفظ القرآن ، أو نقرأ « الورق الاصفر » من ألفية ابن مالك ، الى ما ليس كذلك .. والمجاورون جاءوا من شمال افريقيا وجنوب آسيا ليتعلموا الدين . بعضهم جاء على قدميه . وبعضهم جاء ليرى الدنيا .. وكلهم تظهر على وجوههم آيات الفقر والبؤس العظيم!

ساعة الصباح ، كانوا يقرأون القرآن أو يستمعون للشيخ ، ثم تلمح مجموعة منهم فجأة تتسلل بأظافرها لتهرش أجسامها بسرعة وعنف .. وواحد منهم ينتصب واقفا كالمسغوز ثم يرتمى بظهره على أقرب عمود يروح عليه بعنف ويجىء ، وكأنه يحاول أن يحركه من مكانه .. ثم يهدأ ويعود الى جلسته وعلى وجهه دلائل الرضا والارتياح !

وعندما يفرغون من محاربة القمل والبراغيث وسائر الحشرات الضارة كانوا يجتمعون على أطباق الفول الثابت كل خمسة على طبق ، ويزدردون أكوام العيش .. ثم يتجشأون ويتمددون فى صحن الجامع وبجوار

الأعمدة .. وفي ثوان يرتفع شخيرهم فيرتطم بخشب المنبر ويهز زجاج « الشخشيخة » !

ولم أتحمل ·· سقطت مريضا !··

● انقطعت عن « كتاب الأزهر » ودخلت مدرسة « القربية » الابتدائية ولا أذكر انني تعلمت شيئا في مدرسة القربية أكثر من لعبة «الشقفة» ·· وهي مثل لعبة الكرة بالضبط ، ولكن بدل الكرة كنا نتداول بأقدامنا شقفة من الطوب ! ثم تقدمت خطوة ، ولعبت بالكرة « الكوتشن » ·· وتقدمت خطوة أخرى وحصلت على الابتدائية !

● دخلت مدرسة السعيدية .. كانوا يشرحون لنا الجبر والهندسة والجغرافيا والتاريخ بالانجليزية ·· كل العلوم كانت تدرس بالانجليزية ماعدا اللغة العربية··

وقررنا أن نضرب ، وطالبنا بأن نتعلم بلغتنا ·· ولكننا لم نكد نرفع عقيرتنا بالهتاف حتى دخل المستر « شارمان » ناظر المدرسة بين صفوفنا كالأسد وقبض على زعماء الاضراب وانا منهم . وأمر المستر شارمان بأن نحبس في زنزانات صغيرة في حوش المدرسة الى ان تصدر منه أوامر أخرى · وقبل أن تصدر أوامره الأخرى ، كنا قد تفاهمنا مع الفراشين وغادرنا المدرسة ! .

● لعبت الكرة مع فريق المدرسة .. كانت المدرسة الثانوية تحتكر بطولة الكرة بين فرق الأندية وفرق المدارس العليا ، وكانت مدرستنا تحتكر بطولة المدارس الثانوية في القطر كله .. احيانا كان فريق مدرسة الخديوية يصمد أمامنا ولكنه كان يستسلم للهزيمة في النهاية !.

وكان فريق الكرة هو الفرخة الوحيدة في المدرسة التي عليها « كشك » ! كنا ندخل الفصل فنعامل معاملة خاصة من المدرسين ·· وندخل « اليمكخانة » قبل أن نجوع فنأكل حتى نشبع . ونقفز في أرض الملعب فتتمزق الحناجر من الهتاف · وكان من نجوم الفريق حسين حجازى ومختار التتش .

● دخلت فريق التمثيل في المدرسة .. كان يشرف عليه مدرس أيرلندي اسمه مستر «ماكنتوش» · مثلنا «ماكبيث» و «يوليوس قيصر» و « تاجر البندقية » ، ومعظم مسرحيات شكسبير .. وعندما تكونت فرقة التمثيل في النادي الأهلي بعد ذلك بسنتين اشتركت فيها أيضا ومثلت فيها مع يوسف وهبي وعبد الله فكرى أباظة وسليمان نجيب وحسن فايق وزكي طليمات · كنا نمثل روايات « فرانكو ــ آراب » · وجاء نجيب

الريحانى ليتفرج علينا فأعجبه هذا اللون من المسرحيات • وكان موظفا فى بنك « الكريدى ليونيه » فاستقال منه وكون أول فرقة تمثيل محترفة تمثل روايات « فرانكو ــ اراب » وأطلق على الفرقة اسم « كشكش بيه »!

● ظهرت على أعراض الصحافة وأنا فى المدرسة السعيدية ، وكنت انا ومحمد التابعي وحسين سرى ننفعل من أحداث السياسة واخبار الحزب الوطني الذى ننتمى اليه .. وأثناء الحصص ، كنت اسجل انفعالى على ورقة فى شكل مقال حماسي • ثم أناول الورقة لمحمد التابعى فيقرأها ويرد عليها ويناول رده لحسين سرى فيقرأه ويكتب رأيه هو الآخر .. والورقة التى كانت تدور بيننا كنا نسميها « باصة » •• وفى الباصة مارست الصحافة لأول مرة !

● دخلت مدرسة الحقوق سنة ١٤ .. قامت الحرب العالمية الأولى وعزل الانجليز الخديو عباس حلمى وعينوا مكانه السلطان حسين كامل • وجاء السلطان الذى عينه الانجليز ليزورنا فى المدرسة فأشعنا بين الطلبة أن والد زميل لنا قد مات ، وحددنا موعد الجنازة فى نفس الساعة التى سيصل فيها السلطان حسين .. وجاء السلطان ليجد الاساتذة فقط فى استقباله !

وأمر السلطان باجراء تحقيق •• وانتهى التحقيق على الوجه الاتى : طلبة السنة الأولى حرموا من السنة ، وطلبة السنوات الثانية والثالثة والرابعة فصلوا نهائيا واعتقل ١٧ طالبا فى اصلاحية الأحداث بالجيزة !

ونفذت الاحكام لفترة .. ثم اصدر السلطان حسين عفوا سلطانيا عن الجميع !.

وكنت من بين المفصولين .. وجاءنى شيخ الحارة ليقول لى ان اعفائى من التجنيد سقط عنى بعد أن فصلت من المدرسة واننى مطلوب للجندية •• ولم يكن فى جيبى غير ريال واحد دسسته فى يده ، وبعد أسابيع صدر العفو من السلطان ، فانتظمت فى الدراسة .

● بدأت أكتب فى جريدة « المؤيد » بامضاء « عابر سبيل » .. وكتبت فى جريدة الأهرام ، اهاجم الحزب الاشتراكى .. ثم شغلتنى مظاهرات المطالبة بالدستور عن الكتابة .. وحصلت على الليسانس سنة ١٧ .

● مارس سنة ١٩ ، قبل أن تبدأ الثورة بأيام سافر فريق الكرة فى النادى الأهلى ليلعب ضد فريق من قوات الانجليز فى أسيوط .. كنت أتمرن على المحاماة فى مكتب محمد زكى على « باشا » فتركت المكتب وسافرت مع الفريق ..

بدأت الثــورة ٢ مارس • اندلعت فى أنحاء القطر • ٣ مارس بدأت دماء الشعب ودماء الانجليز تسيل فى معارك رهيبـــة ووقفت كل عجلة وكل ترس يدور فى مصر •• أقنعنى زملائى من المحامين ووكلاء النيابة فى أسيوط أن أبقى معهم وأستأنف تمرينى فى مكتب حامد جوده •

جلست ذات مساء فى نادى الموظفين .وقد هزت قلبى احداث الثورة واختنق وجدانى بالمشــاعر والعبرات .. وبقلم رصاص كتبت هـــذا النشـــيد :

ابنـــــاء الـوطن هلمـــوا	ســــيروا الى الأمــــام
رفعـــوا الصـــوت قـويا	فالجـــــر لا يضــــــام
رمى الدخيـــــل مـرامـا	دونـــه بحـــــر دمــــاء
كتبـــوا الممـات لشـــعب	فاراد الشـــعب بقـــــاء
لجـــأوا للـدين وظنـــوا	أن التـــوفيق محــــــال
فاذا الهـــــلال صـــليب	واذا الصـــليب هـــــلال

● ذهبت فى الصباح الى كنيسة الأقباط وألقيت النشيد فى جمع من الأهالى •• وكان النشيد قنبـلة انفجـــرت فى الأهالى فصنعت منهم ثوارا ، وانطلق الثوار الى كل مكان فى أسيوط يعلنون الحــرب عــلى الانجليز .. هجموا على الجامعة الأمريكية مركز قوات الاحتياط الانجليز واشعلوا فيها النيران .. حاصروا « ميدان الحمراء » فى قلب المدينة .. كان فى الميدان أكوام من تبن السلطة قدروا ثمنها بربع مليون جنيه ، وفى ثوان تحول الميدان الى كتلة من الجحيم • ثم انتشروا فى المدينة يوزعون السنة اللهب على مبنى المديرية ومبنى البندر وكل مبنى تطل من شبابيكه وجوه حمراء •• وجاءت طائرات الانجليز فى المساء لتسكت اللهب باللهب، فالقت على المدينة أطنانا من القنابل .. وكما احترقت روما من الفى عام ، احترقت أسيوط بالنار ، بلا نيرون !

وامتدت الثورة الى انحاء الصعيد ، وهجم الثوار فى ديروط عــلى قطار حربى وذبحوا ٩ من الجنود الانجليز .. وفقد الانجليز عقولهم فقبضوا على رجال المدينة وشنقوا نصفهم .. حتى مأمور البندر « الصاغ محمد كامل » علقوه من رقبته أمام عيون العساكر وعلى مرأى من الجماهير ! ورد أهــالى ديروط فأعلنوا مدينتهم جمهورية مستقلة ، وعينوا القاضى محمد رشدى رئيسا للجمهورية ووكيل النيابة كامل محمد وكيلا لهـا ، واتخذوا نشيدى شعارا للجمهورية الجديدة ! ثم انتشرت الجمهـــوريات

المستقلة بعد ذلك وكأنها متاريس وطنية محلية تحمى حرية الاقليم .. فاعلنت جمهورية أخرى فى المنيا برئاسة الدكتور محمود عبد الرازق .. وجمهورية ثالثة فى زفتى!

● امتدت أصابع الانجليز تبحث عنى فى كل شبر فى أسيوط .. لقد اتهمونى بأن نشيدى هو الذى أشعل هذه الطاقة من النيران .. واختفيت عند بعض الأصدقاء ، كل ليلة فى بيت صديق ، ثم ذهبت الى كولونيل انجليزى كان يعرف أننى أحد أعضاء فريق النادى الأهلى ولكنه لم يكن يعرف أننى صاحب النشيد .. واستغل الكولونيل الانجليزى نفوذه واستخرج لى جواز سفر سافرت به فى القطار العسكرى الانجليزى .. وفى جواز السفر أمام خانة المهنة « تاجر حمير » !

● ... وبقية أحداث عمرى قريبة ومعروفة . وحتى لايقتلك الملل، أعفيك منهـا !

***

سألت شيخ الصحافة المصرية :

● كل شيء فى الصحافة المصرية تطور فى الثلاثين سنة الماضية .. معالمها تطورت وعيوبها أيضا تطورت .. فما مظاهر هذا التطور ؟

ـ كان فى مصر من ٣٠ سنة نهضة صحفية أدبية وعلمية . وكانت صاحبة الفضل فى هذه النهضة جريدة « السياسة » اليومية والأسبوعية. وقد مسح التطور الصحفى هذه النهضة فطغى الخبر على مقالات البحث العميقة ، وظهر المراسلون الخارجيون وتلغرافات وكالات الأنباء .

وأصبحت الجريدة مجلة ، تنشر خبر المجلة والصـور التى تنشرها المجـلة .

وأهم معالم تطور الصحافة أسلوبها .. فقد أصبح الأسلوب الصحفى سهلا لايعنى بالاناقة أو العمق بقدر عنايته بالانطباعة السريعة .

وتتلخص عيوب الصحافة فى أنها كانت ملكة صاحبة جلالة ، فأصبحت عبدة ذليلة فى بلاط صاحب الجلالة « الجمهور القارىء » ! فهى تجـارى قراءها وتنزل الى مستواهم .. وصح عليها ما يقوله الحاقدون من أنهـا أصبحت « مقودة لا قائدة » !

وقد وقفت الرقابة فى وجه تطور الصحافة .. فمنذ سنة ٣٩ حتى السنوات الأولى للثورة والصحافة تحت رقابة مستمرة لاتنقطع الا لفترات قصيرة .. وقد أثر ذلك على بلاغة القلم وحرية الرأى والجرأة والاندفاع فى الحملات الصحفية التوجيهية المثيرة . والشىء الذى يحمد للرقابة أنها خلقت لونا من الأسلوب الصحفى البارع استطاع مرات كثيرة أن يغطى الطبق المكشوف ليبتلعه الرقيب بسذاجة !

● قل لى أحداث هامة عاصرتها وكتبت عنها أضخم ضربات صحفية فى حياتك ؟.

نمرة ١ ــ رسائلى من أمريكا سنة ٤٥ عند انشاء « الامم المتحدة » وكنت مستشارا صحفيا للوفد المصرى هناك ، وقد نشرت رسائلى فى « الاهرام » و « المصرى » ومجلة « المصور » .

نمرة ٢ ــ مقالاتى فى « نظرية الحياد » التى كتبتها فى عهد النقراشى سنة ٤٦ وأثارت ضجة فى الوسط الصحفى ودوائر السياسة والـوزارة والقصر .

نمرة ٣ ــ معارضتى لمعاهدة « الشرف والاستقلال » سنة ٣٦ .. وقد قدمت بسببها للمحاكمة ، ثم صــدر عفو عن الاحكام التى صدرت ضدي .

نمرة ٤ ــ معارضتى لقوانين مصادرة الصحف ، وحبس الصحفيين احتياطيا ومحاربة المبادىء الهدامة ..

نمرة ٥ ــ مقــالاتى التى هاجمت فيها « قانون تحريم الاجتمــاعات والمظاهرات » . وقد استجاب مجلس النواب لمقالاتى فأجل نظر القانون . واضطر اسماعيل صدقى الى حل المجلس ووضع دستور سيـــنة ٣٠ واجراء انتخابات جديدة .

● الصحافة هل هى : علم . فن . موهبة . أم خبرة ؟

ــ الصحافة علم وفن وموهبة وخبرة . فالصحفى الذى يكتب عن قراءة واطلاع ويبذل مجهودا لتنمية مصادره يحتاج بعد ذلك لفن الاخراج . وهو يحتاج أيضا الى الموهبة ليصوغ ما يقرأه ويسمعه . والخبرة لا يوفرها العلم ولا الفن ، وانما تتعلق بالبراعة الصحفية التى لاتكتسب الا بطـول الممارسة ، كما تتعلق بالحبر والورق وأرقام التوزيع !

ومن الناحية الاكاديمية أصبحت الصحافة علما ولد أول ما ولد فى مطابع الصحف الانجليزية والأمريكية .

● فى رايى أن الكتابة الصحفية تعتمد على المادة وعلى أسلوب الكتابة .. فهل يكفى احدهما فقط ؟ ..

ــ المادة فى يد الصحفى كالمادة الخام فى يد « الاسطى الصــنايعى » يتوقف نجاحها على صياغتها ببزاعة .. فالمادة وحدها لاتنفع ، والأسلوب وحده لايشـــفع !

● بين نساء العالم اللاتى قابلتهن .. من هى المرأة الملتهبة العاطفة . والمرأة ست البيت .. والمراة الرجل ؟

ـ المرأة الألمانية ملتهبة العاطفة ، فهى تندلق بعواطفها الى حد العبط. والمرأة الفرنسية ست بيت مدبرة ، تصنع لك دائما الطبق الذى تشتهيه، وتضع الفرنك على الفرنك ثم تهدى ماتقتصده لزوجها فى عيد ميلاده ! والمرأة الرجل لا تجدها الا فى روسيا ، فحتى سنوات قريبة لم تكن المرأة الروسية تختلف عن الرجل الروسى الا فى معالم جسدها الطبيعية !

● فى الوسط الصحفى صحفيون بمؤهلات عالية ، وصحفيون بلا مؤهلات على الاطلاق .. أليس عجيبا ؟..

ـ ان العهد اللامع الذى كان يكتفى بمجرد الاستعداد ليصبح الصحفى صحفيا ، قد انقضى .. والمؤهلات أصبحت شرطا أساسيا لعضوية «نقابة الصحفيين» . والصحفيون العاطلون من المؤهلات الذين دخلوا الصحافة معتمدين على موهبتهم واستعدادهم شفعت لهم خبرتهم الطويلة وأوصلت بعضهم الى مناصب ممتازة فى الحقل الصحفى .. أما الذين مازالوا يتعثرون منهم فى منتصف الطريق أو فى أوله فهؤلاء هم الذين سيتأثرون بالجيل الصحفى الجديد الذى يتوافر فيه شرطا العلم والموهبة معا !.

● اعتقد ان سلطان « المقال » قد انكمش عما كان فى الماضى .. وبرز « التحقيق الصحفى » الى أول الصف ، وأصبح هو المقياس الذى يقاس به الصحفى الناجح والذى يفتح أمامه الطريق الى القمة .. هل توافق هذا الراى ؟

ـ اوافقه تماما .. فقد طغى الخبر والتحقيق الصحفى على المقال مثلما طغت السينما على المسرح .. وانتهى عصر المقال الذى يعتمد على البلاغة والانشاء . وتطور المقال ليجارى التحقيق الصحفى . واعتمد فى مضمونه على عناصر جديدة منها المعلومات الخبرية ، والمنطق ، والتوجيه الموضوعى المتحمس ، والراى المدروس .

ومع ذلك مازال المقال ينفرد بسلطانه وتأثيره فى بيئات السياسة ودوائر الحكم .

● لكل دار صحفية مميزاتها وطابعها الخاص الذى يكفى أن تجرده بنفسك من قراءتك لصحفها .. فما هى مميزات دار أخبار اليوم ، دار الهلال ، الأهرام ، ودار الجمهورية ؟

ـ أخبار اليوم : تمتاز بالخبر ، ومستواها العالى فى فن الاخراج ، وأسلوبها فى الكتابة .. فقد خلقت أسلوبا جديدا للكتابة يمتاز بالجمل القصيرة والانطباعة السريعة المباشرة .. وقد بدأ هذا الأسلوب يغزو معظم الأقلام فى الدور الصحفية الاخرى ..

دار الهلال : فيها اتزان واعتدال ومنطق سليم .. والاتزان الدائم يمكن أحيانا أن تصفه بالجمود لكنها تحركت فى السنوات الأخيرة بحماس العناصر الشابة التى تشترك الآن فى تحرير مجلاتها .

الاهرام : يمتاز بثبات تبويبه ومصادر أخباره الانفرادية ، وسعة نطاق التلغرافات الخصوصية . ومركزه القديم بين قرائه الذين تعودوا قراءته الى حد الادمان !

الجمهورية : فيها من الكتاب أكثر ممن فيها من الصحفيين . ولها من الامكانيات مايكفل لها السيادة فى سوق القراء وميدان قيادة الرأى العام .. فقط لو استغلت امكانياتها !

● لا تقل لى حاولت أكثر من مرة ·· ولا تقل انك لم تجد النصف المعسل الذى يبدد وحشة حياتك ·· قل لى بالحق لماذا لم تتزوج للآن ؟

ـ لقد خطبت فى حياتى ١٢ مرة .. خطبت أول واحدة من الزقازيق سنة ٢٠ وأثناء الخطبة ماتت .. وخطبت لآخر مرة سنة ٣٦ وجاءها عريس أصغر مني في السن فلطشها منى .. وكانت قاصرا وكنت انا محاميها فحصلت لها على الموافقة على الزواج من المجلس الحسبى .. وعندما علم زوجها بقصتي صعبت عليه فدعانى الى بيته لتناول الشاى !

واستقر رأيى من ١٥ سنة على أن أعيش أعزب الى الأبد ·· ولم يعد بى الآن من الشجاعة والثقة بالنفس مايسمح لى بالاقدام على محاولة جديدة لتكملة نصف دينى .

الشىء الذى استريح له ، أن الحورية التى تنتظرنى فى الجنة سوف تسعد بى حقا .. فلم أتخذ عليها فى الدنيا ضرة واحدة !



دكتور أحمد زكى

الطريق الى الله ؟!

((كنت أدرس حصة رياضة لطلبة فصول السنة الرابعة ((تجهيزى)) وكانت شبابيك الفصل تطل على شارع نوبار ..

ووقف أصبع الطباشير فى يدى وأنا أكتب على السبورة .. فجأة سمعت أصواتا هائلة تتحشرج كالرعد .. وصدى الأصوات يهز زجاج المدرسة فيحدث هديرا مثل هدير آلاف من الطير فى السماء تخبط الفضاء بأجنحتها . وأسرعت الى شباك يطل على شارع نوبار فأبصرت مشهدا خالدا .. جيش كالنمل من الجماهير الثائرة فى أيديهم جميعا هراوات ضخمة ، وفروع أشجار ، وأشجار صغيرة كاملة بأوراقها ..

وزئير طارت له الغربان من فوق أبراج البيوت والكنائس .. وهتافات وشعارات : يحيا الدستور .. الجلاء بالدماء .. يسقط حسين رشدى الخائن . وكان طوفان الجماهير فى طريقه الى ميدان لاظوغلى يحطم كل شيء ويعلن مولد ثورة ١٩ ! »

قال لي الدكتور أحمد زكي مدير الجامعة السابق ووزير الشــئون الاجتماعية فى وزارة حســين سرى سنة ٥٢ الذى دخل مبنى وزارته ٢٤ مرة فقط ثم سقطت الوزارة . أيام « الفترة الحرجة » التى أعقبتها ثورة ٢٣ يوليو ، والتى كانت رياسة مجلس الوزراء خلالها تغير جلدها مع كل اجتماع .. أقصد تغير رئيس الوزراء!

هل تذكر هذه الأيام من تاريخنا المعاصر ؟

قال لي الدكتور أحمد زكي :

ــ سوف اقفز فوق أسوار السنين .. والخص لك ٦٣ سـنة من عمـرى .

وكنت أجلس معه فى منزله الأنيق بالمعادى .. فيلا انيقة تحيط بها حديقة من الأشجار والخمائل وعلى الارض نخيل أخضر منسق فى قطاعات هندسية وورود متفتحة فى أحواض ينسكب منها أريج عطر فيعبق بشذاه جو المكان .. والعصافير الوادعة تزيح باجنحتها الأوراق من فوق الأغصان لتفسح لنفسها مكانا ثم تنطلق تزقزق .. وترد عليها عصافير اخرى كثيرة من كل غصن على أشجار المعادى .. جنة العصافير !

وبدأ الدكتور أحمد زكي كلامه .. قال :

. عائلة أبى من قرية عمرى كله لم أزرها ولا أعرف عنها أكثر من أنها تقع فى محافظة القليوبية .. اسمها « طنان » .. وعائلتنا اسمها عائلة الجرنوسى ، و « الجرانسة » أصلهم الضارب فى أغوار الزمن من الصعيد.

أما انا فمن مواليد السويس .. ولدت على وجه التحقيق فى ٥أبريل سنة ١٨٩٤ وكان أبى موظفا فى حسابات محافظة السويس .. كان فقيها فى اللغة العربية لو سمع به « سيبويه » لرضى عنه!

ودخلت الكتاب .. دخلته لأحفظ القرآن وأتعلم مبـادىء القراءة وجدول الضرب .. ولكن شيخ الكتاب سامحه الله لم يعلمنى القرآن . علمنى الضرب « بالفلكة » فقط .. فهربت منه بعد أسبوع !

ومارست « المحسوبية » لأول مرة فى حياتى عندما تقدمت للالتحاق بمدرسة السويس الإبتدائية . لقد كانت سنى صغيرة ، ولكن ناظر المدرسة ومدرسيها كانوا جميعا أصدقاء لوالدى فلم ترفض أوراقى .

واذكر الصيف .. صيف الســنوات الأولى من هذا القرن .

كان أبى يخرج مع أصدقائه على طريق ترعة الاسماعيلية .. وكـانوا

يتناقشون فى مسائل لغوية وفقهية ويمصون أعواد القصب .. وكنت لا أعى من كلامهم شيئا ، فأكتفى بمص القصب ورمى الحصا الصغير فى الترعة ليحدث دوائر تشبه فى بدايتها الفطير « المشلتت » !

وانتقل أبى الى محافظة القاهرة . وموظف الحكومة عرضة للنقل دائما الى أى مكان ، وفى أى زمان ·· دخلت مدرسة عباس الابتدائية ببولاق ، وعندما نجحت فى الابتدائية دخلت مدرسة التوفيقية الثانوية ونجحت فى البكالوريا سنة ١١ . ثم التحقت بمدرسة المعلمين العليا ، وحصلت على الدبلوم فى نفس السنة التى التهبت فيها الحرب العالمية الأولى ·· سنة ١٤ - وعينت مدرسا للرياضة فى مدرسة السعيدية ،ولكن « نظارة » المعارف الغت تعيينى فى آخر لحظة بسبب ظروف الحرب .. وبسبب الحرب أيضا ألغيت بعثة للخارج كنت أحد أعضائها فحرمت من السفر !.

وفى القاهرة ، كانت هناك مدرستان أهليتان لهما دور فى تاريخ مصر السياسى : « المدرسة الالهامية » و «مدرسة الاعدادية الثانوية» .

ولم تكن مهمة المدرستين تعليم التلامذة .. كانت مهمتهما الأصلية تنظيم الاضرابات لمقاومة سياسة الحكومة الموالية للانجليز !.

ومدرسة الاعدادية الثانوية أنشأها الشيخ عبد العزيز جاويش الرجل الثانى فى الحزب الوطنى بعد مصطفى كامل .. وتخرج فيها العقاد والمازنى وأحمد حسن الزيات وسليمان غنام وفريد أبو حديد .

وعينت لفترة ناظرا لهذه المدرسة بمرتب ١٢ جنيها كلها من الذهب الخالص عيار ٢٤ ! .. ولكنى أحسست بعدم الاستقرار . لم يكن بينى وبين عبد العزيز جاويش عقد يربطنى بالوظيفة ·· عرض على صاحب مدرسة وادى النيل الثانوية وظيفة « ناظر » للمدرسة بعقد مكتوب ، فوافقت وانتقلت للوظيفة الجديدة !

وفى مدرسة وادى النيل — محلها الآن المدرسة الألمانية فى شارع يوسف الجندى بباب اللوق — كنت أشرف على طلبة سنهم أكبر من سنى، وطولهم أكبر من طولى ، ولكن شاربى كان يفوق شواربهم جميعا ! فقد كان لى شارب مبروم الى أعلى له شكل شارب « أبو زيد الهلالى » وكان هذا النوع من الشوارب هو « مودة» العصر ، وكان فوق ذلك ضرورة أدبية تحمينى من الطلبة ، وتضفى على هيلمانا يساعدنى فى « ضبط » المدرسة !

ومن شباك أحد فصول هذه المدرسة .. شهدت بعينى مولد ثورة

كنت أدرس حصة رياضة لطلبة أحد فصول السنة الرابعة «تجهيزى» وكانت شبابيك الفصل تطل على شارع نوبار ..

ووقف اصبع الطباشير فى يدى وأنا أكتب على السبورة .. فجأة سمعت أصواتا هائلة كالرعد .. وصدى الأصوات يهز زجاج المدرسة فيحدث هديرا مثل هدير آلاف من الطير فى السماء تخبط الفضاء بأجنحتها . وأسرعت الى شباك يطل على شارع نوبار فابصرت مشهدا خالدا .. جيش كالنمل من الجماهير الثائرة فى أيديهم جميعا هراوات ضخمة ، وفروع أشجار وأشجار صغيرة كاملة بأوراقها ..

وزئير طارت له الغربان من فوق أبراج البيوت والكنائس .. وهتافات وشعارات : يحيا الدستور .. الجلاء بالدماء .. يسقط حسين رشدى الخائن ..

وكان طوفان الجماهير فى طريقه الى ميدان لاظوغلى يحطم كل شيء ويعلن مولد ثورة ١٩ !

اندلع لهيب الثورة فى أنحاء البلاد واضطربت أحوال المدارس ..

وكان الاتجاه السياسى أيامها هو تقوية « السلطان فؤاد » ضد الانجليز وحكومة حسين رشدى الموالية للانجليز ..

وأصدر حسين رشدى قرارا بتعطيل المدارس ومنع المظاهرات بالقوة ..

وفى يوم كان مقررا أن يزور السلطان فؤاد جمعية الهلال الأحمر فى مبناها المجاور - حاليا - لوزارة الاوقاف .. ونظمت مدرسة الاعدادية الثانوية طلبتها ، ونظمت أنا طلبة مدرسة وادى النيل رغم تعطيل الدراسة .. ووضعنا خطة اضراب كبير .. وتجمهر طلبة المدرستين وكأنهم متفرجون ينتظرون ركب السلطان . وجاء ركب السلطان فؤاد ، فانطلقت حناجر الطلبة تهتف : يسقط رشدى الخائن . عاش السلطان !

وكنت أقف فى الشرفة بجوار منصور فهمى سكرتير الجمعية فجذبنى منصور فهمى من كتفى ورقصنا من الفرحة لنجاح الاضراب ..

ولم تكن جريدة المقطم - أيامها - تكف عن كتاباتها مؤيدة سياسة الانجليز ..

وذات صباح قبل أن تبدأ الدراسة .. قرر طلبة مدرسة وادى النيل أن يحرقوا مبنى الجريدة . وبعد ربع ساعة كان مبنى المقطم كتلة من اللهيب . وأحسست بخطورة الموقف فعطلت الدراسة فى المدرسة وصرفت

الطلبة وأغلقت البوابة الكبيرة وبقيت داخل المدرسة ومعى فريد أبو حديد وصادق عنبر أديب الثورة وشاعرها ، وكانا مدرسين فى المدرسة ، وبعض الطلبة « الداخلية » حبستهم فى برج المدرسة وأغلقت عليهم الباب .

وتوقعت مجىء الانجليز فى أية لحظة ..

وبعد ساعة حدث ماتوقعت .. فرقة كاملة من جنود الاحتلال جاءوا يخبطون البوابة بعنف ، وضابط الفرقة يصرخ : افتحوا .. والا كسرنا البوابة ؟.

وخرج اليهم فريد أبو حديد .. وفتح البوابة ووقف بقامته القصيرة امام ضابط الفرقة وصاح فيه :

ـ ماذا تريد أيها الخنزير الأحمر ..

وبسرعة تقدم من فريد أحد الجنود وصوب سونكى بندقيته الى بطنه وقال :

ـ قلها مرة أخرى .. وأنا أقتلك !

وخرجت اجرى نحوهم .. وكان شكل ابو حديد يوحى بأنه طالب وليس مدرسا ، فتقدمت منه وبرمت شاربى ثم صفعته عدة صفعات قاسية .. وقلت موجها كلامى للضابط :

ـ انه ولد مجنون .. دعك منه . ماذا تريد ؟

اجاب بحدة : نريد تفتيش المدرسة .. لقد حرق تلامذك جريدة المقطم ..

قلت :

ـ غير معقول .. وعلى العموم ، أمامكم المدرسة فتشوها كما تشاءون .

وفتشوا كل شبر فى المدرسة .. لم يصعدوا البرج ولم يعثروا على احد ..

فقط ... عثروا على شخص واحد فى المطبخ يلبس زى الطباخين وعلى راسه الطاقية البيضاء ، وكان صادق عنبر .. أديب الثورة وشاعرها والمدرس بالمدرسة !

واحسست بطريق مستقبلى تسده أمامى الاضطرابات والأحداث..

وانتهت الحرب فسافرت الى انجلترا وامضيت فى لندن وليفربول

وجلاسجو عشر سنوات من عمرى حصلت فيها على دكتوراه فى فلسفة الكيميا ودكتوراه فى العلوم . ودرجة الدكتوراه فى العلوم درجة علمية رفيعة يعدون على الاصبع من يحملونها فى مصر .

وفى لندن قابلت رفيقة الحياة .. طالبة من سكوتلندة فتزوجتها.. وكانت هى أول امرأة اتصل بها فى حياتى .

وعندما عدت سنة ٢٩ اشتغلت استاذا مساعدا فى الكيميا بكلية العلوم . ثم حصلت على كرسى الاستاذية بعد سنوات .

وتنازل الدكتور بانجهام عميد الكلية الانجليزى عن كرسى العمادة سنة ٣٦ . وتقدمت لأشغل الكرسى مرتين ونجحت فى انتخابات العمادة ، ولكن حكومة الوفد كانت تعترض وتختار عميدا آخر لأننى لم أكن وفديا ولم أكن انتمى الى أى حزب على الاطلاق !

وفى المرة الثانية عندما اعترضت حكومة الوفد تقدم احد النواب - لا اذكر اسمه الآن - باستجواب لرئيس الحكومة .. وطلع مصطفى النحاس على المنصة وقال جملة واحدة .. قال : « الحكومة صنعت ما صنعت فى حدود حقوقها الدستورية » .. قالها بتؤدة وعظمة .. ثم عاد الى مكانه !.

وكرهت الوفد ، وازدادت كراهيتى لكل الأحزاب ، وانطويت على نفسى أقوم بعملى فى معملى ، وأؤدى واجبى فى كليتى .. وكانت الحياة أمامى سلسلة من الروتين لايقبل التطور .. حتى جاء يوم ، اتصل بى الدكتور طه حسين وقال لى ان مكرم عبيد - وكان وزيرا للمالية - قرر أن يعوضنى عن العمادة بمنصب مدير مصلحة الكيميا بمرتب ١٢٠٠ جنيه فى السنة . وتطوع « الدكتور اينيس » مدير مصلحة الكيميا الانجليزى الذى انتهى عقده بأن ذهب الى مستشار وزارة المالية - وكان انجليزيا هو الآخر - وقال له : دكتور زكى ماينفعش !.. واقتنع المستشار الانجليزى برأى مدير المصلحة الذى يحمل جنسيته وألغى الدرجة التى أنشأها لى مكرم عبيد !

ومرت سنوات من عمرى ..

وعينت سكرتيرا للمجلس الأعلى للبحوث .. ثم عينت مديرا للمجلس سنة ٤٥ بدرجة وكيل وزارة .

وفى سنة ١٩٥٢ عندما شكل حسين سرى آخر وزارة له دخلت فيها وزيرا للشئون الاجتماعية .. ولم أدخل مكتبى فى الوزارة أكثر من ٢٤ مرة .. فقد استقالت الوزارة بعد ٢٤ يوما .. وعدت مرة أخرى سكرتيرا لمجلس البحوث . ثم استقلت .

وفي يوم من أيام اغسطس سنة ١٩٥٣ طلبني اسماعيل القباني ـ وزير المعارف حينذاك ـ بالتليفون وقال لي : تقبل منصب مدير جامعة القاهرة ؟ قلت : أقبل .. وبعد أن اتصل بي بثلاث ساعات صدر قرار من مجلس الوزراء بتعييني مديرا لجامعة القاهرة .. وبقيت في هذا المنصب حتى قدمت استقالتي في سبتمبر ٥٤ .. لأسباب لا أستطيع أن أبوح بها الآن !

***

قلت للدكتور احمد زكي :

● **في ثلاثة سطور ٠٠ أريد منك أن تتكلم عن القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية كلاما علميا ؟٠٠**

ـ القنبلة الذرية والقنبلة « الايدروجينية » ـ ! ـ كلتاهما تقوم على مفاعل ذرى ٠ والفرق بينهما أن القنبلة الذرية تولد طاقتها التدميرية من انشقاق ذرات اليورانيوم ، بينما القنبلة الايدروجينية تولد طاقتها التدميرية من اندماج ذرات الايدروجين .. وهو ايدروجين آخر غير الأيدروجين الذي يدخل عنصرا في تركيب الماء ..

وقد توقفت الآن البحوث الذرية على اليورانيوم بعد أن ثبت أن طاقة الايدروجين المدمرة لا حد لها !٠

● **ما رأيك في استراتيجية روسيا واستراتيجية أمريكا الحربية ؟**

ـ ان أساس استراتيجية روسيا هو نفس أساس استراتيجية امريكا وهو اقتحام الشقة التي تفصل بين الدولتين .. وتشمل هذه الشقة : أوروبا والمحيط الاطلنطي .. هذا هو الأساس الاستراتيجي .. أما «التكتيك» العسكري فقد اختلفت فيه الدولتان . اهتمت أمريكا بتسوير المعسكر الشيوعي بقواعدها العسكرية واكملت تكتيكها بالاهتمام بانتاج الصواريخ الموجهة المتوسطة المدى التي تستطيع اطلاقها من قواعدها لتصل الى أهداف الأعداء .. وان كانت قد اهتمت أخيرا بانتاج الصواريخ البعيدة المدى ..

وبعكس أمريكا اختط التكتيك الروسي طريقا آخر يلائم ظروف روسيا فالاتحاد السوفييتي لايملك قواعد قريبة من الولايات المتحدة ، ولذلك ركز اهتمامه في انتاج الصواريخ القارية ذات المدى البعيد ..

● **هل تتوقع حربا عالمية ثالثة ٠٠ ولمن يكون النصر ؟**

ـ سوف تقوم الحرب حتما اذا وضعت احدى الكتلتين الاخرى في مأزق لاتستطيع معه الا أن تركب الصعب وتعلن الحرب . ولن يكون هناك نصر ، بل سيعم الخراب كل الدنيا !

● كم كتابا قرأت فى عمرك ؟..

ـ لا أذكر بالضبط .. لقد أمضيت نصف قرن من عمرى وأنا اقرأ !

● ما لونك فى قراءاتك ؟

ـ أفضل المؤلفات العلمية ، ثم كتب الأدب ، واخيرا المؤلفات السياسية ومذكرات الساسة العالميين ..

● الأرفف التى فى مكتبك .. كم كتابا فيها ؟

ـ حوالى ٤٠٠٠ كتاب

● كم لغة تجيد القراءة بها .. وكم لغة تجيد بها الكتابة ؟

ـ أجيد القراءة والكتابة بالعربية والانجليزية فقط .. واتكلم الالمانية والفرنسية وأقرأ بهما أيضا .

● كم مرة سافرت للخارج ؟

ـ لا أذكر .. ولكننى زرت أكثر من نصف دول العالم .. زرت انجلترا وفرنسا والمانيا وهولندة وبلجيكا والدنمارك والسويد والنرويج والنمسا وسويسرة وايطاليا والولايات المتحدة وكندا ، وكل دول الشرق العربى ، والهند والباكستان ..

ولكنى لم أزر السودان .. أقرب بلاد الله لمصر !

● الله هو الحقيقة الكبرى فى الكون كله . فكيف يهتدى اليه الضال الذى يبحث عن الحقيقة .. كيف يهتدى اليه بلا قرآن ، ولا حديث ، ولا سنة ، ولا فقه ؟

ـ عن طريق العلم .. فالفار لايرى سوى مساحة محدودة حوله على مدى بصره ، ولذلك ذكاؤه محدود بهذه الحدود .. والكلب يرى مساحة أكبر وذكاؤه لذلك أحد من ذكاء الفار .. والحصان أذكى من الكلب .. وهكذا يتفاوت ذكاء الحيوان والانسان ويتحدد بحدود .

وعن طريق العلم ، وفى داخل هذه الحدود يستطيع الانسان أن يدرك وحدة الكون الحى والكون الجامد على السواء .. ووحدة الكون من وحدة الله ..

وعندما يصل الانسان بتفكيره الى هذه النتيجة ، يجب الا يشتط فى التفكير فعند هذه النقطة يقف ذكاؤه الانسانى !

● ماهى الأمراض التى تعالج نفسك منها ؟

ـ لست مريضا على الاطلاق .. ولا تجد على مكتبى أثر للزجاجات والحقن والحبوب .. وأنا من عائلة معمرة ، فقد توفى أبى وعمره ٧٨ عاما

وأنا أتحفظ على صحتى .. بالطرق العلمية وقـــد افادنى فى ذلك أننى لا ادخن ولا أشرب الخمر ، أشرب الشاى فقط كمورد للماء الساخن والمواد السكرية .. ومن باب العادة !

● كم تتوقع أن يمتد بك الأجل .. وما هي مشروعاتك التي تنـــوى تنفيذها في هذه المدة ؟

ـ أنا لا أطمع فى أكثر من عمر والدى ، على أن أحتفظ بقواى العقلية وقوتى فى الاستيعاب والتفكير . وليست لى مشروعات محددة ســوى القراءة والكتابة .. فلقد ذهب أوان المشروعات !



بنت الشاطئ

.. نحـو الحبيب !

((واندفعت تتعلم .. كانت كلمـــا قطعت مرحلة تعثرت فى أزمة تهز اركان البيت .. يقول لها أبوها : ((ادخلى خدرك يابنية)) فترفع جبهتها وتثور وتصمم أن تكمل تعليمها ..

ومرات كثيرة هددت أباها بالانتحار ، وهددها أبوها أن يطلق أمها اذا لم تخز الشيطان وتقعد فى البيت ! .

ولكن كان من الصعب عليها أن تقف .. فقد كانت تسير بدفعة حب نحو الحبيب !)) .

المراكب كانت تأتى من الشام ، من لبنان ومن سوريا ، كلها مـلآنة بخشب الأرز وزكائب القمح وأثواب الحرير ، وكانت ترسو فى دمياط . يطوى المراكبية الشراع ويتركون للحمالين مهمة تفريغ الحمولة ، بينمـا يهرعون هم الى نسائهم يروون الأشواق بعد طول الغياب .

وتظل المراكب راسية بالأسابيع .. تتحول فيها الى مسرح لصـبايا دمياط ، يصـعدن عليهـا كل أصيل ، ويسهرن ويسمرن حتى يسـقط الليـل ..

وكانت هى ضمن الصبايا .. عائشة بنت الشيخ محمد عبد الرحمن المدرس فى معهد دمياط . كانت تصعد مع الصـبايا ، يجمعهن اللعب والصداقة ومرح الطفولة .

وفى يوم ، تفقدت عائشة صديقاتها فلم تجد منهن واحدة .. وانكسرت نفسها وأحست بالوحدة .. سألت عن صديقاتها فقالوا لها : انهن ذهبن الى المدرسة . لقد بدأ الخريف بعطره وجوه الرطب ، وفتحت المـدارس أبوابها لتبتلع فصولها أعداد التلاميذ فلا تلفظهم الا آخر النهار .

وتشعلقت بصديقاتها . صممت أن تلحق بهن داخل فصول المدرسة. ولكن أباها رفض .. ان البنات عنده لايتعلمن فى المدارس ، يتعلمن فى البيت !

ولكن كيف ؟.

ان اباها عالم ، وبيتها الذى عاشت فيه بيت علم ، لقد وعت عـلى الدنيا فوجدت الارفف تملأ احدى حجراتها وفوقها مئات الكتب والمعاجم والمجـلدات .

وهى تحب العلم .. ولا أحد فى الدنيا يستطيع أن يقف بينها وبين الحبيب ..

ووقف معها جد أمها .. وقف فى وجه ابيها ، واخـذها من يدها وأدخلها مدرسة اللوزى الأولية بدمياط .. واندفعت تتعلم ، كانت كلما قطعت مرحلة تعثرت فى أزمة تهز أركان البيت .. يقول لها أبوها «ادخلى خدرك يابنية » فترفع جبهتها وتثور وتصمم أن تكمل تعليمها .. ومرات كثيرة هددت أباها بالانتحـار ، وهددها أبوها أن يطلق أمها اذا لم تخز الشيطان وتقعد فى البيت ! ولكن كان من الصعب عليها أن تقف .. فقـد كانت تسير بدفعة حب نحو الحبيب ..!

وارتوت من العلم على مر سنوات الكفاح .. وأصبحت الدكتـورة

« بنت الشاطيء » الاستاذة التى تدرس الأدب العربى فى الجامعة . وتتكلم الألمانية . وتسكن — بدل الريف — فى ضاحية مصر الجديدة !

***

قالت لى « بنت الشاطيء » :

● « كلايش » .. قلت لهـا : ايه ؟ قالت : لا أبدا .. أنا أكلم ابنى « أكمل » انه يقول لى بالألمانية : تعالى غدينى ، وأنا أقول له حالا !

● الوالد كان مدرسا فى معهد دمياط الدينى وكان صوفيا .. اسرته من شبرا بخوم مركز قويسنا ، أما عائلة أمى فمن دمياط ذاتها .
ولدت فى دمياط فى ٦ نوفمبر سنة ١٣ .

● أمضيت صباى العب على شاطيء فرع دمياط .. كنت أنزل فى الماء أنا والبنات ، نعوم ونصطاد السمك ، أو أصعد معهن على ظهر المراكب التجارية الآتية من الشام نسهر ونسمر .. أو نركب قاربا بشراع يزحف بنا مع التيار الى البحر الواسع عند رأس البر ، ثم نعود آخر النهار ..

● عشت على الشاطيء أحلى أيام عمرى .. وتأثرت بالشاطيء ، بناسه وواقعه .. وأحلامه .. وعندما كتبت أول مقال ادبى لى فى جـريدة «الأهرام» بحثت عن اسم مستعار اختفى وراءه ، فلم أجد غير « بنت الشـاطيء » !

***

● كنت كلما حصلت على شهادة جدد أبى ثورته وطالبنى بدخـول الحريم ! وكنت اقابل ثورته بثورة مماثلة وتصميم على المضى فى الطريق .. حصلت على شهادة المدرسـة الأولية ، انتصرت على ثورة أبى ودخلت المدرسة الراقية وأخذت شهادتها سنة ٢٥ .

قدمت أوراقى لمدرسة المعلمات بالمنصورة ولكن أبى ذهب بنفسـه فى اليوم التالى وسحب الأوراق ! دخلت امتحان الكفاءة « من منازلهن » سنة ٢٩ ، نجحت وطلعت الأولى على القطر كله !

● بلغت ثورة أبى قمتها يوم جاءنى خطاب التعيين مدرسة فى مدرسة ملحقة المعلمات بالمنصورة .. هددنى بأن يتبرأ منى ليوم القيامة ، قلت : ولو .. هدد أمى بالطلاق فوقفت أمى فى صفى ، وكأنها تعطينى فوق نصيبى من التحرر نصيبها الذى حرمت منه !
وتسلمت وظيفتى ..

● تقدمت من المنزل لدبلوم « الاقسام الاضافية » سنة ٣١ ، كانوا قد منعوا التقدم من المنازل ، فأعادوا الى أوراقى ..

احسست أن هذه أول عقبة فعلية فى طريقى الى مزيد من التعليم ، ففيرت مجرى حياتى .. عكفت ٦ شهور على دراسة اللغة الانجليـــزية وتقدمت للشهادة الابتدائية ، نجحت وكان ترتيبى الخامسة فى القطر .

● نقلت الى القاهرة مدرسة فى مدرسة زينهم الأولية للبنات بالبغالة احسست فى غربتى بهاتف يهتف فى أعماقى ويقول : « أنا حرة » . كنت اتسلل الى لجان الامتحان وفوق راسي « طرحة » وعلى جسدى « حرام » وكأننى ارتكب جريمة فى الظلام ! خلعت الطرحة والحرام وذهبت الى الامتحانات سافرة وكأننى أعلن عن نفسى .. أخذت الكفاءة الثانوية ســنة ٣٢ ، والبكالوريا قسم ادبى سنة ٣٤ .. درست علوم الكيمياء والطبيعة فى الكتب فقط ، لم ادخل معملا ولم أر مخبارا فى حياتى !

● سنة ٣٦ استطعت أن احتفظ بوظيفتى وان التحق فى نفس الوقت طالبة منتظمة فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب .. كنت أعمل فى وقت واحد : سكرتيرة لكلية البنات . ناقدة أدبية لجريدة « الأهرام » . مشرفة اجتماعية فى القرية النموذجية ببهتيم . وطالبة فى كلية الآداب !.

نجحت فى السنة الأولى بامتياز .. فى السنة الثانية دخلت « قسم الامتياز » أنا وأربعة من الزملاء .. لم يبق فى القسم — فى الليسانس — غيرى أنا وزميلى الدكتور النويهى أستاذ الآداب فى جامعة الخرطوم ..

حصلت على الليسانس سنة ٣٩ بدرجة ممتاز ..

● عينت معيدة فى الجامعة .. أخذت « الماجستيراه » ســـنة ٤١ بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى .. كانت رسالتى عن « الحياة الانسانية عند أبى العلاء المعرى » . ان أبا العلاء طراز فريد فى الأدب العربى .. انه فى نظرى احسن اديب يطفو بانسانيته وفنيته فوق كل عصور الأدب .. وجزء من مؤلف واحد من مؤلفاته المتعددة يصلح دراسة أكاديمية عميقة لدرجة جامعية عالية .. من مؤلفاته الشهيرة : رسالة الغفران ، ســـقط الزند ، لزوميات أبى العلاء ، رسائل أبى العلاء .. أما مؤلفاته المغمورة فارجع الى « معجم ياقوت » يحكى لك قائمة طويلة باسمائها !.

● سنة ٤٥ كنت مدرسة مساعدة فى كلية الآداب .. تزوجت المرحوم الشيخ أمين الخولى واتفقنا أن أستقيل لأحضر رسالة الدكتوراه ، واتفرغ لتربية الأولاد الى ان يدخلوا المدارس ..

تقدمت للدكتوراه سنة ٥٠ وحصلت عليها بتقدير ممتاز .. كـانت رسالتى عن « رسالة الغفران » لأبى العلاء .. عدت الى الجامعة ســنة ٥١ ، وانا الآن استاذة للآداب بجامعة عين شمس .

***

قلت للدكتورة عائشة عبد الرحمن :

● حدثيني عن سر لقبك .. لقب ((بنت الشاطىء)) ؟..

ـ كان ذلك سنة ٣٦ عندما نشرت أول مقال لى فى جريدة «الاهرام» كان المقال بداية سلسلة طويلة من المقالات عن الريف المصرى .. وعندما فرغت من كتابة المقال وقعت فى حيرة : هل أوقع باسمى ؟ .. لم يكن ذلك معقولا .. فقد نشأت فى بيئة محافظة ، وتربيت فى أحضان آب ريفى ازهرى متصوف يقدس التقاليد .. وبحثت عن اسم أختفى وراءه ، فلم أجد غير ملعب صباى ومجال كل الهامى .. لم اجد غير الشاطىء .. شاطىء دمياط .. فوقعت باسم « بنت الشاطىء » !

وفى اليوم التالى عقب نشر المقال اتصل بى كنعان سكرتير تحرير الأهرام ودعانى لمقابلة المرحوم « جبريل تقلا » صاحب الأهرام وقتئذ .. هنأنى الرجل على مقالى وطلب منى ان اكتب للاهرام بشكل دائم وأن اكون الناقدة الادبية للجريدة .

● بالنسبة لك ، بماذا تشبهين دراسة الأدب .. ولماذا اتجهت اليها دون غيرها من الدراسات ؟.

ـ ان الكون يفسر تفسيرا عقليا وتأمليا ووجدانيا .. فالعلم يتولى الجانب العقلى . والفلسفة تتولى الجانب التأملى ، والأدب والفنون تتولى الجانب الوجدانى ..

وقد استجبت لدراسة الأدب بدافع من مزاجى الخاص الذى أنمته فى بيئتى . وقد عشت طفولتى على الفطرة ، والفطرة تشحذ الوجدان !

● انت فلاحة من الريف .. وانت ايضا ـ كما قلت مرة ـ شيخة وابنة شيخ وزوجة شيخ .. ماذا فيك من الريف ، وماذا فيك من تقاليد أصحاب العمائم ؟!

ـ فى من الريف : الفطرة والبساطة والزهد فى المجتمعات وضجيج المدينة وبهرة المدنية .. وفى أيضا مقاييسى للدنيا وموازينى للناس ، فهى مقاييس وموازين فطرية ريفية وليست صناعية عصرية !

وفى من تقاليد الشيوخ : المحافظة .. فأنا محافظة لدرجة لا تخطر ببال امرأة . فى حياتى : لم أستعمل « التواليت » . ولم أدخل مرة محل « كوافير » . ولم أضع على جسدى فستان سهرة !!

● من هو المفكر .. اننى اتلفت حولى أبحث عن المفكرين فى البلد فلا أجد واحدا ينطبق عليه معنى الكلمة ؟!

ـ لا أعرف بالضبط ماذا تعنى بكلمة مفكر .. ان كنت تعنى بها «المعلم» فمعلمنا الأول كان المرحوم الاستاذ احمد لطفى السيد .. أما بقية المعلمين فما زالوا بأشخاصهم فوق خشبة المسرح ، ولا يصح الآن الحكم عليهم.

● الكتب في مصر تصدر بالصفحة ، وتباع عند تجار الورق بالأقة !. والناس يتعلمون فى المدارس والجامعات ولكنهم لا يقراون ! لماذا لا يقرأ الناس ؟..

ـ لأسباب كثيرة .. دعنى أعددها لك :

١ ـ مثنوية اللغة .. فعندنا لغتان : لغة الكتابة ، ولغة للحياة ..وبين اللغتين عزلة محكمة !

٢ ـ التربية فى مجتمعنا لم تنتج القارىء الذى يقرأ .. والصبية ينشأون فلا يجدون « المكتبة » ضمن أثاث البيت .. يجدون بدلا منها «بار أمريكانى » !.

ـ انعدام المادة الصالحة التى يمكن أن يقرأها النشء .. والمؤلفات الموجهة المغرية التى يمكن أن تستهوى الشبان .. من شهور وأنا ابحث لابنى عن كتاب يقرأه فلم أجد كتابا واحدا . !

٤ ـ على الكتاب انفسهم يقع العبء الأكبر من مسئولية كساد البضاعة ! .

● أين عاصمة الأدب .. هل هى القاهرة ، دمشق ، أم بيروت ؟..

ـ ليس هناك عاصمة واحدة للأدب .. انها مناطق نشاط ، لكل منطقة مجالها واختصاصها .. فمركز مصر الثقافى يجعل القاهرة فى المرتبة الأولى ، ولكن المجال عندنا للنثر أكبر .. والشعر فى بغداد ، فهى عاصمة الشعر .. وبيروت تتزعم الحركة التجارية فى النشر والترجمة . اما دمشق ففيها الدراسات العربية القديمة الأصيلة ..

● ماهي شروط الناقد .. وهل يعتبر نقدا هذا الذى نقرأه فى الصحف ؟

ـ انا لا أعلم أن هناك نقدا في الصحف ! الذى اعرفه ان النقد عندنا مضيع ، ومسئولية تضييعه موزعة بين جيلين من الكتاب : الكبار والشبان!

فالكبار يظنون في أنفسهم العصمة من الخطأ ، ولا يحتملون كلمة نقد ، وقد استغلوا نفوذهم فى وأد حركة النقد بعد أن بدات تظهر . والشبان اكثرهم استعجل الشهرة ، وصفق بعضهم لبعض !

والنتيجة أن الأدب والحركة الفكرية بوجه عام فى مصر أصبحت محرومة من النقد ومن التوجيه والرقابة .. وأصبحت محرومة من فرصة الكشف عن أسباب النقص ، لكى تسير فى طريق الكمال !

● الى أين تسير المرأة وجمعيات المرأة •• هل انحرف الاتجاه التحررى الذى سارت به المرأة المصرية من ٥٠ سنة ؟

ــ ان أكثر فتياتنا ظنن أن تحرر المرأة بضاعة غربية فالتصقن بقشور المدنية الغربية وبعدن عن تقاليد الشرق .. وحسبن التحرر هو انفلات معيار ، وتسريحة جميلة ، ومظهر يلفت النظر ! لقد غاب عنهن جوهر التحرر ، فاهملن الشخصية الشرقية وفقدن الشعور بالذات !

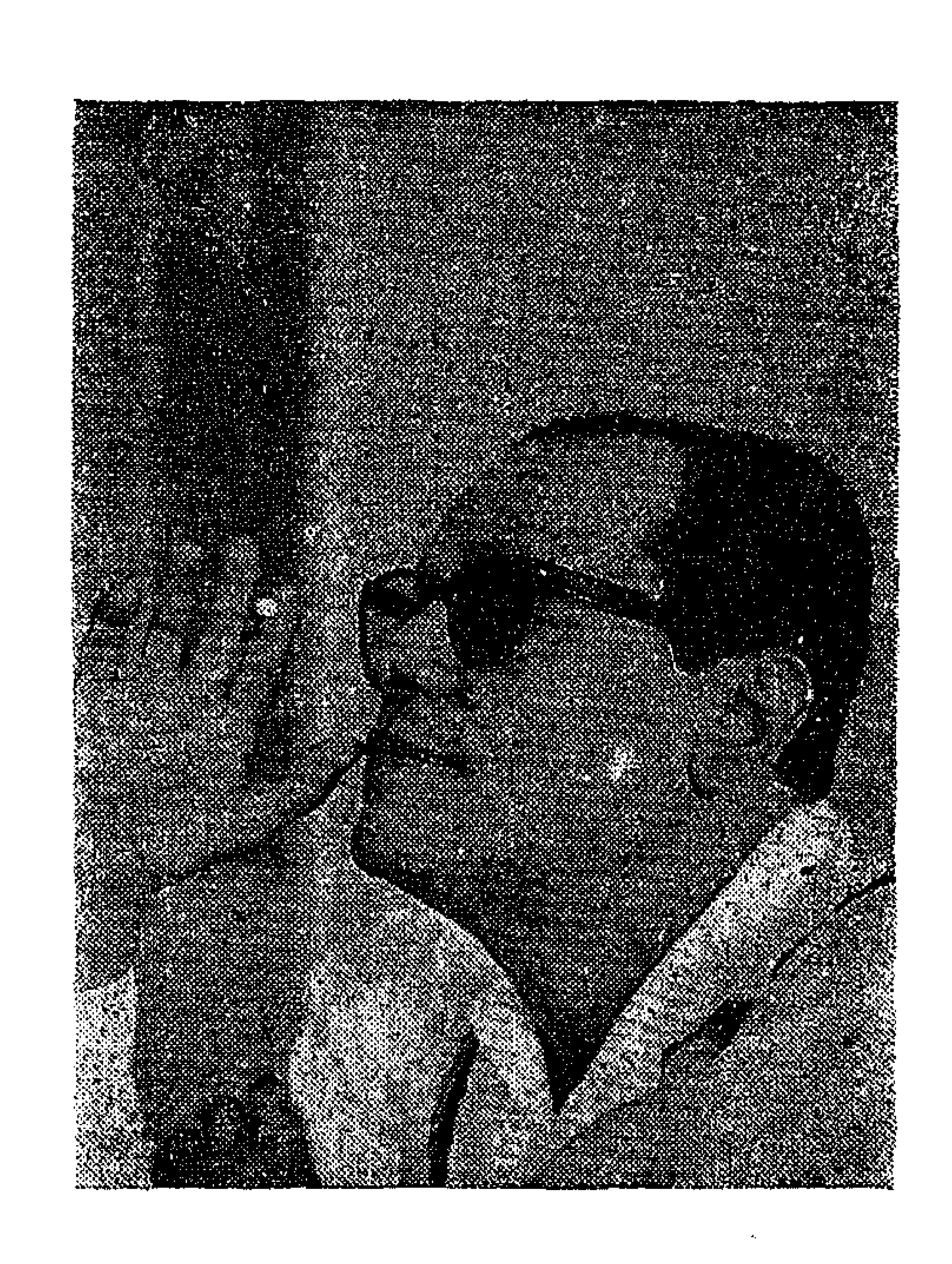
● كافحت لتتعلمى .. ماذا كان يدفعك ، ولأى حد اثر التعليم فى مجرى حياتك ؟.

ــ كانت تدفعنى الوراثة .. حب العلم الذى كان يجرى فى دمى .. لقد كان أبى عالما فأحببت العلم .. وعندما وقف فى طريقى ليسلبنى ما ورثته عنه ، حاربته وانتصرت عليه !

وبالقطع اثر التعليم فى مجرى حياتى .. أصبحت أستاذة فى الجامعة ومتحدثة فى الراديو ، ومحدثة فى الندوات والمؤتمرات .. وانتقلت من دارنا فى شبرا بخوم الى فيلا فى مصر الجديدة !

● يكفى حديثا عن ((بنت الشاطىء)) .. حدثينى عن ((عائشة عبد الرحمن)) كامرأة داخل البيت ؟ ..

ــ ان كل مايتعلق ببنت الشاطىء ملك للجمهور . أما كل مايتعلق بعائشة عبد الرحمن فهو ملك لها ولأولادها •• وذكرى زوجها !



نجيب محفوظ

الكتابة .. عذابى !

« كنت أضعفهم بنية .. كانت عظامى كالشماعة ، وجلدى فوقهـــا كالرداء الرخو وكنت أحضر معى غدائى كل صباح .. ولكنى لم أكن آكل منه لقمة واحدة ! كانوا يخطفونه منى .. ثم يتخاطفـــونه من بعضـــهم البعض .. وكانت بطلة خطف الطعام بنتا اسمها « عيشـــة » .. كانت تخطف معظم الطعـــام وتنزوى به بعد أن تترك لهم الباقى .. وويل لمن يحاول أن يشاركها غنيمتها بعد ذلك من صبيان الكتاب .. عندئذ كانت تنشب معركة حقيقيـــة .. وتطير الألواح الصفيح فى الهواء كالأطبـــاق الطائرة .. وكنت أســـارع الى الحصير أرتمى عليه .. ثم ألف به وأنا أدور على جنبى عدة مرات .. فأصبح فى حصن حصين ! » ..

رجاني نجيب محفوظ أن أنشر له اعلانا على الناس وأقول :

« ان كاتب الواقعية مل الواقعية ! زهق من آلام الناس ومظاهــر حياتهم المباشرة . ولم يعد هناك جديد يكتبه عنهم .. وعندما يكتب مرة أخرى سوف يكتب بطريقة جديدة لم تتحدد معالمها في ذهنه حتى الآن .. والا فسوف يهجر الأدب الى الأبد !. »

وقال لى أيضا :

« لقد كتبت حتى الآن أكثر من ٥٠٠ قصة قصــيرة .. و٩ روايات طويلة أولها رواية « عبث الأقدار » ، ووسطها ثلاثيــة « بين القصرين » ، وآخرها « ثرثرة على النيل » .

وقرأت الدولة الجــزء الأول فقط من رواية بين القصرين ، ثم وضعت يدها في خزانة البنك الأهلي ومنحتني ١٠٠٠ جنيه .. وقرأت في صحف الصباح أنها « جائزة الدولة » !

ولم أصرف من المبلغ شيئا . أخذت منه فقط ٩٩ قرشا ادفأت بهـــا جيبي ومارست على دفئها شعورا غريبا .. فقد كنت أحس بضخامة الرقم تملأ ذهني كله وأنا « انقر » وجوه الناس في ردهة البنك الأهلي بنظرات متعاليــة أملأ بها عيني .. وبحثت في خانات مخي فوجــدت أرقام آحاد وعشرات ومئات .. ولم أعثر على أثر للأدب .. أو القراء !

وبعد الـ ٩٩ قرشا ، بقى لى ٩٩٧ جنيها .. طلبت من موظف الشباك أن يحولها باسمي الى « بنك مصر » .. فقد خفت أن أتركهــا في خزائن البنك الأهلي لأنه هو الذي أعطاني المبلغ .. والذي يعطي قد يرجع في كلامه !.

ثم ذهبت الى توفيق الحكيم ووضعت يدي في يده ، وعاهدته عهـــدا أعظم على ألا أصرف مليما واحدا الا باذن خاص منه .. مهما سولت لى نفسي بالسوء !. »

ثم قال نجيب محفوظ :

« خذ أي بواب لأي عمارة في أحقــر حي .. حقق المعجز وارفع من أنحاء جسده الحشرات الضارة التي تؤرق يقظته ومنامه .. وفر له الجو، نفس الجو الذي كان يعيش فيه كاتب مشهور مثل « أرنست هيمنجواي » .. بسهولة ، سيتحول البواب الى كاتب للقصة القصيرة والطويلة معا ! ان أرنست هيمنجواي كان يعيش حياته ثم ينقلها بتفاصيلها للناس .. التجربة التي يفتقدها يبحث عنها ويطير اليهـــا في أي مكان من الأرض ليعيشها قبل أن يكتب عنها .. وعندما يأتي عقله المخاض .. يعتــكف

بالشهور على ساحل الريفييرا ٠٠ يأكل مالا يأكله النـــاس ٠٠ ويشرب مالا يشربه الناس ٠٠ ويخالط الكونتيسات واللوردات ورجال الأعمال ٠٠ ثم يسهر الليل ، غير وحيد ، وهو يتمرغ فى السعادة ٠ وبعد ذلك يلد قصة طويلة رائعة !٠

« أما أنا فالكتابة بالنسبة لى عملية تعذيب تمزق أعصابى !٠ فعمـلى الحكومى يستغرق منى معظم النهار ٠٠ وفى الليل أمسك القلم الكوبيا ، وأظل أكتب ساعتين على الأكثر ٠٠ ثم لا أطيق ! ويسمى الناس ما أكتبه أدبا ، فقط .. أما أنا فأسميه : أدب موظفين ! .

***

قال لى أبو الواقعية فى القصة المصرية :

« ان حياتى مثل « تورتة الفرح » ٠٠ تستطيع بالسكين أن تقطعهـا الى مراحل ، كل مرحلة على حدة ٠٠

***

● كتاب الشيخ بحيرى : كان الكتاب فى الجمالية ٠٠ وجاء عيـــد ميلادى الرابع فى ١١ ديسمبر سنة ١٦ ، وقرر أبى أن يحتفــل به ٠٠ فأدخلنى كتاب الشيخ بحيرى ٠

وكنت أضعف أطفال الكتاب ٠٠ كانوا يحفظون القرآن بسرعة ،وكنت أقرأ اللوح ثلاثين مرة فأحس اننى فى حاجة الى أن أقرأه ثلاثين مرة أخرى لكى أحفظه ٠ ! وكنت أضعفهم بنية أيضا ٠٠ كانت عظامى كالشماعـة ، وجلدى معلق فوقها كالرداء الرخو ! وكنت أحضر معى غدائى كل صباح ، ولكنى لم آكل منه لقمة واحدة !٠ كانوا يخطفونه منى ثم يتخاطفونه من بعضهم البعض ٠٠ الرغيف الواحد يتحول بين أصابعهم الرفيعة الى مائة لقمة تتخاطفها الأفواه ٠٠ « ربع رطل الحلاوة » الذى كانت أمى تلفــه لى كل يوم كان واحد منهم يلقمه كله فى فمه ، ومن فمه الى معدته مباشرة ! ٠٠ أما البيض المسلوق فكان يتحول الى قشر يقـــذفونه فى وجهى وهم يعيروننى بضعفى !

وكانت بطلة معـــارك خطف الطعام بنتا اسمها « عيشة » ٠٠ كانت تخطف معظم الطعام وتنزوى به بعد أن تترك لهم البــاقى ٠٠ وويل لمن يحاول أن يشاركها غنيمتها بعد ذلك من صبيان الكتاب .. عندئذ تنشب معركة حقيقية ، وتطير « الألواح الصفيح » فى الهواء كالأطباق الطائرة ٠٠ وكنت أسارع الى الحصير أرتمى عليه ، ثم ألف به وأنا أدور على جنبى عدة مرات ، فأصبح فى حصن حصين !٠

● مدرسة البراموني الأولية : درست فيها سيرة العفاريت !٠ حصص بأكملها كان مدرس العربى يستهلكها في الحديث عن العفاريت ٠٠ كان يقول لنا انها تعيش في بطن الأرض وسط لجة من الجحيم الأحمر ، ولا تخرج أبدا الى ظهر الأرض الا اذا سرق أحدنا قطعة طباشير ، أو أهمل كتابة « الواجب » ، أوألح على والده في الصباح وهو يطلب المصروف !٠

ثم يملى علينا واجبات معينة ويطلب منا أن نتبعها اذا قابلنا عفريتا في الظلام أو في النور !٠

● مدرسة الحسينية الابتدائية : لم أقرأ عن « محاكم التفتيش » الا بعد أن تخرجت فيها وحصلت على الابتدائية ! ولكنى كنت أتذكرها في كل سطر قرأته بعد ذلك عن محاكم التفتيش ٠ ! كنت أتذكر المساطر المربعة السوداء بلون العذاب وهى تهوى على عقل أصابعى في برد الشتاء وأنا أكاد أنفطر من الألم والبكاء !٠ وأتذكر « شلوتا » هائلا حملنى ذات مرة أمتارا في الهواء ، انكفأت بعدها على وجهى في الطين الذى غطى كل معالم بذلتى وحذائى ٠٠ وعندما نهضت وجدت مدرس الانجليزى ورائى وهو يصرخ فى : علشان تانى مرة ماتسيبش رباط الجزمة مفكوك !

● مدرسة « فؤاد الأول » الثانوية : تذوقت فيها السياسة ، واندمجت في الحياة السياسية ٠٠ كان ذلك فىالفترة بين سنتى ٢٥و٣٠ ٠ اشتركت في حزب الوفد الذى كان في كفة يمثل الشعب ، وفي الكفة الأخرى كان حزب الأحرار الدستوريين يقف في حديقة « القصر » ويسند رأسه الى الملك نفسه !٠ وكنا في فسحة الغداء نقف في حوش المدرسة٠٠ الوفديون يتكلمون عن المعارك والمبادىء والأهداف والاضرابات وتقديس الزعيم ٠٠ والأحرار الدستوريون يتكلمون عن مسرحيات يوسف وهبى في فرقة رمسيس وسهرات الليل ، وجو أوربا في فصل الصيف ٠٠ فقد كان معظمهم من الارستقراط وأبناء باشوات الاقطاع ٠٠ وسقط النحاس من على الحكم ٠٠ وجاء محمد محمود مرشح الانجليز ، فأجل العمل بدستور ٢٣ لمدة ٣ سنوات ٠٠ ووضع محمد محمود الطين في أفواه الشعب ليكف عن الكلام ، ثم وعد باجراء اصلاحات عامة شاملة ، أهمها برنامج ضخم لردم البرك والمستنقعات !٠ وكتب محمد التابعى مقالا في «روز اليوسف» يستقبل به عهد محمد محمود ، وكان عنوان المقال : « سخام البرك » !!

● كلية الآداب : دخلت قسم الفلسفة ٠٠ عشت مع سقراط وارسطوطاليس وابن سينا ، ولكنى لم أنس النضال السياسى ..

وعندما جاء اسماعيل صدقى الى الحكم قرر أن يعيد أمجاد « الحاكم بأمر الله » ٠٠ منع المظاهرات ، وأصدر أوامره الى أقسام البوليس بأنه لا

يهمه القبض على النشالين واللصوص مثل اهتمامه بالقبض على المتظاهرين قبل أن يهتفوا بسقوط الحكم • !

ومع ذلك ، كان اسماعيل صدقى يضم أصابعه خلف أذنه ويرهف السمع لهتافات المتظاهرين وهو يجلس خلف مكتبه فى مبنى رئاسة مجلس الوزراء •• وكان المتظاهرون فى تكتيكهم يتبعون تخطيط «الحارات» •• تجتمع الجماعة في الحارة ، ثم تسير لتلتقى بجماعة من حارة أخرى •• ثم يسيرون فى طريقهم والحوارى الجانبية تصب فيهم مزيدا من المتظاهرين •• حتى اذا ما وصلوا الى الشارع الرئيسى كانوا مظاهرة كاملة تهتف : يسقط صدقى عدو الشعب !

ومرة كنت في احدى المظاهرات • والتقينا برجال البوليس فى شارع قصر العينى فطاردونا •• وجريت وجرى ورائى عسكرى « سوارى » بحصانه •• وظللت أجرى فى شارع سعد زغلول حتى وصلت « بيت الأمة » فقفزت فوق السور •• وفي اللحظة التى كنت أهوى فيها داخل الحديقة كان العسكرى قد لحق بساقى وأمسكها ، ووقعت فى أرض الحديقة بعد أن انخلعت فردة حذائى فى يد العسكرى ! واستقبلتنى صفية زغلول « أم المصريين » فضمدت جراحي ، وقدمت لى كوبا من الشربات •• ثم انضممت الى جيش من الجرحى يتمددون فى ردهة البيت وجراجاته ، لأسترد أنفاسي !

● حصلت على ليسانس الآداب سنة ٣٤ •• أعترف اننى وسائر جيلى من طلبة الجامعة لم نستفد من الجامعة نصف ما استفدناه من قراءة انتاج طه حسين والعقاد والمازنى وحسين هيكل ، فى هذه الفترة •!

***

● بدأت حياتى الفكرية بقراءات هزيلةلم تكن لتخلق لى ثقافة أو تصنع منى أديبا لو واظبت على قراءتها ألفى عام ! ففى أوائل سنوات الثانوى قرأت سلسلة « جونسون وميلتون توب » للمغامر المصرى حافظ نجيب •• ثم ألهبت الوطنية وأحداث السياسة عاطفتى فكتبت الشعر الوطنى •• ووقعت في الحب ولم يشفنى منه الا قصائد طويلة كتبتها فى الغزل العفيف !

دخلت بعد ذلك جامعة طه حسين والعقاد والمازنى •• قرأت من شعر العقاد دواوينه : الديوان • وحى الأربعين •

وقرأت لطه حسين : فى الأدب الجاهلى • حديث الأربعاء • الأيام •
وقرأت للمازنى : قبض الريح • ابراهيم الكاتب ••

وفى كلية الآداب ، كتبت مقالات فى الفلسفة نشرتها فى « المجلة

الجديدة » و « المعرفة » وكل الصحف التى كان يشرف العقـــاد على تحريرها ٠٠ فقد كان يفسح صدره لانتاجى دائما !

ومشيت في طريق الفلسفة حتى خيل لى أنه الطريق الوحيد أمامى ٠٠ وشغلت نفسى بتحضير رسالة للماجستير عن « فلسفة الجمال » ٠٠ ثم واجهت أخطر مرحلة في حياتي ٠٠ كنت أمسك بيد كتابا في الفلسفة وفي اليد الأخرى قصة طويلة من قصص توفيق الحكيم أو يحيى حقى أو طه حسين ٠

وكانت المذاهب الفلسفية تقتحم ذهنى فى نفس اللحظة التى يدخل فيها أبطال القصص من الجانب الآخر ٠٠ ووجدت نفسى فى صراع رهيب بين الأدب والفلسفة ٠٠ صراع لا يمكن أن يتصوره الا من عاش فيه ٠٠ وكان على أن أقرر شيئا ، أواجن !

ومرة أخرى ، قامت في ذهنى مظاهرة من أبطال « أهل الكهف » الذين صورهم توفيق الحكيم ، و «البوسطجى » الذى رسمه يحيى حقى ، والفلاح الكفيف الصغير الذى لا يعرف من الدنيا أبعد من حدود عيدان الغـــاب المنتصبة على حافة الترعة في رواية « الأيام » ٠ وأشـخاص كثيرون من أبطال قصص محمود تيمور ٠٠ كلهم كانوا يسيرون فى مظاهرة واحدة ٠٠ وقررت أن أهجر الفلسفة وأن أسير معهم !٠

● بدأت انتاجى الأدبى ٠٠ كتبت سنة ٣٦ حوالى ١٠٠ قصـــة نشر حسن الزيات معظمها فى مجلة « الرواية » ونشرت الباقى فى «الرسالة» و « الثقافة » ٠٠ وكتبت قبلها أكثر من ٦٠ قصة لم أنشرها ٠٠ لأننى لم أكن راضيا عنها !٠

جربت أن أكتب الرواية الطويلة ٠ كنت أمضى العام كله وأنا أكتب رواية واحدة ، ثم آخذها تحت ابطى فى آخر العـــام وأركب الترام الى الفجالة ، أدخل حارة « ميخائيل جاد » وأدق باب أحد البيوت ، فيخرج الى سلامة موسى ويأخذ منى الرواية ٠٠ وأسبوع يمر ، وأروح لسلامة موسى البيت فأفاجأ به يقول لى « مش بطال ٠٠ لكن حاول مرة ثانية » ٠٠

وحاولت بأربع روايات طويلة ٠٠ وفى المحاولة الخامسة كتبت رواية « عبث الأقدار » ونشر سلامة موسى الرواية فى مجلة « المجلة الجديدة » مقابل ٥٠٠ عدد منها ٠٠ أخذت الأعداد وأعطيتها لاحدى المكتبات ٠٠كان العدد بخمسة قروش . فاتفقت معهم على أن آخذ قرشا واحدا فقط عن كل عدد ! وعدت بعد يومين لأقبض ثمن الأعداد ، فقال لى صاحب المكتبة : فوت بعد أسبوع ! وفت بعد أسبوع فاستمهلنى أسبوعين !

وسلمت أمرى وأمر صاحب المكتبة لصاحب الأمر !٠

● اشتغلت في ادارة الجامعة بعد أن حصلت علي الليسانس ،وبقيت بها حتى سنة ٣٨ ٠٠ وكانت هذه الفترة أخصب فترات حياتي ٠٠فالعمل قليل والمكتبة أمامي ألتهم مجلداتها كل يوم ٠٠ كتبت في هذه الفترة : ١٠٠ قصة قصيرة و ٣ روايات طويلة هي : عبث الأقدار ٠ رادوبيس ٠ كفاح طيبة ٠

● انطلقت الى وزارة الأوقاف ٠٠ اشتغلت فيها سكرتيرا برلمانيــا للوزير من سنة ٣٩ حتى ٥٥ ٠ وكان المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الأوقاف يعفيني من العمل بعد الظهر ، ويقول لى : « علشان تلاقى وقت لقلمك يا نجيب » !٠

وجاء أخوه الشيخ على عبد الرازق ففعل معى نفس الشيء ٠٠

وكتبت في هذه الفترة ٦ روايات : القاهرة الجديدة ٠ خان الخليلى ٠ زقاق المدق ٠ السراب ٠ بداية ونهاية ٠ ثلاثية بين القصرين ٠ وفى الآخر انتقلت الى مصلحة الفنون ٠ وتنقلت فى أعمال مختلفة بوزارة الثقافة ، وانتهى بى المطاف الى مؤسســة السينما . اننى الآن أعمل فى الوزارة التى ترعى الفن ٠ والأدب فن ٠ ومع ذلك لا أجد ساعة واحدة أكتب فيها !٠

***

سألت « أبو الواقعية » الذى مل الواقعية وقرر أن يهرب منها :

● **كيف تكتب قصصك ٠٠ وهل لك ساعات الهام تكتب فيها ؟**

ـ ان ساعات الالهام لا تتفق مع مواعيـــــد الوزارة ! ولو اقتصرت كتاباتى على ساعات الالهام لما كتبت حتى الآن أكثر من روايتين ٠٠ وأنا لذلك تعودت أن أخزم أنف قريحتى وأجبر نفسى على الكتابة فى أىوقت أريد ٠٠ وعندما أكتب ٠٠ أمسك رزمة من ورق العرائظ وقلم كوبيا ، وأجلس الى مكتبى أكتب ساعتين على الأكثر ٠٠ ثم لا أطيق !

أستريح بعد ذلك ساعة من عذاب الكتابة ٠٠ ثم أقرأ ساعتين ، وأنام ٠٠ وعندما أنتهى من كتابة الرواية ، أعيد كتابتها بالحبر ، وأقدمها للناشر رزمة كبيرة من الورق الأبيض ، مقابل رزمة صغيرة من الورق الأخضر !

● **الكاتب من خـــلال نفسه يرسم أبطاله ويعبرهم أحاسيســـه وانفعالاته ٠٠ وأنت ، هل رسمت قطاعا كاملا لنفسك فى احدى رواياتك ؟**

ـ كمال ٠٠ أحـد أبطال بين القصرين الذى يمثل الجيل الثانى فى الرواية ٠٠ أعطيته من نفسى كل الجانب العقلى فى حياته !٠

● صـورت بعض مظاهر الحرب العالمية الثانيـة في روايتك « خان الخليلي » •• وحرب فلسطين وحـرب السويس متى تصور تأثيرهما في المجتمع المصرى ؟•

ـ لقد استوعبت أحداث حرب فلسطين ، وانفعلت بوثبة الشـعب واتحاد جبهته أثناء العدوان •• ولكنى الآن فى حالة تدبر واستيعاب •• ولا أعرف متى أكتب عنهما أدبا •• لكنى على أى حال لن أعود الى الواقعية مرة أخرى •• قد مللتها •• وفى غمرة مللى أشـعر بتطور غامض فى أعماقى •• وسوف ينتهى هذا التطور حتما بطريقة جـديدة فى الكتابة استعملها عندما أمسك القلم الكوبيا وأوراق العرائظ مرة أخرى !•

● كتاب كثيرون في الغرب لم يكتبوا لطبقتهم •• وأنت في معظم كتاباتك تلتزم طبقتك •• هل لأنك تتذوقها وتعيش فيها أكثر •• أم لقصر الباع ؟!

ـ ان مفهوم الطبقة لم يكن فى ذهنى فى يوم من الأيام وأنا أكتب •• ولكن الكاتب ينتسب عادة الى مجموعة من المجتمع لا يستطيع بحكم صدقه الفنى أن يكتب عن سواها •• فانفعالاته انعكاس لانفعالاتهم •• وتجاربه صورة من تجاربهم • وهم منه وهو منهم ، ولذلك يكتب عنهم !•

● لماذا تخاصم العاميـة •• حتى وأنت تكتب عن الشخصيـات الشعبية ؟•

ـ أنا لا أعترف الا بالفصحى لغة للكتابة •• واللغة العامية ليست لغة قائمة بذاتها •• ان ثلاثة أرباعها فصحى ، والباقى كلمات ايطالية ويونانية وتركية دخيلة ومحرفة •• واللغة العامية من جملة الأعراض التى يعـانى منها الشعب ، والتى سيتخلص منها حتما عندما يرتقى •• وأنا أعتبـر العامية عيبا من عيوب مجتمعنا ، مثل الجهل والفقر والمرض تماما !

والأديب وهو يكتب يجب أن يهدف الى خلق لغة عربية جديدة تأخذ الحى النافع من الفصحى والعامية معا !

وهناك اعتبار سياسى •• وهو أن القومية العربية لا يمكن أن تقوم الا على لغة واحدة •• هى الفصحى بطبيعة الحال •• واستعمال العامية فى نظرى هدم برىء ـ أو غير برىء ـ للقومية العربية !

● أبطال قصصك دائما ينهارون من القمة في نهاية حزينة •• فهـل تتشاءم في حياتك الخاصة بنفس الطريقة التى تلقى بها الظلال السـوداء على أبطالك ؟•

ـ لقد كتبت كل قصصى فى ظل عهود كان التفاؤل فيها يعتبر نوعا من التخدير والرضى بالواقع ·· ونهايات قصصى الحزينة ليس كل ما فيهـا هو الحزن ·· ان فيها حثا على الثورة على أوضاع المجتمع وتغيير نظمه·· قد ينتحر البطل ، ولكن لماذا انتحر ؟!

● فى ثلاثية « بين القصرين » صورت المجتمع المصرى خـلال أسرة واحدة من سنة ١٧ حتى ٤٥ ·· متى تكمل الرواية بالسنوات بعد ٤٥ ؟

ـ أنا فى حالة استيعاب وتدبر ··

● أخشى أن تكون حالة كسل ؟·

ـ كنت قلت لك !·

● لو عملت « بروفة » لحساب الآخرة ، ونصبت لنفسك ميزانا ·· أيهما ترجح : كفة السيئات ؟·

ـ أنا لم أقتل فى حياتى ولم أسرق ولم أرتكب اثما كبيرا ·· وكل آثامى صغيرة وخفيفة على الميزان ·· واذا كانت الحسنة بعشرة أمثالهـا فالميزان قطعا فى صفى !·

● هل تعتقد انك كاتب منتشر ·· ومن هو جمهورك ؟·

ـ الذى أعلمه اننى كاتب فعلا ، لأننى أمارس الـكتابة ·· وأغلب قرائى من العمال وطلبة الجامعة ··

● أين سعادتك ؟!

ـ السعادة وأسبابها فى حياتى كثيرة ·· ان سعادتى فى حيـاتى الأدبية وفى صداقاتى للناس ·· وسعادتى فى فترات النصر التى عشتها فى حياتنا السياسية الطويلة ·· وسعادتى فى مقال نقد ممتع لطه حسين كتبه مرة عن ثلاثية « بين القصرين » !

***



محمد تيمور

على الموت أن ينتظر !

« كنا فى سنة ٢٢ • وكانت كتابة القصة أيامها مثل شم الكوكايين ! شيوخ الأزهر يقولون أن القصة خيال من صنع الشيطان •• والكاتب الذى يملك قلب أسد هو الذى يكتب قصة ويضع فى نهايتها اسمه !

ومن باريس ، كتب الدكتور حسين هيكل قصته الشهيرة « زينب » • ولم يكن يملك قلب أسد ، فأمضاها باسم « مصرى فلاح » ! وعندما عاد الدكتــور هيكل من باريس استقبله الأدباء استقبال الغزاة •• لقــد كان أول من تسلل عبر الأسلاك الشائكة ووضع فى الحقل المجــــدب بذرة القصة ! »

عندما أمسك قلمه ليكتب أول قصة في حياته ، لم تكن أمعاؤه تشكو الجوع ٠٠ كان يجد ما يأكله ، ولذلك لم يكتب ليأكل !٠

وظل ٣٧ سنة يكتب القصة القصيرة ويحـــاول أن يكتب الرواية الطويلة ، ودور النشر تنشر ما يكتبه وتبيعـــه وتقبض الثمن ٠٠ أما هو فكان يكتفي بالسعادة تملؤه وهو يحس أنه يجد لنفسه دورا يؤديه فى الدنيا الواسعة !٠ ومن سنوات قليـــلة ، خجلت دور النشر التى تنشر قصصه ، فأعطته في سبع سنوات عدة شـيكات يبلغ مجموعها ٧ آلاف جنيه ، ومدت مصلحة الضرائب يدها فالتقطت ألف جنيـــه ، وتركت له الباقي !٠

لقد رسم لنفسه برنامجا أدبيا طويلا يريد أن يكمله بأى ثمن ٠٠ ولو دفع الثمن من جيبه ٠٠ قال لى : « ان عمـــرى الآن ٧٢ عاما ٠٠ وأملى أن أعيش ١٨ سنة أخرى على الأقل لأكمل برنامجي الأدبى ٠ وعلى الموت أن ينتظر فلا سبيل الى لقائه الآن ! »

وبدأ محمود تيمور يحكي لى حياته ٠٠ قال :

● ولدت وأنا أحمل على كتفى ضعفى ٠٠ وعندما بلغت السابعـــة خاصمتنى الصحة ، وخضت مع أمراض الدنيـا حربا استغرقت سنوات عمرى ! كنت أشفى من الزلال ، فأمرض بالأنيميا ! وعندما انتصرت على الأنيميا وقعت فريســـة واهنة لمرض التيفود !٠ ثم كبـــرت وتحسس الأطباء كبدى فقالوا انه كسلان لا يعمل ٠٠ ونقروا بأصابعهم على أمعائى وقالوا انهـا لا ترد ! ولم أهجع أبدا ٠٠ حللت افرازات كل الغـدد التى تعمل فى جسدى .وكشفت على كبدى وأمعائى بأشعة لا يراها أحد .. سكنت فى مصحات أوربا معظم حيـاتى .. وترددت على ينابيع المياه المعدنية فى فيشي وكارلسباد وبلومبير وتارسب .

ثم ذهبت الى طبيب سويسرى فى العام الماضى فتحسس كبدى مرة أخرى وقال انه كسلان لا يعمل .. ونقر بأصابعه على أمعائى وقال انها لا ترد ! وقررت أن أترك الطب للأطباء ، وأن أكون طبيب نفسى !

● أبى أحمـد «باشا» تيمور .. لم يشـغل فى حياته منصبا فى الدولة ٠٠ كانت مهمته أن يقرأ ويجمع ريع أطيانه ٠٠ وعندما مات ترك وراءه مكتبة تضم ٢٠ الف كتاب فيها بلايين لاتعد من السطور .. أهدينا المكتبة بعد وفاته لدار الـكتب فرد علينـا مدير الدار بخطاب شـكر من ٣ سطور !

● ولدت فى ١٦ يونيه سنة ١٨٩٤ ٠ كنا نسكن فى « درب سعادة » خلف محافظة مصر ٠ فتحت عينى فى طفولتى على مسرح الشيخ سـلامة

حجازى .. كونت من أطفال الحارة فرقة تمثيل .. أجمل المسرحيات كنا نمثلها فى حوش البيت . قدمنا مرة مسرحية «أبو الحسن المغفل» . والمسرحية كان الشيخ سلامة قد عربها عن قصة فرنسية اسمها « لو كنت ملكا » .. وتدور حول صعلوك يهزأ من الملك ويقول انه لو كان مكانه لعدل بين الناس .. وينام الصعلوك فيسرقه الحراس ويضعون فوق جسده زى الملك ، ويستيقظ الصعلوك ليجد نفسه ملكا !

وكنت أمثل دور « أبو الحسن .. المغفل » .. أو الملك الصعلوك !

● انتقلنا الى ضاحية « عين شمس » .. لم تكن عين شمس تضم اكثر من ١٠ بيوت من بينها بيتنا ، وبيت الشيخ محمد عبده ، وبيت « مستر بلنت » الانجليزى الذى دافع عن عرابى أثناء محاكمته ، وألف كتابا عن « تاريخ الاحتلال البريطانى » !

هجرت التمثيل ، وكونت فرقة لكرة القدم أطلقت عليها اسم « فرقة غزلان عين شمس » .. كنا ندعو فرقة محطة الدمرداش ، وفرقة كوبرى القبة ، وفرقا أخرى كثيرة ، وكنا نهزمهم دائما ثم نوزع عليهم أكواب الشربات فى « آخر الماتش » .. وكان الامام محمد عبده يرقبنا أحيانا من شباك بيته .. أما مستر بلنت فكان يرجونا أن نؤجل المباراة اذا وافق ميعادها ميعاد نومه وقت الظهر !

● دخلت مدرسة الناصرية الابتدائية .. كان فى المدرسة مدرس عربى يحفظنا القرآن الكريم ويضرب من لا يحفظ بالمسطرة على رأسه . وكنت أتألم ومسطرته تهوى على رأسى .. ولم أكن أستطيع أن أمنعه ، أو ان أحفظ القرآن الكريم . !

وعندما كبرت قررت أن انتقم من مدرس العربى ، فكتبت قصة « مسطرة مبروك أفندى » . وصورت فى القصة مدرس لغة عربية يحفظ التلاميذ القرآن الكريم ويضربهم على رؤوسهم عندما تهرب منهم ذاكرتهم .. وفى مرة لمح قلم حبر مع أحد التلاميذ فتوقفت المسطرة فى يده ، ومد يده الأخرى ليأخذ القلم من جيب التلميذ وقال له : آذهب . سامحتك هذه المرة !

● مرضت بالزلال وبالكبد .. وضاعف أبى عنايته بى وأسرف فى تدليلى ، فقد كنت أصغر اخوتى ! كنت أخرج لألعب مع الصبية طول النهار ثم أعود ليربت أبى على كتفى ويطلب منى ان أنام لأريح جسدى . وكنت أرسب السنة بعد السنة ، فلا اجد على فم أبى غير ابتسامة حنان ! وعانيت من تدليل أبى عقدا كثيرة .. فقد أمضيت صباى كله مثل كتلة هلامية بلا شخصية .. وعندما كبرت وجدت نفسى وجها لوجه

امام الحياة وانا أعزل من السلاح .. وأمضيت حياتى كلها اسلح نفسى وابنى شخصيتى .

حصلت على الابتدائية .. بعد سبع سنوات !

***

● دخلت مدرسة الالهامية الثانوية سنة ١٣ .. كنت قد بدأت أواجه نفسى وابنى شخصيتى ، فحصلت على شهادة « الكفاءة » بعد سنتين .. ثم سقطت مريضا بالأنيميا الحادة .. انقطعت عن الدراسة وجاءنى مدرسون خصوصيون فوضعوا فى رأسى علوم المرحلة الثانوية ، وتقدمت للبكالوريا من المنزل فحصلت عليها .

● شفيت من بعض مرضى ، وحملت ما تبقى منه ودخلت مدرسة الزراعة العليا .. مكثت فيها ٦ شهور ، وأمضيت بقية العام طريح الفراش وأنا أهذى من حمى التيفود ! قررت أن أقطع دراستى نهائيا ، وأن أبدأ برنامجا أدبيا طويلا لأثقف نفسى وأمارس دورى فى الحياة .. وجلست فى البيت .. جاء المستر «جونسون» الانجليزى ليقرأ لى تاريخ الأدب الانجليزى وأشعار «ميلتون» و «بيرون» ومسرحيات «شكسبير» . والمسيو «ميلون» الفرنسى جاء أيضا ليقرأ معى روايات موليير ، راسين ، كورنل . وجاء الأستاذ حامد عوض ليقرأ لى نصوصا أدبية كثيرة ، ويغرق معى فى «معلقات» الشعر القديم .

ثم دخلت مكتبة أبى ، وقرأت فيها روايات «كليلة ودمنة» و « ألف ليلة » و «حديث عيسى بن هشام» للمويلحى ، و «مقدمة ابن خلدون» . واحسست برأسى يميل على صدرى من ثقل المعرفة !

● عاد اخى محمد تيمور من أوروبا .. كان يدرس القانون فى جامعة «السوربون» ورجع وفى رأسه ثقافة أوروبا الحديثة ، وباقات من الأفكار الجديدة فى الأدب والمسرح . وسألته عن القانون ، فقال انهم رفضوا أن يمنحوه شهادة فيه !

ووجهنى اخى الى قراءة الأدب الفرنسى الحديث ، فقرأت معظم انتاج «جى دى موباسان » و «فلوبير» و «بلزاك» و «اميل زولا» . أمسكت قلمى لأكتب أول قصة فى حياتى .. كتبت قصة «جمال المنزل» ونشرتها فى جريدة «السفور» .. ثم كتبت بعدها قصص «الشيخ جمعة» .. ومقطوعات من الشعر المنثور .

● كنا فى سنة ٢٢ وكانت كتابة القصة أيامها مثل شم الكوكايين !. شيوخ الأزهر يقولون ان القصة خيال من صنع الشيطان .. والكاتب

الجرىء الذى يملك قلب أسد هو الذى يكتب قصة ويضع فى نهايتها اسمه !٠٠ ومن باريس كتب الدكتور حسين هيكل قصة « زينب » ٠ ولم يكن يملك قلب أسد .. فأمضاها باسم «مصرى فلاح» ! وعندما عاد الدكتور هيكل من باريس استقبله الأدباء استقبال الغزاة .. لقد كان أول من تسلل عبر الأسلاك الشائكة ووضع فى الحقل الجدب بذرة القصة .. وشددت على يد البطل الغازى ، وقلت له : أنت أستاذى .. وانطلقت أكتب القصة بشراهة وأغرس بجوار هيكل أكواما اخرى من البذور !

● كتبت حتى الآن ١٥ مجموعة من القصص القصيرة ، أولها مجموعة «الشيخ جمعة» ، وخمس روايات طويلة ، أولها «نداء المجهول» و ١٥ قصة تمثيلية و٣ مسرحيات .

● تزوجت سنة ٢١ .. لى بنتان ، وكان لى ولد اسمه سعيد .. لكنه مات وعمره ٢٠ عاما . زار معى سويسرا وفرنسا وايطاليا والنمسا وكانت امنيته أن يرى امريكا ، وسافرت الى امريكا بعد وفاته ، وعدت لأصف له رحلتى فى كتابى « أبو الهول يطير » وأهديت الى روحه الكتاب ٠

ترجمت لى قصص كثيرة الى الروسية ، ونشرت دار « نوفيل اديسيون لاتين» فى باريس مجموعات من قصصى ٠

● حصلت فى حياتى على ٣ جوائز ادبية : جائزة المجمع اللغوى سنة ٥٠ وجائزة « أحسن كتاب شرقى » الفرنسية سنة ٥١ ، وجائزة الدولة الأدبية التى اقتسمتها مع توفيق الحكيم سنة ٥٢ ٠

● اشتغلت فى الحكومة سنة واحدة عام ٢٧ .. أشار على أقاربى أن اعمل فقد كنت فى نظرهم عاطلا ! اشتغلت فى قلم الترجمة بوزارة الحقانية ٠٠ ثم فى قسم السكرتارية بوزارة الخارجية ، ولم أطق أن أجلس مع الروتين الحكومى على مكتب واحد ٠٠ فاستقلت !

ومن سنوات اختارنى المجمع اللغوى عضوا فيه .. وأعمل الآن مقررا للجنة « الفاظ الحضارة » مهمتى أن ألتقط الكلمات المعربة من الصحف ومن أفواه الناس ، الصحيح منها أبقى عليه ، والخاطىء أصححه ثم أقدم محصولى من الكلمات الى اعضاء المجمع ليقرروه ويضيفوه الى قاموس اللغة !

● أصبحت الآن طبيب نفسى أعرف عن الأجهزة التى تعمل فى جسدى أكثر مما يعرف طبيب اخصائى .. وأنا لا أزور الأطباء الآن الا اذا كان الطبيب صديقى ٠٠ أزوره زيارة شخصية لأسأله عن صحته

قلت للأديب الذى لم يكتب ليأكل :

● أحك لى : كيف تكتب قصصك .. مرحلة مرحلة ؟.

ـ اننى أتمتع بوجدان حساس .. وقراءاتى ومشاهداتى اليومية تثير فى نفسى صورا وأفكارا لا تلبث أن تتبلور فى شكل ما أسارع بكتابته فى صورة مهوشة .. ثم أضع ما أكتبه فى ظرف وأركنه .. وأحيانا يستبد بى الموضوع فأكتبه فى مذكرات منظمة نوعا ثم أضعها فى ظرف وأركنه أيضا .

وأعود مرة أخرى الى هذه الظروف ، أخرج ما فيها وأعيش فى جوه وأرتب الأحداث التى فيه ، ثم أكتب القصة بالقلم الرصاص فى مسودة .. أراجع هذه المسودة بعد ذلك وادخل عليها بعض التحسينات والتعديلات والتأنق فى الألفاظ ، ثم أبيض المسودة وأرسلها الى المطبعة رأسا !

فأنا أكتب على أربع مراحل : مرحلة كتابة المذكرات المهوشة .. مرحلة كتابة المسودة .. مرحلة تعديل المسودة وتحسينها وصقل أسلوبها .. ثم المرحلة النهائية .. مرحلة التبييض !

وأنا أطبع مؤلفاتى اما فى دار المعارف ، أو مكتبة الآداب ، أو دار الهلال .

● فى رؤياك : ما هو أعظم اكتشاف اكتشفته الانسانية ؟

ـ أنه بلا شك اللغة .. فالعالم كله كان ضياعا قبل اكتشاف اللغة وعندما اكتشفت اللغة استطاع الانسان أن يترجم نفسه وأن يخلق حضاراته ومدنياته ! ان اكتشاف اللغة أهم من اكتشاف الذرة !

● من دون أدباء العالم ، لماذا لم تعرج جائزة ((نوبل)) على الأدباء المصريين .. أليس هذا دليلا على ان الأدب المصرى لم يقف على قدمه حتى الآن بين آداب العالم ؟

ـ ان الأدب المصرى لم يبلغ بعد مرتبة الآداب العالمية .. ومع ذلك عندنا من الأدباء من يستحق جائزة نوبل .. وأنا أعلم ان الأديب الفرنسى « اندريه جيد » رشح الدكتور طه حسين لجائزة نوبل منذ سنوات ، وما زال اسم الدكتور طه مدرجا فى كشف المرشحين للجائزة !

● أنت .. أديب أى طبقة ؟

ـ اننى أديب كل الطبقات .. صحيح اننى من طبقة الارستقراط ، ولكننى لم أكتب لطبقتى أكثر مما كتبت للطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة ..

● لكل أديب شخصيته وخصائص أدبه .. فما هى خصائص أدب احسان عبد القدوس ، نجيب محفوظ ، يوسف السباعى ، يحيى حقى ؟

احسان عبد القدوس : يجيد الكتابة فى الحب ومواقف الجنس ، وكتاباته واقعية تصور أهم جانب من جوانب الحياة الانسانية .

نجيب محفوظ : أعمق من اعتنى بالتحليل فى قصصه بين الأدباء ، ويمتاز بصدق التعبير والبراعة فى ترجمة الاحساس النفسى .

يوسف السباعى : يمتاز بطرافة شخصيات رواياته ، وهو انسان لطيف !

يحيى حقى : أستاذ مخضرم فى فن القصة ، تجاربه ناضجة وتنعكس على فنه ..

● لا أحـــد ينازع فى أن الصراع بين الخير والشر لازم لاســـتمرار الحيـــاة .. ولكن ألا تلاحظ ان الصراع بلغ قمة العنف فى عصرنا .. وان دم الخطايا غطى أظافر البشرية .. وأن البشرية تتعذب أكثر مما كانت فى الماضى القريب .. منذ قرن مثلا ؟

ـ لقد بدأت البشرية تتعـــذب منذ «عصر النهضة» .. منذ عرف الانسان المبادىء الأولى للمكتشفات الحديثة . فمن هذه اللحظة اتسعت اهتمامات الانسان وأصبحت أطماع الدول بلا أغوار ، وتطورت أسلحة الصراع بين بنى البشر .

ان عصرنا عصر الاضطراب والتطور فى كل نواحي الحياة .. انه عصر الثورات الاجتماعية والمخترعات العلمية البـــاهرة .. وهو عصر يلهث فى سباق مع الزمن . تستطيع أن تجد فيــه كل ما تتوقع وكل ما لا تتوقع .. ولــكنك لا تستطيع ان تجد فيــه الشىء الحاسم الذى تضع يدك عليه لبرهة دون ان يتغير !

وقد امتدت روح العصر الى الصراع بين الخير والشر .

● حدثنى عن ثروتك اللغوية .. عن رصيدك منها ؟

ـ رصيدى منها مستور .. ومع اننى أمضيت عمرى أقرأ ، ورغم اننى عضو فى «المجتمع اللغوى» ، الا أننى أعتبر نفسى دائما تلميذا مبتدئا

احاول ما استطعت ان أزيد من ثروتى اللغوية ، وأقتطف مايعجبنى فى قراءاتى وأستوعبه ، أو أكتبه فى مذكرات أحتفظ بها ٠

● كم كسبت من صناعة الأدب ؟

ـ ليس أكثر من ٧ آلاف جنيه كسبتها فى السنوات السبع الأخيرة وقد دفعت منها حوالى ألف جنيه ضرائب ٠ أما فى السنوات الثلاثين قبل ذلك ، فلم أكن أتقاضى أجرا ٠٠ كنت أكتب للصحف والمجلات بالمجان .. وكانت الاذاعة الأهلية ومن بعدها الاذاعة الحكومية تذيع قصصى دون ان تدفع لى شيئا ، أو بالأصح دون ان اطالبها بشىء !

وأنا الآن اتقاضى ٢٠ جنيها عن المقال ، وما بين ٢٠ و٣٠ جنيها عن القصة القصيرة ٠ أما القصة الطويلة فأبيعها ب ١٥٠ جنيها ٠٠ وأحيانا اكثر .. !

وأنا لم أكتب فى حياتى لكى آكل مما أكتب ٠ وسوق الأدب فى مصر لا تؤكل أحدا عيشا ٠٠ الا أصحاب دور النشر !٠

● لكل أديب كنز خاص يجد فيه مادة الكتابة ٠٠ قد يكون تجاربه وقد يكون مشاهداته ، أو قراءاته ، أو حدة خياله ٠٠ وأنت أين كنزك ؟

ـ ان كنزى فى تجاربى ومشاهداتى .. ولى منهج خاص فى جمع مشاهداتى ، فأنا لا أتعمد أن أشاهد أو أجرد لنفسى ما أشاهد لأكون بسرعة مواقف قصصية خاصة .. كل الذى يحدث هو اننى أشاهد بلا وعى وبلا تعمد وبلا نية دراسة .. وعندما أسترجع مشاهداتى دفعة واحدة أجدها ـ مع خيالى ـ تتدفق على كالشلال !

ومشاهداتى وتجاربى فى مصر أكثر نضوجا ووضوحا من تجاربى ومشاهداتى فى الخارج ٠ فأنا فى الخارج يملؤنى شعور بالغربة ويلتهب خيالى بالحنين الى ارض الوطن ، فلا يستوعب بعد ذلك شيئا !

● قلت لى ان لك برنامجا أدبيا تريد ان تكمله قبل ان تموت ٠٠ فما هى تفاصيل هذا البرنامج ؟

وأخرج محمود تيمور صندوقا من الورق المقوى مليئا بالظروف ومكتوبا عليه « خاص بالتأليف والاعداد » .. وقال :

ـ كل ما فى هذه الظروف .. انها مسودات لروايات وتمثيليات وقصص قصيرة أريد أن أكتبها كلها ، ولا أظن أننى سأفرغ منها قبل سن الثمانين ٠ وعلى الموت أن ينتظر فلا سبيل للقائه الآن !

***



عبد الرحمن الرافعي

... كلهم مستعمرون !

« ... وأصبحت وزيرا للتموين ، وفوجئت بفيض من احترام الناس ينهـــال على رأسى .. الذين كانوا لا يعرفوننى حاولوا أن يعرفونى ! والذين كانت تربطنى بهم عداوة أرســـلوا الى يهنئوننى بالوزارة .. أو بتعبير برقياتهم : يهنئون الوزارة بى !

ولم أحس اننى فعلت شيئا يبهر الناس فى حياتى مثلما أحسست عندما أصبحت وزيرا !

... وقد حز ذلك فى نفسى ! »

أحببت التاريخ منذ صباى .. كان أحب الناس لى أمى ، وماتت أمى ، فحولت طاقة حبى وولهى الى التـاريخ .. فقد عشت مع أمى أربع سنوات فقط ، أما التاريخ فقد عشت معه ٧٤ عاما ! وأنا أعتـــبر التاريخ مدرسة .. فصولها الأحداث ، والمــادة الأساسية التى تشغل خانات جدول الحصص فيها : تقويم الأخلاق .. أما ناظر المدرسة فهو المؤرخ نفسه !

وقد وعيت ثلاثة أرباع قرن من حياتى اكتشفت فيها ان وطنيتنا فى فـترات كثيرة كانت محل شك وجدل .. ومجتمعنا كان مفتتـا كقطع آلة مفككة .. وكانت ثقافتنا عديمة اللون والاصالة والاتجاه .. وأخلاقنا تحترق بنار الضياع والانحلال !

ووجدت فى التاريخ علاجا لـكل هذه النقائص .. أردت أن أجعل منه مدرسة يدرس فيها أساتذة ماتوا عبر المـاضى للأجيال التى تعيش واخترت لنفسى وظيفة ناظر المدرسة !

ولكن اقبـــال المثقفين فى هذا البلد على القراءة الرفيعـة ـ وفى قمتها التاريخ ـ كان واهنـــا وضعيفا .. وأنا أعترف أن كتبى مرت بفترة طويلة من الـكساد والبوار .. كانت الحسرة تفرى قلبى وأنا أنتج ولا أحد يقرأ انتاجى !

لقد ألفت فى حياتى ٢٠ كتابا ، كان أولها كتاب «حقوق الشعب» الذى ألفته سنة ١٢ ، وآخرها كتاب « مقـدمات ثورة ٢٣ يوليو » .. ولولا حبل طويل من الصبر تمسكت به لأعلنت التوبة عن كتابة التاريخ بعد أن ألفت « عصر محمد على » .. كتابى الثالث .. وقد ظلت كتبى ٣١ عاما بلا قراءة .. كنت أطبعها وأوزع بعضهـا هدايا على الزعماء ، واحتفظ بالباقى اقرأه وحدى !

وقامت الحرب العالمية الثانية . ويبدو أن أزيز الرصاص وفرقعة القنابل فتحت الأذهان لمركز مصر التـــاريخى .. فالقراء انهـالوا على مؤلفاتى يطلبونهــا ويقرأونها .. وأساتذة التاريخ فى المدارس رددوا اسمى أمام طلبتهم وهم يتحدثون عن الجبرتى .

وجاءت اللحظـة التى انتظرتهـــا ٣١ عاما .. طلبت منى مكتبـة « النهضة المصرية » سنة ٤٣ أن تطبع كل مؤلفاتى مقابل أجر مغر يزيد على ١٠٠٠ جنيه !

واســتطرد عبد الرحمن عبـد اللطيف الرافعى « جبرتى » مصر المعاصر يتكلم ، أمضى حيـــاته يؤرخ التاريخ للناس ، وكان يحاول هــذه المرة أن يجمع شتات ذهنه ليؤرخ لى حياته !.. قال :

● أنا من القرن الماضي .. فقد رأيت الدنيا في ٨ فبراير سنة ١٨٨٩ ، ولدتني أمي « حميدة محمود رضوان » في بيت قديم بعطفة أبو داود في شارع درب الحصر بقسم الخليفة !

وأبي الشيخ عبد اللطيف الرافعي يتسلسل نسبه الى عمر بن الخطاب وكان عالما من علماء الأزهر ، وآخر منصب شغله في حياته منصب مفتي الاسكندرية ..

● أول أزمة واجهتها في حياتي سنة ١٩٠٤ عندما نجحت في البكالوريا .. ذهبت الى أبي أحمل اليه خبر نجاحي وقلت له انني سألتحق بمدرسة الحقوق الخديوية .. ولم يفرح أبي بنجاحي بقدر ما اربد وجهه على الفور .. وهوى بيده على خدي في صفعة قاسية طارت لها من عيني شرارات مختلفة الألوان ، وقال : « عاوز تطلع قاضي اهلي تحكم بغير الشرع ؟ ! »

وسقت عليه أقاربي حتى أقنعوه بأن أدخل مدرسة الحقوق .. بشرط أن التحق بالجامعة الأزهرية بعد أن أحصل على الليسانس .!

● كانت مدرسة الحقوق في مبنى حرس « قصر عابدين » الذي تشغله الآن المباحث الجنائية العسكرية . وكانت بجوار المدرسة قهوة « بارت » فسماها صاحبها الخواجا أندريا « قهوة الحقوق » . ونجحت فكرته ، فقد اتخذنا منها ناديا نجتمع فيه لنقرأ الصحف ، ونتبعثر على موائدها في شلل ، كل شلة تتناقش في السياسة ، وتصرخ بصوت مرتفع كأننا في سوق . !

وفي قهوة أندريا تذوقت السياسة ، واتخذت لنفسي اتجاها فيها ! . كنت أقرأ جريدة « اللواء » التي يحررها مصطفى كامل . وكنت أحس بالرهبة وأنا ألتهم سطور مقالات الزعيم الشاب .. وقررت أن أتتلمذ على يديه . وعندما قابلته لأول مرة في دار اللواء ، وكنت قد أرسلت اليها مقالا فنشرته ، بذلت جهدا شديدا لأمنع نفسي من أن أرتبك .. وقلت له جملة واحدة : « انك زعيم مصر .. وأستاذي » . وربت مصطفى كامل على كتفي وقال :

« وأنت كاتب متفتح يتمتع بموهبة الكتابة . وسوف ارسلك بعد أن تتخرج في بعثة صحفية الى باريس » :

ولم يمتد به الأجل ليحقق وعده .. فقد توفي في ٨ فبراير سنة ١٩٠٨ ، قبل أن أحصل على الليسانس بشهور !

***

● كنا ندرس القانون ٠٠ وكان الانجليز ينصبون المشانق فى دنشواى ! وجاءوا بقضاتهم وعلى أقفيتهم شعر مستعار ليقولوا كلمة القـــانون فى جريمة لم يرتكبها أحد !٠ وكنا نسمع أخبار التحقيق والمحاكمة ونحاول أن نطبق عليها قواعد « قانون تحقيق الجنايات » الذى ندرسه فنشعر بغصة فى حلوقنا ، وبقدسية القانون تراق أمام عيوننا . ولم يكن أحد يجرؤ على الكلام .. حتى أساتذة القانون الذين يزرعون العدالة فى أذهاننا كانوا يهمسون لنا : ان القانون شيء ٠٠ والاستعمار شيء آخر !٠

● مات مصطفى كامل وتولى محمد فريد شئون التحرير فى جريدة « اللواء » ٠ ونجحت فى ليسانس الحقوق فى يونيه ١٩٠٨ ، وكان بين دفعتى احمد ماهر وعبد الحميد بدوى . ولما علم محمد فريد بنجاحى استدعانى وعرض على أن أكتب فى « اللواء » . وكنت أرى فى شخصية محمد فريد ظلا لشخصية مصطفى كامل ، فقررت أن أتتلمذ على يديه وأن يكون أستاذى !

وكتبت أول مقال لى ومازلت أذكر عنوانه .. كان « تبدد الشعور الوطنى وتجمعه » ٠ وكنت أصـــور فيه المشـاعر الوطنية بعد مذبحة دنشواى .

وكان الشيء النادر فى الصحافة المصرية فى هذه الفترة هو المقال المسلسل . الكتاب المشهورون أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد . كانوا يعبرون عن أفكارهم فى مقالة واحدة .. اما أنا فكنت أجد فى ذلك صعوبة كبيرة ٠٠ كانت أفكارى أكبر من أن تضمها مقالة واحدة ٠٠ ولذلك كتبت لأول مرة المقالات المسلسلة فى الموضوع الواحد !

وأذكر أطول سلسلة من المقالات كتبتها فى ذلك الحين . كنت أرد على تقرير المعتمد البريطانى السير « آلدون جورست » عن الحركة الوطنية فى البلاد .. واستغرقت السلسلة ١٩ مقالا ، حللت فيها الحركة الوطنية وموقف الاحتلال والحكومة ازاءها ٠٠ وكانت الفرحة تهزنى وأنا أسمع الناس يناقشون مقالاتى فى الطريق وعلى المقاهى .. والوفود من طلبة الأزهر يفدون على دار اللواء يسألون عن عبد الرحمن الرافعى ليناقشوه فى المقالة رقم ٨ أو رقم ١٧ !

●لم أحس بالاطمئنان لحظة واحدة على مستقبلى فى الصحافة .. فمرتبات الصحفيين فى ذلك الحين كانت متواضعة للغاية . والصحف كانت تظهر ثم تحتجب بشكل غامض لا يوحى بالاستقرار ٠٠ وأشار على صديقى أحمد وجدى وكان رئيس تحرير جريدة « الدستور » أن نترك الصحافة ونشتغل بالمحاماة .. ولم أتردد . وفتحنا مكتبا فى الزقازيق

ومكتبا آخر فى المنصورة ٠٠ ووجدت لساني ينطلق ببراعة أمام القضاة ، والنقود يدفعها لى أصحاب القضايا بعطاء ٠٠ وقررت أن أكون محاميا للنهاية . !

***

● لم ينقطع حبل الوصال بينى وبين محمد فريد ، وبقيت معه فى الحزب الوطنى .. ومرة فى سبتمبر سنة ١١ ، سافرت معه الى روما لحضور « مؤتمر السلام » ٠٠ زرنا ايطاليا وفرنسا وألمانيا والنمسا ٠٠ وانفعلت وأنا فى الغربة بجيش من الخواطر الوطنية سجلتها فى مقالات كنت أرسلها من الخارج الى جريدة « العلم » ٠

● نفى الانجليز محمد فريد الى سويسرا .. ومن جنيف كان يكتب لى محمد فريد لأوافيه بأعداد الصحف وأخبار الحركة الوطنية ٠٠ وكان محمد فريد يمضى شهور الشتاء فى الآستانة .. وكتب لى ذات صيف فى نهاية أحد رسائله يقول : « أتعشم أن نلتقى هذا الشتاء فى الآستانة » وقررت أن أسافر فى الشتاء الى تركيا لألتقى بأستاذى . ولكن قبل أن يأتى الشتاء فى نوفمبر سنة ١٩ ٠ مات محمد فريد فى منفاه !

● كنت فى شبابى أميل الى العنف فى الجهاد ٠ وأصبحت الآن أفضل التطور فى النهضة بالشعوب ، فهو طريق عاقل يؤدى الى نتائج مضمونة . !

ولكن عندما يقف العنف مع الوطنية على قمة واحدة .. فان هذا بلا شك شىء رائع .

وفى ثورة ١٩ ، كان العنف يقف مع الوطنية على نفس القمة . وكأنهما لوحة واحدة ممتزجة الألوان ملؤها نار العنف ونور الوطنية ٠٠

كان رصاص الانجليز يخترق صدور الشعب والجباه ٠ والدم يغطى الشوارع والأرصفة كأنما ذبحت فى كل شبر شاه . ! وكانوا جميعا يهتفون : نموت ويحيا الوطن ٠٠ اذا سقط حامل العلم فى المظاهرة ، هرع من يحمل عنه العلم وهو يهتف : نموت ويحيا الوطن .. وعندما كانوا يقبضون على بعض الطلبة يذهب الباقون الى قسم البوليس ويصرخون فى وجه الكونستابل الانجليزى : اقبض علينا .. فكلنا نموت ويحيا الوطن ! حتى الجرحى لم تكن تشغلهم جراحهم ٠٠ كانت تنطلق بهم عربات الاسعاف وسط الجماهير فيرفعون ستائر العربة ويهتفون بلا اعياء : نموت ويحيا الوطن ٠٠!

كانوا يضمون العنف مع الوطنية فوق قمة واحدة تطل على التاريخ .!

● اعلن الدستور في ١٩ ابريل سنة ٢٣ . وفي ٣٠ أبريل من نفس السنة أجريت أول انتخابات تشهدها البلاد . ورشحت نفسي فيها عن مركز المنصورة . وفزت بصوت واحد فقط ، فقد نلت ١٧١ صوتا بينما أحرز منافسي « على عبد الرازق » ١٧٠ صوتا .

وحلت برلمانات وانعقدت برلمانات . وطوال ٢٨ عاما كنت أجد لنفسي مقعدا أجلس عليه تحت القبة المقدسة .. حتى كانت انتخابات « التجديد النصفي » لمجلس الشيوخ سنة ٥١ . عندما حاربتني الحكومة فأعلنت اضرابي عن خوض معركة الانتخابات ! .

● رفضت أن أدخل وزارة حسين سري سنة ٤٠ ، واعتذرت عن الوزارة كما اعتذر في العادة عن حضور حفلة شاي !. ودعاني حسين سري مرة أخرى في سنة ٤٩ لأشترك في الوزارة وقال لي : أظن لن تعتذر هذه المرة .. قلت : اريد أن أعرف أولا موقف « دولتكم » من معاهدة ٣٦ ؟. قال : انني أعتبرها غير قائمة !. قلت : اذن فأنا أوافق على الاشتراك في الوزارة !.

وأصبحت وزيرا للتموين . وفوجئت بفيض من احترام الناس ينهال على رأسي .. الذين كانوا لا يعرفونني حاولوا أن يعرفوني . والذين كانت تربطني بهم عداوة أرسلوا الي يهنئونني بالوزارة .. أو على حد تعبير برقياتهم : يهنئون الوزارة بي . !

ولم أحس أنني فعلت شيئا يبهر الناس في حياتي مثلما أحسست عندما أصبحت وزيرا .. وقد حز ذلك في نفسي . !

***

سألت جبرتي مصر المعاصر :

● من هم أبطال التاريخ .. وهل تعتبر نفسك المؤرخ المعاصر الوحيد .

ـ ان أبطال التاريخ دائما هم الشعب والأشخاص والأحداث . وأنا لا اعتبر نفسي المؤرخ الوحيد فهناك كثيرون غيري حملوا معي ريشة التاريخ .. اذكر منهم : أحمد شفيق « باشا » . شفيق غربال . والدكتور محمد صبري .

● في الصحف يرسمون التاريخ في صورة رجل اشيب يحمل ريشة وكتابا .. وأنت كيف تتصور التاريخ ؟ .

ـ « بايخة » جدا هذه الصورة التي يرسمونها . ! وأنا أفضل عليها صورة الوطن وهو يعد على أبنائه أعمالهم السارة والضارة . !

● وكيف يرسمون الوطن بهذه الصورة الميكانيكية ؟ !

ـ لا أعرف بالضبط .. وأنا لست رساما . !

● بعض المؤرخين يكتفي بتتبع الأحداث السياسية . وبعضهم يعنى بالتطورات الاجتماعية والاقتصادية .. فما هي عناصر التاريخ الكامل ؟ .

ـ التاريخ الكامل يشمل النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. فالسياسية ترتبط بالاقتصاد . والاقتصاد يرتبط بالمجتمع . وهي لذلك حلقات متكاملة لا يجوز لمؤرخ أن يغفل احداها .

وأنا في كتبي العشرين كنت لا أغفل ناحية منها . وأجتهد في ربطها ببعض في سلسلة متصلة ومتفاعلة .. وأنا أؤرخ هذه الأيام تاريخ الثورة . وبجانب الناحية السياسية أحاول ان أتتبع مظاهر التطور الاقتصادي والاجتماعي بعد ٢٣ يوليو .

● أرخت خمس ثورات .. ثورة عمر مكرم ضد الفرنسيين ، وثورة عرابي ، وثورة مصر ضد الاحتلال البريطاني سنة ١٨٩٠ ، وثورة ١٩١٩ ، وأخيرا ثورة ٢٣ يوليو .. فهل تلمح أوجه شبه بين الثورات الخمس .. وما هي أوجه الاختلاف ؟ .

ـ ان وجه الشبه الوحيد الذي يربط بين الثورات الخمس هو أنها كانت موجهة ضد الاستعمار من أجل استخلاص حقوق الشعب في السيادة والاستقلال . وهناك وجهان للاختلاف :

١ ـ كانت ثورة عمر مكرم وثورة مصر ضد الاحتلال البريطاني وثورة ١٩ ، كلها من جانب الشعب فقط .. بينما كانت ثورة عرابي وثورة ٢٣ يوليو من الجيش والشعب معا ..

٢ ـ لم تنجح في تحقيق الأهداف التي قامت من اجلها ـ وهي السيادة والاستقلال ـ سوى ثورة واحدة .. هي ثورة ٢٣ يوليو .

● ما هي الكارثة التاريخية التي كان يمكن تلافيها ؟ .

ـ هي بلا شك الانقسام الحزبي في حياة سعد زغلول . وقد عاصرت هذا الانقسام . وشهدت الحزب يلد حزبا حتى امتلأت مصر بالأحزاب . وبدأ الصراع الحزبي الذي استنفد كل القوى الوطنية في السنوات الثلاثين قبل ثورة ٢٣ يوليو .

وأيت حزب « الأحرار الدستوريين » ينشق عن حزب الوفد . ورأيت

احمد ماهر يستقطع منه حزبا آخر أسماه حـــزب « السعديين » . ومكرم عبيد يقتطع لنفسه حزب « الكتلة » . !

وكان في يد سعد زغلول أن يتلافى هذه الكارثة من أولها .. ولكنه لأسباب يجهلها التاريخ ، لم يفعل . !

● يقولون « لا يوجد خطأ لا يمكن تبريره » .. فما هو الخطأ الذى لا يمكن تبريره فى نظر التاريخ ؟.

ـ أخطاء كثيرة ارتكبها زعماء وأفراد عاديون .. والتـــــاريخ ملىء بالخطائين ، فابحث عنهم فى كتبى العشرين . !

● سمعت أكثر الأزهريين يهاجونك بلســان من نار ، وكأن بينهم وبينك ما صنع الحداد والنجار .. ماذا فعلت بهم ؟ !

ـ لم أفعل بهم شيئا قط .. وقد ذكرت فضل الأزهر ورجال الأزهر وانا أؤرخ لثورة القاهرة الاولى ضد الفرنسيين .. فقد كان زعماء هذه الثورة من شيوخ الأزهر ، وضرب الفرنسيون الجامع الأزهر بالمدافع ودخلوا حرمه راكبين الخيول .. وذكرت أيضا أن الأزهر كان المعسكر العام لتعبئة المشاعر واضرام النار فى قلوب الجماهير فى ثورة ١٩ .

... ماذا فعلت بهم اذن حتى يهاجموني بلسان من نار ، وكأن بينى وبينهم ـ كقولك ـ ما صنع الحداد والنجار ؟ ! .

● شفيق غربال فى كتابه « تاريخ المفاوضات » قال : ان الصحافة لا تصلح مرجعا للتاريخ .. فما رأيك انت ؟ .

ـ ان أهم مصادر التاريخ هى بالترتيب :

١ ـ المراجع التاريخية القديمة .

٢ ـ معاصرة الأحداث .

٣ ـ الصحافة .

وأنا أمسك بيدى المقص كل يوم وأقص أخبار الأحداث الهامة من الصحف لأستعين بها فى كتابة التاريخ !

● كتاب الأمس أمثـال محمد فريد واحمد حلمى .. أى الكتاب المعاصرين يعتبر امتدادا لهم ولاتجاهاتهم الوطنية ؟ .

ـ لا أحـد . !

● أرخت الاستعمار الفرنسي والاستعمار الانجليزى .. فهل هناك شبه بين الاستعماريين ؟ .

ـ قد تختلف الأساليب ، ولكن كلهم مستعمرون . !

● قل لى حكمة استخلصتها من التاريخ ؟ .

ـ قد يعيد التاريخ نفسه أحيانا .. وقد لا يعيد نفسه على الاطلاق !.

● ... وثغرة في القانون المدنى ، وأخرى في القانون الجنائى ؟.

ـ قوانين الدولة مليئة بالثغرات .. وهناك لجان فى وزارة العدل تبحث اعادة تقنين قوانين الدولة من أول وجديد !.

● سمعت انك تستعمل الريشة في الكتابة دائما . فلماذا لا تستعمل القلم الأبنوس ؟ .

ـ كنت أستعمله من ٢٠ عاما .. ثم حدث مرة أن انكسر في جيبى واغرق بدلة جديدة كنت أعتز بها .. ومن يومها قاطعت القلم الأبنوس .. عليه اللعنة ! .

● احك لى قصة حب من أيام الشباب ؟ .

ـ وكأنك تخمن ! . لقد أحببت بالفعل فى شبابى .. وكان حبا عاطفيا يرتفع فى جوانحى الى مستوى الروح . ولكنى أدركت فى النهاية أن الحب شىء متعب لا لزوم له !

● جلست معك حتى الآن ٥ ساعات .. قلت لى خلالها ((أهلا وسهلا)) أكثر من ٣٠ مرة . فما السر ؟ .

ـ ربما لأننى شديد الحياء . مبالغ فى مجاملاتى للناس !



المرحوم

شفيق غربال

برجل واحد .. تبدأ الحرب !

« .. والحرب يبدأها رجل واحد .. ربما طلب المشورة من مجلس برلماني ، أو مجلس حزبي ، أو مجلس وزراء .. وربما خولت له سلطاته أن يستبد برأيه ويعلن الحرب دون أن يرجع الى أحد !.. ولكنه يجلس فى النهاية فى حجرة من أربعة جدران . فيهـا مكتب . وخرائط للعالم . وتماثيل مجسمة للكرة الأرضية . وقد يكون فيها تليفون ، و «ديكتافون» . وتليفزيون . وأجهزة لتكييف الهواء ! ثم ينطق كلمة واحدة ، وربما خطابا طويلا مثيرا يمتلىء بالكبرياء والأكاذيب ..

.. وترتجف الأرض ، وتنتشق البحار ، وتمتلىء السموات بالجحيم .. وتحت عنوان الحرب تحتل المأساة صفحات طوالا فى كتاب التاريخ .! »

المبدأ السياسي رجل واحد يصنعه .. يقرأ له مئات الكتب ويلتقط ملايين الأفكار ويتعمق في أكداس النظريات .. ثم يقذف بعينيه الى أبعد مدى في السـماء ومن تحت ذقنه يده ، ويغرق في بحور من الاستقراء والتجريد .. وهو في استقرائه للوقائع وتجريده للأفكار يستوحي عبرة الماضي ويستلهم احتياجات المستقبل .. ثم يخرج على البشرية بمبـدأ سياسي !

وتستقبل البشرية المبدأ الجديد .. قد تمضغه ثم تقذفه في وجه صاحبـه ! وقد تعتنقه . وتمتصه . وتطبقـه . وتصنع لنفسها حضـارة جديدة تدخل من باب التاريخ !

والحرب يبدأها عادة رجل واحد .. ربما طلب المشورة من مجلس برلماني . أو مجلس حزبي . أو مجلس وزراء . وربما خولت له سلطاته أن يستبد برأيه ويعلن الحرب دون أن يرجع الى أحد .. ولكنه يجلس في النهاية في حجرة من أربعة جدران . فيها مكتب وخرائط للعالم وتماثيل مجسمة للكرة الأرضية . وقد يكون فيها تليفون . و « ديكتافون » . وتليفزيون . وأجهزة لتكييف الهواء .. ثم ينطق كلمة واحدة ، وربما خطابا طويلا مثيرا يمتلىء بالكبرياء والأكاذيب .. وترتجف الأرض وتنتشق البحار وتمتلىء السموات بالجحيم !

وتحت عنوان الحرب ، تحتل المأساة صفحات طوالا في كتاب التاريخ .!

والزعيم رجل واحد .. في قلبه زعامة ، وفي دمه زعامة ، والأساطير التي تنتشر من حوله كلها قيادة وزعامة .. حياته أمضاها يدبر ويتدبر ، ويفصل لنفسه «مبدأ» يرفعه على جبهته عندما تنفتح له الفرصة لقيادة الجماهير .. بينما الجماهير نفسـها تعيش حياتها العـادية تلعق آلامها ولا تجسمها . تحس بالغبن والعبودية والضياع ، ولكنها أحاسيس سلبية حبيسة الوجدان ، لا تتنفس الا في اطار دفين .!

وتنفتح الفرصـة كما تنفتح اشارة المرور فجـأة ، ويقفز الزعيم على مقعد القيادة وفي قلبه زعامته ، وفي دمه زعامته ، وفي جيبه خططه التي أنفق عمره ينبش خطوطها بأظافره ، وعلى جبهته مبدؤه الذى فصله لنفسـه .. وتصغي الجماهير للزعيم ، وتفرش له بقلوبها طريق الأمل والمستقبل .. ويفتح التاريخ أبوابه ليستقبل الزعيم .. وحـده .. أما الجماهير فتصفق بحـدة وحماسـة وجنون وهي تسمع صرير غلق الأبواب .. ولكنها تظل خارجها .!

وتتوه البطولة بهذا الشكل بين الفرد والمجموع ٠!

ان صاحب المبدأ السياسي يصنعه مجتمعه ٠٠ وصانع الحرب تنتجه تروس الآلة وتيارات المذهب السياسى التى تسود مجتمعه ٠٠ والزعيم يعيش فى مجتمع وتصنعه آلام الجماهير ٠٠ ولكن البطولة فى النهاية تبقى للفرد ٠٠ أما المجموع ، أما صانع البطولة الحقيقى ، فدورة لا يذكره أحد فى كتب التاريخ ٠!

والذين يكتبون التاريخ فى مصر ثلاثة ٠٠ الدكتور محمد صبرى ، وعبد الرحمن الرافعى ، وشفيق غربال ٠٠ والرافعى تخصص فى كتابة التاريخ بكل قطاعاته ٠٠ فهو عندما يؤرخ يمسك بالسياسة والاقتصاد والاجتماع فى خيط واحد ٠٠ ولذلك فهو لا يهمل أحيانا دور الجماهير ٠٠ أما شفيق غربال ، فانه يكتب التاريخ من زاوية المفاوضات والمعاهدات والاتفاقيات ٠ وفى تاريخ المفاوضات الطويل لم تجلس الجماهير مرة واحدة على كرسى المفاوضة ٠٠ كل الذين جلسوا عليه كانوا زعماء بعضهم يؤمن بحق مصر الى حد التعصب ٠ وبعضهم مستعد لأن يتساهل ولكنهم كانوا دائما أفرادا ٠٠ ولذلك يعطى شفيق غربال الوزن كله فى كتاباته التاريخية للفرد !

***

تكلم شفيق غربال عن نفسه :

● أنا لا أصنع التاريخ ، ولكنى أكتبه ٠٠ كتبت عن كل الناس ٠ ولم أكتب مرة عن نفسى ٠!

الحى الذى ولدت فيه فى ٤ يناير ١٨٩٤ يحمل اسم العائلة ٠٠ اسمه « حى غربال » ويمتد على ضفاف ترعة المحمودية فى الاسكندرية ٠٠ أيام ولدت كان معظم الحى بساتين فواكه وحقولا تمون الاسكندرية كلها بالخضروات ٠٠ أما الآن فقد انتشرت المصانع وشون القطن والغلال ، ولا أثر للأرض الخضراء فى حى غربال ٠!

● دخلت مدرسة « روضة التعليم » التحضيرية ٠٠ كانت المدرسة « كتابا » فضاعف صاحبها عدد المدرسين وحولها الى مدرسة ٠!

كانت البلد تعانى أزمة فى المدارس ٠٠ ولم تكن « نظارة المعارف » تنشىء أكثر من مدرسة جديدة واحدة كل عام ، وربما كل عدة أعوام ٠! وكون الشعب جمعيات لتنشىء مدارس تعلم أبناءه ٠٠ فظهرت « الجمعية الخيرية الاسلامية » فى القاهرة ٠ و « جمعية المساعى المشكورة » فى شبين الكوم ٠ و « جمعية العروة الوثقى » فى الاسكندرية ٠

وبنت جمعية العروة الوثقى مدرسة « سعيد الأول » بمحرم بك فدخلتها • ونجحت فى الابتدائية سنة ١٩٠٨ • حصلت على الكفاءة من مدرسة رأس التين الثانوية ، ثم دخلت مدرسة العباسية وكانت تشغل حصنا من الحصون القديمة على قمة تل فى محرم بك • وحصلت على البكالوريا « قسم أدبى » وكان ترتيبى الثانى فى القطر ، وكان الأول محمود زكى وكيل وزارة التجارة سابقا •

● دخلت مدرسة المعلمين العليا سنة ١٢ ، تخرجت فيها بعد ٣ سنوات قامت الحرب العظمى وانتشرت الغواصات الألمانية فى البحر المتوسط وبحر الشمال •• سافرت فى عز الخطر الى انجلترا على ظهر باخرة • التحقت بجامعة ليفربول ، ودرست التاريخ الحديث ، والاقتصاد والفلسفة ، والجغرافيا البشرية والطبيعية والاقتصادية ، ودرست أيضا عصور التاريخ ، وكيفية العمل فى الوثائق •• ومناهج البحث فى التاريخ ••

أمضيت فى البعثة ٤ سنوات ، وحصلت على البكالوريوس فى الآداب ••

● اشتغلت لمدة ٣ سنوات فى التعليم الثانوى فى مدارس الاسكندرية •• أرسلتنى « نظارة المعارف « الى انجلترا مرة أخرى لأحصل على درجة علمية أعلى فى التاريخ • درست فى جامعة لندن سنتين ، وكان أستاذى المؤرخ العالمى المعاصر « دكتور توينبى » • أخذت درجة « ماجستير » فى العلوم التاريخية ••

● عينت أستاذا للتاريخ فى مدرسة المعلمين العليا ، كان من بين تلاميذى السفير أحمد نجيب هاشم ، وزكى نجيب محمود أستاذ الفلسفة بآداب القاهرة • أنشئت الجامعة سنة ٢٥ ، بعد انشائها بثلاث سنوات نقلت الى كلية الآداب أستاذا مساعدا للتاريخ الحديث ، ثم أصبحت وكيلا للكلية ، وجلست على كرسى العمادة لعدة أشهر ••

● عينت وكيلا مساعدا لوزارة المعارف سنة ٤٠ ، ثم وكيلا لوزارة الشئون الاجتماعية • وعدت وكيلا لوزارة المعارف مرة أخرى •• بقيت فى المنصب حتى خرجت من الحكومة فى ٤ يناير ٥٤ عندما بلغت الستين •

● عشت ٣٢ عاما لم تنقطع فيها صلتى بالتدريس •• كنت كلما شدتنى مناصب الوزارة بعيدا عن مدرجات الطلبة ، أعود اليها منتدبا أو أستاذا غير متفرغ •

درست « التاريخ الحديث » لطلبة الماجستير ، وساعدت طلبة الدكتوراه في تحضير رسالاتهم عن فروع التاريخ المختلفة طوال العشرين سنة الماضية ·· وأحس بطوفان من السعادة كلما صادفت فى الطريق أحد تلاميذى ·! ألمح فى عينيه معالم الولاء ، وفى خلايا ذهنه جزءا من تفكيرى ومجهودى ، جزءا منى ·!

● صلتى الدائمة بالتدريس لم تعطنى فرصة للتأليف بتفرغ ··

والمراجع التى كتبتها فى التاريخ لا تزيد عن ثلاثة ·· غير عشرات من الأبحاث الصغيرة · المراجع هى :

ـ « بدء المسألة المصرية » كتبته بالانجليزية عن تاريخ مصر الحديث فى أوائل القرن التاسع عشر ·· ويبدأ بالثورة الفرنسية وحملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ ، وينتهى بمعاهدة بوخارست التى أبرمتها الدولة العثمانية مع روسيا ·

ـ « المفاوضات المصرية البريطانية » ـ الجزء الأول ـ ويبدأ بالاحتلال الانجليزى حتى بدء المفاوضات التى انتهت بمعاهدة ٣٦ · وقد حصلت به على « جائزة الدولة » فى الآداب ·

ـ « التاريخ القديم » وكان يدرس لطلبة السنة الأولى الثانوية من سنة ٢٥ حتى ٣٥ ، ثم ألغى تدريسه بعد ذلك ··

● اختارنى المجمع اللغوى عضوا فيه ·· واشتغلت أستاذا للتاريخ فى معهد الدراسات العربية العالمية ، ومديرا للمعهد فى نفس الوقت ·· ونائبا لرئيس الجمعية التاريخية ·· والجمعية التاريخية تملك أكبر مكتبة للتاريخ فى مصر ، تضم ٤ آلاف مجلد ··

●

قلت للرجل الذى يكتب تاريخ مصر :

● فى تاريخ المفاوضات المصرية الانجليزية لم نخرج بنتيجة حاسمة غير مرة واحدة فى مفاوضات « عبد الناصر ـ ناتنج » التى انتهت باتفاقية الجلاء ·· والفترة بين معاهدة ٣٦ التى وقفت عندها فى الجزء الأول من « تاريخ المفاوضات » ، وبين « اتفاقية الجلاء » فترة مليئة بالمفاوضات الفاشلة ، ولكنها تمتاز بأسلوب جديد فى فن المفاوضة ·· متى تؤرخ هذه الفترة ؟ ··

ـ هذه الأيام ·· وسوف أصدر الجزء الثانى من « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية » ، قريبا ··

● انني أؤمن أن لكل «شيخ» طريقته وأسلوبه فى البحث العلمي • قل لى بالتفصيل •• كيف تكتب التاريخ ؟

ـ اني أقسم طريقتي في البحث الى مراحل تكمل بعضها :

١ ـ أراجع ما ينشر من الوثائق الرسمية •• ثم أقوم بعملية مقارنة تفصيلية فأقارن وثائق الحكومة المصرية بوثائق الحكومة البريطانية • الوثائق المتطابقة تماما أسلم بصحتها • أما اذا كان هناك اختلاف فانني أقوم بعملية بحث واستقصاء واسعة النطاق لأصـــل الى أقرب الوثائق الى الحقيقية ، وأكملها بالمستندات الأخرى التى قد تقع فى يدى •

ويزيد من مشقة البحث ان أصول الوثائق المخطوطة جرى العــرف الدبلوماسي على أن تحتفظ بها وزارات الخارجية في خزاناتها ولا يسمح لأحد بالاطلاع عليها ، خاصة اذا كانت تتعلق بأحداث معاصرة ••

٢ ـ أراجع وزراء الخارجية والدبلوماسيين الذين اشتركوا فى الأحداث ـ المفاوضات مثلا ـ فى تصويرهم لأعمالهم •• والمصادر فى هذا الخصوص هى : الصحف والمجلات • تسجيلات الاذاعة ••مضابط المجالس البرلمانية•

٣ ـ أبدأ بعد ذلك في تركيب الموضوع •• فاتخذ له سياقا ، واربط أجزاءه بحيث تكون المقدمات أولا وبعدها النتائج •• وهذه هى أشق العمليات جميعا !

٤ ـ أتوخى دائما أن أبتعد عن الخيال • وأن أكتب بواقعية وأمانة دون أن أضيف كلمة واحدة قـــد تغير من الحقيقة أو تؤول تفســـير الحوادث ••

● التاريخ الكامل يشمل كل قطاعات الحياة فى حقبة معينة من الزمن •• وأنت فى معظم كتاباتك التاريخية تختار قطاعا واحدا فقط هو فى الغالب « الاستعمار » أو « المفاوضات » •• فمن يكتب القطاعات الأخرى من التاريخ اذن ؟ ••

ـ ان هذه هى طريقتى فى كتابة التاريخ •• وأنا أرى ان تحـــديد محور معين تدور حوله عملية التأريخ وترتبط به ، أدعى الى الصـــدق والى الاجادة ••

● المجموع يصنع دائما البطولة ، ولكن البطولة تنسب فى النهـاية لفرد واحد يسمح له وحده بدخول التاريخ •• فعنـــدما ثار الشعب والجيش فى وجه الخديو توفيق ، وحارب الانجليز ، ووجد بين صفوفه من يخونه ، وصف التاريخ هذه الثورة بأنها « ثورة عرابى » •• وقال

عنها العامة « هوجة عرابى » •• والحقيقة ان أحمد عرابى كان قطره فى بحر المجموع • ومجهوده — فى نطاق ذاته — لم يصنع هذه الثورة • بل صنعها المجموع ! ••

— ان العـــلاقة بين الفرد والجماعة من أشـد الموضوعات التاريخية تعقيــدا •

وهناك من يقول أن دور الجماعة هو الدور الرئيسى •• ورأى آخر يقول ان الدور الرئيسى هو دور من يشـــغل المركز القيـــادى •• دور الزعيم ••

وأنا شخصيا أعتقد أن الجماهير وحدها — وبلا قيادة — لا تستطيع أن تصنع شيئا على الاطلاق •! والعالم الايطالى « جاليليو » كان هو وحده الذى اكتشف أن بندول الساعة ينحرف فى ذبذبته مع انحراف الكرة الأرضية فى مدارها •• ولم تكن ساعة « جاليليو » هى الساعة الوحيدة فى عصره •!

ان الجماهير دائما فى حاجة الى من يكتشفها •• انها فى حاجة الى رمز تنقده وتشجعه وتقدسه وتنقل همومها اليه •• ثم تسير وراءه ••

هذا الرمز هو الفرد •• هو الزعيم •!

● ماهى خصائص الأسلوب الانجليزى فى المفاوضات • •وهل تعتقد ان الانجليز أساتذة فى فن المفاوضة ؟•

— المفاوض الانجليزى يسلم بالتفصيلات التافهة ، ويلعب بهـــا ، ويساوم عليها بمهارة •• ولكن دون أن يمس هدفه الرئيسى التقليــدى ، وهو الاحتفاظ لحكومته بمركز شرعى دائما !• وبهذه المهارة اســـتطاع الانجليز — فى معاهدة ٣٦ — أن ينتزعوا من المفاوضين المصريين اعترافا بشرعية وجودهم فى مصر ، وكان وجودهم حتى ما قبل المعاهدة غـــير شرعى •• واستطاعوا أيضا أن يحصلوا على امتيازات سبق أن رفضها سعد زغلول فى مفاوضاته مع مستر « ملنر » سنة ٢٠ •!

● فى نظرك ••ماهى المشاكل الحقيقية للتعليم فى مصر ؟•

— اننا نتطور من مرحلة التخلف الاقتصــادى والاجتماعى بخطوات أوسع من مواردنا الفعلية •• وأزمة التعليم نتيجة للمحاولة الملهوفـــة للمطابقة بين أنظمة التعليم وبين احتياجاتنا الاجتماعية والاقتصادية الجديدة المتطورة •

وهى أزمة تحتاج الى مرونة ·· مرونة فى التطبيق ·· ومرونة فى التخطيط والموارد · وتحتاج أيضا الى وضع خطة تعليمية بعيدة المدى ·· وهى فوق ذلك أزمة عالمية تعانى منها كل دول العالم بلا استثناء !·

● الخوف من المجهول يلعب الدور الرئيسى فى حياة الناس ·· انه يدفعهم الى التمسك بأهداف العقيدة ، وينطق ألسنتهم من حين لآخــــر بكلمة : يارب !·

وفى حدود النقاش العلمى ·· هل تعتقد ان الخوف من المجهول هو القاعـــدة الأساسية التى ترتكز عليهـــا الديانات ، ويرتكز عليها الله فى أذهان الناس ؟·

ـ فى المجتمعات البدائية كان الخوف من المجهول هو الوســـادة التى تسند رأس الديانات القديمة والمعتقدات الوثنية ·· وربما امتدت هـــده القاعدة الى مجتمعنا الحالى ، ولكن فى حدود الطبقات الجاهلة الفقيرة ، حيث تنتشر الأحجبة والنذور وتفوح رائحة « البخور » !

أما الأساس العقائدى بين الطبقات المستنيرة ، فأنا أعتقد أنه يقــوم على الرغبة والأمل فى حياة أكمل !·





أحمد رامي

« ... في حوش الباشا » !

« وعمره ما كره الدنيا .. تجلط الدم فى قلبه ، ووقفت حصوة فى كليته ، فتمدد فى فراش المرض لا يتحرك فيه شىء غير شفتين تهمسان « أحمدك يارب » !. ثم تنهمر على وجنتيه الدموع ، ليس من الألم وانما من فرط الحساسية !.

وهو كله احساس .. وكله رقة .. أعصابه لا تتحمل رنين التليفون، ولذلك لم يركب - الا مؤخرا - تليفونا فى بيته !.

فى حياته .. لم يشترك فى مظاهرة ، ولم يمسك بندقية ، ولم يستعمل يديه فى مشاجرة !. »

أنت تعبد الله ·· تقف أمام المذبح ترتل آيات الانجيل ، وراء راعى الكنيسة بصوت له ترنيمه ·· أو تقف أمام « المحراب » ، وجهك يتجه الى الكعبة ، وقلبك يتجه الى الله تناجيه بآياته وتسابيحه فى خشوع ·· وهو يعبد الله ·· يعبده لمجرد وجوده على ظهر الدنيا !·

انه يحب الحياة ·· وحبه للحياة يمتزج فى كأس واحدة مع حبه لذاته ·· وهو يعتقد أن وجوده على ظهر الأرض ينعم بالسعادة أو يتعذب بالشقاء ·· عبادة ! ويسوق الدليل آية من القرآن : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » !·

وهو يؤمن أنه محظوظ ، لأنه يعيش ·· وطالما هو يعيش ، فهو سعيد ·· ولا يسعده شىء فى الدنيا قدر ابتسامة رضا يرسمها على كل الشفاه التى تقابله ··

فى الشارع ، يظل يخرج يده من جيبه يبعثر الحسنات على الشحاذين ·· وهو يخصص لهم بندا من مصروف جيبه الخاص ، يشمل هذا البند ثلث المصروف ·· ويعتقد بانفعال حار ، ان الحسنة تطفىء غضب الله كما تطفىء لهيب الجوف كأس من الجيلاتى !

وفى العمل ، يظل معظم الوقت يحرك لسانه داخل فمه ليسعد الآخرين ·· ولا يكف عن توزيع الكلمات الطيبة على السعاة والموظفين والمؤلفين والمطربين حتى يضع طربوشه فوق رأسه آخر النهار وينزل على سلم الاذاعة ··

وعمره ما كره الدنيا ·· تجلط الدم فى قلبه ووقفت حصوة فى كليته ·· فتمدد فى فراش المرض لا يتحرك فيه شىء غير شفتين تهمسان: « أحمدك يارب » ·· ثم تنهمر على وجنتيه الدموع ، ليس من الألم وانما من فرط الحساسية !·

وهو كله احساس ·· وكله رقة ·· أعصابه لا تتحمل رنين التليفون ولهذا لم يركب تليفونا فى بيته الا منذ شهور ·· يدخل السينما فاذا لمح فى الفيلم نصل سكين أو فوهة مسدس أغمض عينيه وقال لزوجته : « أما يخلص المنظر ابقى قولى لى » !· يركب الأوتوبيس طالما عجلاته تجرى على الأرض ·· فاذا جرت فوق بنى آدم ، قفز من الأوتوبيس واحتمى بأعصابه فى أول شارع جانبى !· لا يطيق أن يرى خروف العيد تجز رقبته سكين ! ·

فى حياته ٠٠ لم يشترك فى مظاهرة ، ولم يمسك بندقية ، ولم يستعمل يديه فى مشاجرة !

طول عمره لم يمارس رياضة ٠٠ يغرق فى أى كمية ماء يزيد عمقها عن شبر ، ولا يعرف من أين تركب « البسكليتة » !٠

وكل ما يؤرقه شيء واحد ٠٠ شارع « منية الاصبع » الذى يسكن فيه بحدائق القبة ٠٠ نصبوا فيه أخيرا أعمدة النور ٠٠ عمود منها وقف بجوار بلكون شقته يزغلل العيون ٠٠ كان يجلس فى البلكون فى عتمة الليل ليرى نجوم السماء كلها ٠٠ فلم يعد يرى منها الآن أكثر من خمسة نجوم ٠٠ وهو لذلك مستاء ٠٠ مستاء جدا !٠

***

قال لى أحمد رامى :

● جدى لأبى الأميرالاى حسن عثمان الكريتلى ، كان ضابطا فى الجيش العثمانى ، وجاء من كريت ليشترك فى حملة السودان ٠ قتل فى واقعة « كساب » بالقرب من « سنار » ٠٠ عطشت قوات الجيش ، وجبن الجند عن اقتحام غابة صغيرة اسمها « غابة الشيخ فرح » ليملأوا القرب من عين فيها ، فأخذ معه ١٠٠ من « الباش بزق » ودخل الغابة ، وطلع عليه رجال قبيلة « ودجبارة » فقتلوه هو وجنوده ، ولم يبق غير « باش بزق » واحد قفز فى الماء وعبر بعمره النيل الأزرق !٠

● كان أبى طبيبا فى مصلحة الصحة العمومية ٠٠ تشاحن مع أحد المفتشين الانجليز فاستقال ٠ أرسله الخديو عباس حلمى الى جزيرة « طشيوز » فى بحر الأرخبيل ليكون طبيبا لها ٠٠ وكانت الجزيرة ملكا خاصا للعائلة المالكة !٠

● ولدت فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ ، فى حى الناصرية ٠

● سافرت مع أبى الى جزيرة طشيوز ٠ كان أول منظر انحفر فى وعى الصبا منظر الباخرة تشق بحر الأرخبيل فى ظلام الليل وسط جزر كثيرة متناثرة ٠٠ لمحت من على ظهر الباخرة شبح رجل يسير فى احدى الجزر وفى يده فانوس !٠

● عشت فى الجزيرة سنتين أتمرغ فى أحضان الطبيعة اليانعة ٠٠ أرسلنى أبى الى مصر لأتعلم فى المدارس ٠٠ كان لى زوج عمة يشتغل معاون المدافن الخديوية فى الامام الشافعى ويسكن فى « حوش الباشا » وسط القبور !٠

عشت مع زوج عمتى وحيدا غريبا ٠٠ كنت أنام على صوت المقرىء يرتل القرآن فى جامع الشيخ رزق المجاور ، وأصحو على أصوات المشيعين يشيعون ميتا جديدا بالصراخ والنحيب !٠

ترسبت فى وجدانى هذه الفترة من عمرى ، وأعتقد انها سر المسحة الحزينة فى كل معانى شعرى !.

● دخلت مدرسة المحمدية الابتدائية بالسيوفية .. كنت أذهب الى المدرسة وأمامى ظلطة أدفعها بقدمى لتسلينى عن وحشة الطريق ، وأعود آخر النهار على ظهر حمار أستأجره !

● تركيا حاربت اليونان سنة ١١ . واستولت اليونان على جزيرة طشيوز . عاد أبى الى مصر . كان يقيم فى مندرة بيتنا بالناصرية ليالى أنس وطرب . عشت هذه الفترة فى جو النعيم ..

● أخذت الابتدائية سنة ١٩٠٧ . دخلت مدرسة الخديوية . أول قطعة شعر كتبتها فى حياتى كنت أهجو بها المستر دنلوب مستشار نظارة المعارف .. وكنت أخاف أن أكتبها ، وأكتفى بتحفيظها لتلامذة المدرسة شفويا !. قلت فى مطلعها :

أيادنلوب كف عن العناد ... فقد هاجت وقد ماجت بلادى

وقد سئمت بسيرك كل نفس ... أتحسب ان مصرا فى رقاد ؟

وكانت المشاحنات قد دبت بين سعد زغلول ومستر دنلوب عقب تولى سعد نظارة المعارف . فقد بحث سعد عن حجرة فخمة يتخذها مكتبا له، فلم يجد فى الوزارة كلها أفخم من حجرة دنلوب ، فاستولى عليها !.

● التحق أبى ضابطا بالجيش . نقلوه الى « واو » على بحر الغزال فى جنوب السودان ، فاقتحمت الوحدة حياتى مرة أخرى . كان أبى يرسل لنا مرتبه كله ويعيش على ٣ جنيهات يصرفونها له « بدل عليق » لحصانه !.

عشت فى حى الحنفى مع جدى الشيخ محمد الغزولى رئيس قلم سجلات المحكمة الشرعية . كان جدى ينام مع الغروب ، وأسهر أنا أقرأ دروسى أو أترجم لأبى شعورى بالوحشة فى خطاب ..

كان جدى يملك مكتبة قديمة قرأتها عن آخرها فى اجازات الصيف ، بدأت أعبر بالشعر عن وحدتى و « نشأتى فى يتم ولى والد » ونشرت أول قصيدة لى فى مجلة « الرواية الجديدة » وكان عنوانها « مناجاة طائر » وكان عمرى ١٨ سنة .

● كانت خطابات أبى تشجعنى وتحيى فى الأمل .. وكنت أخشى أن يقال عنى « فسد فى غيبة أبيه » .. فلم أسمح للشعر أن يسيطر على كل اهتمامى ويشغلنى عن دروسى .

كان ترتيبى السابع في القطر عندما أخذت البكالوريا سنة ١١ ·

● قدمت أوراقى لمدرسة الحقوق ، كانت مدرسة المعلمين تعطى للطالب جنيها في الشهر ، جاءني خطاب من أبي ينصحني أن أدخل مدرسة المعلمين العليا كي أخف عنه الحمل !

وفى مدرسة المعلمين أحببت دراسة الأدب العربى والانجليزى وعلم النفس · تعلقت بشعراء الانجليز : بيرون · كيتس · أرنولد · كانت أول مجموعة من الشعر العربى أدرسها بهواية مجموعة « مسامرة الحبيب في الغزل والنسيب » وتضم مقتطفات من شعر الغزل فى العصور العربية المختلفة ·

نشرت فى جريدة « اللواء » قصيدة لى عنوانها «الصب تفضحه عيونه» الشيخ أبو العلا محمد غنى القصيدة سنة ١٤ ، وغنتها من بعده أم كلثوم ··

● أخذت دبلوم المعلمين سنة ١٤ · ضاعفت نظارة المعارف عدد حصص مدرسيها ، ولم تعين مدرسين جددا · فتحت مدارس أهلية كثيرة أبوابها، فاشتغلت مدرسا مع زملاء الدفعة دكتور أحمد زكي ومحمد فريد أبو حديد فى « مدرسة القاهرة الأهلية » بالسيدة زينب · ضحك علينا ناظر المدرسة فأدخلنا شركاء معه ، وكان يحسب علينا ثمن الحبر والطباشير وأجور الفراشين ، فلا يزيد مرتب أحدنا بعد ذلك عن ٤ جنيهات فى الشهر !·

كنت أدرس التاريخ لطلبة السنة الثانية · كان التلاميذ كبارا ·· أكبر مني ·· قلت لهم فى أحد الدروس أن موقعة « ووترلو » كانت سنة ١٨١٢ فوقف تلميذ كالبغل وقال : « أبدا يا أفندى ·· سنة ١٨١٣ » قلت له : « طيب أقعد ·· أنت أصدق لأنك شاهد عيان » !·

● طبعت أول ديوان لى « ديوان رامى ــ الجزء الأول » سنة ١٧ · طبعت منه ألف نسخة كلفتنى ١٢ جنيها · كنت أوزع النسخ على أصدقائى مقابل « واحد جيلاتى » للنسخة ! أعطيت ١٠ نسخ لصاحب « مكتبة التأليف » بشارع عبد العزيز وأخذت مقابلها «القاموس المحيط» ومازال القاموس أعز مرجع أرجع اليه فى اللغة العربية !

● بدأت أنشر قصائدى فى جريدة « السفور » · وكان يكتب فى الجريدة دكتور حسين هيكل ودكتور طه حسين وقاسم أمين · كانت الجريدة تصدر يوم الخميس فينادى عليها الباعة فى ميدان العتبة : «اقرأ السفور ·· قصيدة لرامى ·· السفور » !

● اشتغلت سنة ١٧ مدرسا فى مدرسة القربية الابتدائيـــة . كنت أنظم لتلاميذ المدرسة ندوات أدبية كل أسبوع فى « اليمكخانة » وأحفظهم أناشيد وطنية أنظمها لهم على وزن الأغانى الشعبية الشائعة !.

***

● بدأت أتصل بالشعراء الكبار ، سكنت مع حافظ ابراهيم فترة فى حلوان . سهرت الليالى مع خليل مطران فى « قهوة سبلنديد » بشارع «فؤاد» . الشاعر العراقى الضرير عبد المحسن الكاظمى كنت أخـــدمه وأطعمه وأغسل له قدميه ، ثم أقرأ له أشعارى !.

قابلت أحمد شوقى فى « جروبى » عقب عودته من منفاه فى اسبانيا، وعرضت عليه ديوانى ــ الجزء الأول ــ فلما قرأ فيه مقدمة شعرية كان قد كتبها لى خليل مطران ، قرر أن يقدم لى الجزء الثانى .. أعطيته الجزء الثانى فأبقاه عنده شهرا بحاله ثم أعاده لى مع مقدمة شعرية مطلعها :

ديوان رامى تحت حاشية الصبا عــــذب عليــــه من الرواة زحام
شعر جرى فيه الشــــباب كأنه جنبـــــات روض ظلهن غمـــــام

● نشرت شـــعرى بعد سنة ٢٠ فى مجلة « الشـــباب » . كان عبد العزيز الصدر صاحب المجلة يقدم قصائدى بهذه العبارة : جاءنا من « شاعر الشباب » القصيدة التالية .. لصق بى من يومها لقب « شـــاعر الشباب » !

● اشتغلت أمينا لمكتبة مدرسة المعلمين العليا . كان فى المكتبة ١٠ آلاف كتاب قرأت معظمها .. قرأت كل ما فيها من أدب انجليزى وأدب روسى مترجم . كنت أتتبع انتاج الأديب من أول ما كتب حتى عمله الأدبى الأخير .

● سافرت باريس فى بعثة لحساب دار الكتب لأدرس اللغات الشرقية وفنون المكتبات . حصــلت على شهادة فى فن المــــكتبات من « مدرسة الوثائق » بجامعة السوربون ودبلوم من مدرسة اللغـــات الشرقية .. وكانت رسالتى للدبلوم بالفارسية عن عمر الخيام .

كنت قد قرأت شعر الخيام فى ترجمـــات كثيرة عن الانجليزية .. ترجمت شعره عن الفارسية ــ لأول مرة ــ الى اللغة العربية .. وترجمه من بعدى فى العالم العربى : من العراق .. صدقى الزهاوى ، وعبدالحق فاضل . ومن سوريا .. الصافى النجفى وجان الصراف ..

● عدت من باريس سنة ٢٤ . قال لى صديقى محمد فاضـــل ان أم كلثوم تغنى لى قصيدة « الصب تفضحه عيونه » فى كشك بحديقـــة

الأزبكية • ذهبت معه الى أم كلثوم وقلت لها ، دون أن أذكر اسمى ، اننى عدت من يومين فقط من باريس •• فقاطعتنى : أهلا بالأستاذ رامى !•

طلبت منها أن تغنى لى قصـيدتى فغنتها •• وبدأت صلتى بهـا من يومها ، حتى تاريخه !

***

● اشتغلت موظفا فى قسم الفهارس الأفرنجية بدار الكتب • وجدت المكتبة تعانى نقصا هائلا فى المراجع الأدبية العالميـــة ، فقد كان هم من أنشأوها سنة ١٩٠٤ أن يجمعوا فيها من الكتب ما يتناول مصر والشرق والاســلام فقط • أنشأت للمكتبة « فهرس رامى » نظمت به ١٠٠ ألف كتاب بطريقة « كاتش ويرد » • ويساعد الفهرس على التعرف علىالكتاب عن طريق مضمونه •• لا عن طريق اسمه ••

خدمت فى دار الكتب ٣٠ سنة وأنا أقرأ لنفسى وأقرىء النـــاس •• وخرجت منها سنة ٥٤ على المعاش ••

● ألفت لمسرح رمسيس رواية « غرام الشـــعراء » وترجمت ١٥ مسرحية عن الأدب الانجليزى والفرنسى ، وعلى هـــذه المسرحيات أقام يوسف وهبى وفاطمة رشدى مجد المسرح المصرى !• كتبت ٣٥ رواية للسينما ، بين تأليف وسيناريو وحوار •• كان معظمها لحساب أم كلثوم، وعبد الوهاب ، وأسمهان ، وأنور وجدى ، وليلى مراد •

● « خايف يكون حبك لى شفقة على » كانت أول قطعة زجل أكتبها فى حياتى لأم كلثوم • كانت الأزجال السائدة هزيلة ورخيصة المعانى •• اسمع مثلا :

« تعال بات ليلة التلات » و « ايه اللى جرى فى المندرة •• أنا كنت لسه صغيرة » !•

خلقت المونولوج ، وحملت الزجل كل بحور الشعر وأخيلته ، وفتحت باب الزجل أمام كبار الشعراء الذين يتعففون عنه •• فكتب أحمد شوقى لمحمد عبد الوهاب من بعدى أغنية « بلبل حيران » •• كتبت لأم كلثوم حتى الآن أكثر من ٤٠٠ أغنية وقصيدة •

● عينت مستشارا فنيا للاذاعة فى نوفمبر ٥٤ ، أعمل عضـــوا فى «لجنة النصوص» التى تشرف على نصوص كل الأغانى وتقرر صلاحيتها•

***

قلت لشاعر الشباب :

● **كيف تكتب شعرك وأغانيك ٠٠ هل تسيطر على شيطانك ، أم يسيطر عليك شيطانك ؟٠ وهل لك « جو خاص » تكتب فيه ؟٠**

ـ أنا ان جاءنى الخاطر ، أكتب فى أى وقت وفى أى مكان ٠٠ انمـــا يحلو لى أن أنظم وأنافيخلوة ، وبالأخص ساعة الغروب وفى الليالى التى يلعلع فيها القمر ، وأنا مستلق فى فراشى أردد المقطع بصوت الحداة الذين يرعون الغنم فى السهول ، ثم أبكى من الانفعال ، ويهبط على المقطـــع الذى يليه ٠٠ أى أن المسمار يدق المسمار !٠

وقد يبعث فى الرغبة فى كتابة الشعر صوت مؤذن ، أو صفير قطار، أو ضجيج ترام ، أو قطعة موسيقى !٠

ويشتد بى الحنين الى الكتابة عندما أسمع أحد أغانى القـــديمة ٠٠ وأحيانا أذهب الى أم كلثوم وبى وجوم ٠٠ تسألنى : مالك ؟ أجيب : عاوز فحم ٠٠ تضحك وتقول :طيب حغنى لك الحفلة الجاية !

وأنا أكره الأضواء ٠٠ ولا أطيق كتابة الشعر الا فى ضوء منعـــكس ٠٠ وتعودت عمرى كله أن أكتب على ورقة فولسكاب مثنية بالطول٠وبقلم رصاص لا يزيد طوله عن ٥ سنتى !

● **لا تختر لى قصيدة ٠٠ اختر لى بيتا واحدا تدخل به التاريخ ؟٠**

ـ انه بيت ليس هناك غيره :

كيف أنسى ذكـــرياتى   وهى أحلام حيـــاتى
انها صـــــــورة أيامى على مرآة ذاتى

انه أروع معنى عبرت فيه عن حياتى ٠٠ فى بيتين !٠

● **الى أين يسير تيار الشعر الحديث ؟٠**

ـ أملى ألا يكون الى ٠٠ الهاوية !٠ فقد تكالب على الشعر فى الوقت الحاضر جمهرة من الجهلاء المدعين ٠٠ هم لا يقرأون ، ولا يصورون ، ولا يقولون شعرا ٠٠ ثم يضعون أنوفهم فى السماء ، ويسمون أنفســــهم شعراء !٠

ومن ناحية أخرى ٠٠ لقد جاءت الثورة وأحداث مابعد الثورة ففتحت للشعر الوطنى آفاقا جديدة ٠٠ وطفر لذلك الشعر الوطنى وشعر الحماس ٠٠ انما الشعر العاطفى مازال كما هو فى حاجة الى طفرة مماثلة ٠٠ ان أيامنا هذه لم تعد تصلح لنظم الشعر ٠٠ فالمادية الطاغية والقلق وعـــدم الاستقرار ، والغلاء كظاهرة عالمية ، والضوضـــاء السياسية والعلمية ٠٠

كلها منغصات تفسد تربة الشعر ·· كيف يقول الشاعر شعره وسط هذا الجو ؟!

ان الشاعر لكى ينتج ، فى حاجة الى نفس الجو الذى وصـــفه ابن خفاجة الأندلسي بهذا البيت :

وشأن مثلى أن يرى خاليا   بنفسه يبحث عن نفسه !

● **دولة الشعر هل ما زال لها كيان ·· وهـــل يؤكل الشعر عيشا الآن ؟·**

ـ كان زمان ·· فقراء الشعر هذه الأيام ليسوا « خلفاء » يسيل منهم الجود ·· وأنا لا أرى فقيرا يتعثر فى أسماله الا وشـــككت فى أن تكون حرفة الشعر قد أدركته !·

● **هل تعترف لى ·· هل تقول لى قصة حبك التى عاشت معكفجددت شعرك وشبابك ؟·**

ـ لقد أحببت فى حياتى مائة مرة ·· أحببت « قلة » عليها مفرش فى شباك ، وكنت أحسبها بنتا جميلة ! وأحببت الممثلة الايطالية «فرانشيسكا برتينى » ·· وأحببت كل امرأة وكل فتاة جميلة قابلتها فى الشارع أو صادفتها فى أوتوبيس !·

ان الحب فى نظرى أن تشرك طرفا آخر فى متعة نفسية ·· وأنا أبيح لنفسى أن أشارك كل امرأة جميلة فى التمتع بجمالها !·

● **أستاذ رامى ·· أنت لم تجب على سؤالى بصراحة ؟!**

ـ اسمع يا ابنى ·· أنا عندى زوجة فى البيت ، وعندى ابن طبيب أمراض باطنة !!





عزيز أباظة

اشاعة اسمها : الصداقة !

« .. وهو مع ذلك يميل الى الجانب الطيب فى الأشياء ، وفى الانسان .
والسر ان عقله لا يستطيع أن ينفرد وحده بمناقشة مظهر الشىء أو سلوك الانسان .. دائما تتدخل عاطفته وتشده بمغناطيسية خيرة الى تصديق ما فوق السطح .. من أول نظرة !

وفى عقيدته ان هذه «العاطفية» لاتساعد كثيرا على النجاح فى الحياة .. فالحياة تحتاج منك أن تتسلح بسلاح له حدان : حد من الحذر .. والحد الآخر بعد نظر ! » .

من أول دقيقة .. أعطانى عقله وقلبه ، وتركنى فى حجرة مكتبه وسرح بخاطره فى دنيا أخرى .!

وفتحت عقله ، فوجدت بعض المعلومات الطازجة عن الموقف السياسى فى الشرق الأوسط ، وتحتها مباشرة طبقة كثيفة من كتاب « ثروة الأمم » لنبى الاقتصاد الانجليزى « آدم سميث » . لقد قرأ عزيز أباظة الكتاب ثلاث مرات : مرة فى شبابه ، ومرة فى منتصف عمره ، ومرة أخيرة من أسبوع واحد فقط .. وفى المرة الأخيرة لاحت له بين سطور الكتاب تفسيرات جديدة . لم يكن قد فهمها من قبل.. تفسيرات توضحها مشاكل الوقت ، وخبرة السن !

وفتشت فى عقله عن مشاكل تشغله ، فلم أجد شيئا .! أرضه التى كان يحمل هم زراعتها أعطاها لأخيه الأصغر يزرع فيها ويقلع ويحاسبه بالأرقام آخر الموسم .. ليس غير مشكلة وحيدة تقف فى عقله كالمسمار القلاووظ .. مشكلة روايته الشعرية « قافلة النور » .. حكى فيها بالشعر دخول الاسلام بلاد الفرس فى أربعة فصول .. ولكن الفصل الأخير يقف فى زوره ، كلما قرأه أحس بانحدار شديد فى مستواه .. وهو عيب لا يغفره أحد فى التأليف الروائى ، فالفصل الأخير لابد أن يكون أعلى الفصول جميعا فى مستواه ، أو على الأقل فى مستوى الفصل الذى يسبقه .

وأمسكت قلبه .. مسكين قلبه ! شرايينه تعانى من حالة « تقلص » ولكنه قلب أبيض ! أصدقاؤه يعدهم لك فى غمضة عين ، ولكنك تعجز عن عد المعارف وأهل الود ، فهم بالمئات .. تجدهم فى نادى الجزيرة ونادى سليمان باشا ونادى السيارات .

والقلوب البيضاء تشترك مع بعضها فى صفات عامة ، ولكن قلبه له صفات خاصة ينفرد بها .. فهو يؤمن بأن الصداقة الحقيقية اشاعة انسانية أطلقها الرعيل الأول من أبناء آدم ، لكنها لم تتحقق للآن ! وفى مواقف انسانية كثيرة كان يقنع نفسه بصدق الحديث النبوى : « اتق شر من أحسنت اليه » .. مع أنه يعلم أن نسبة الحديث الى النبى محمد أمر مشكوك فيه !

وقلبه من النوع « الواقف » .. لا يندلق ، ولا يتجاوب بسرعة .. انما يدرس أولا حتى يقتنع ، ثم يتجاوب على أساس مدروس !

وهو مع ذلك يميل الى الجانب الطيب فى الأشياء وفى الانسان .. والسر ان عقله لا يستطيع ان ينفرد وحده بمناقشة مظهـــر الشىء ، أو سلوك الانسان .. دائما تتدخل عاطفته وتشده بمغناطيسـية خيرة الى تصديق ما فوق السطح .. من أول نظرة .

وفى عقيدته أن هذه « العاطفية » لا تساعد كثيرا على النجاح فى الحياة .. فالحياة تحتاج منك أن تتسلح بسلاح له حدان : حد من الحذر والحد الآخر بعد نظر .!

***

قال لى الشاعر عزيز أباظة :

● كل النـــاس يحملون اسما واحدا طول حياتهم ، أما أنا فقـــد تغير اسمى فى حياتى ٤ مرات ! حتى الشهادة الابتدائية كان اســمى : عبد العزيز محمد أباظة . وأنا أكتب اسمى فى استمارة الشـــهادة الابتدائية رجعت الى شهادة الميلاد فوجدت اسمى : محمد عزيز أباظـة .. سقطت « محمد » الأولى وأنا عضو فى مجلس النواب سنة ٢٩، كان اسمى يظهر فى المراسيم وفى مضابط الجلسات : عزيز محمد أباظة .. تولت عوامل التعرية أكل « محمد » الثانية من على ألسنة النـــاس ، فأصبحوا يعرفوننى باسم عزيز أباظة !

ولدت فى الربعماية مركز منيا القمح . تاريخ ميلادى : ١٣ أغسطس ١٨٩٨ .

● لى ذاكرة من نوع غريب .. اننى أتذكر مثلا الأحداث التى عشتها من ٥٠ سنة . اما الحوادث الصغيرة التى مرت بى أول أمس فاننى كلما حاولت أن أتذكرها خانتنى الذاكرة !

أذكر أول صورة للحياة انطبعت فى ذهنى ، وكنت طفلا .. كنـــا نسكن فى شارع الدواوين ، وشبت النار فى بيتنا وخرجت ألسنة اللهب تعربد من الشبابيك ، وحملتنى أمى على كتفها ونزلت على السلم تجرى الى الشارع .!

لقد سألت عندما كبرت عن سنى أيامها ، فقالوا لى انها لم تكن أكثر من سنتين .. ومع ذلك فالصورة مازالت واضحة فى ذهنى .!

● أول ما تعلمت .. دخلت كتاب الشيخ حسن عبد الدايم بالربعماية . كان الشيخ حسن قاسيا يضرب صبية الكتاب لأتفه الأسـباب ، وكنت أتعهده كل يوم بأصبع موز أو برتقـــالة فيعفينى من كل شىء .. حتى حفظ اللوح !

● دخلت مدرسة الناصرية الابتدائية . نقلني أبى الى كلية فكتوريا بالاسكندرية لأكمل فيها المرحلة الابتدائية . كانت الكلية تدرس نفس المقررات في المدارس الحكومية، ولكنها تعطى عناية خاصة للغة الانجليزية، ونظام التربية فيها على نمط المدارس الخاصة في انجلترا ..

عندما نجحت في السنة الثالثة ، أهداني أبى قاربا كنت أتنزه به في بحر مويس . نطق لساني الشعر لأول مرة في حياتي فنظمت لأبي بيتين للشكر قلت فيهما :

اني لأكرم والدى ... وأعزه وأجله
فقد اشترى لى قاربا ... فوق الجياد محله

عدت الى مدرسة الناصرية وأخذت منها الابتدائية سنة ١٤ .

***

● دخلت مدرسة التوفيقية الثانوية . انفردت قامتي مرة واحدة حتى بلغ طولي ١٩٥ سنتي ! كنت رزينا ومتزنا ، وكنت بئرا لأسرار معظم الطلبة !

زار السلطان حسين كامل المدرسة سنة ١٥ . كتبت قصيدة لتحيته ولكن مدرس العربى أخذ مني القصيدة بحجة انني لا أجيد تعطيش حرف الجيم وأعطاها لفؤاد رشيد ـ دكتور فؤاد رشيد وكيل وزارة الصحة سابقا .. ألقى فؤاد رشيد القصيدة أمام السلطان حسين فصفق له السلطان وأعطاه ساعة وسلسلة من الذهب مازال فؤاد رشيد يحتفظ بهما للآن !

● كنت أميل للأدب والجغرافيا واللغات الأجنبية .. وعلى العكس كنت أكره علوم الرياضة .. نجحت في البكالوريا سنة ١٩ ، وكان ترتيبى الـ ٢٨ في القطر .

● كان معظم شباب العائلة يعرف طريقه بعد البكالوريا وهو مغمض العينين .. كانوا يدخلون مدرسة الحقوق ، وكأن الله لم يخلق غيرها بين المدارس العليا !

وكان خريجو الحقوق ايامها يوزنون بميزان الذهب ، ويقفزون بخطوات النعام الى أعلى المناصب السياسية .!

دخلت مدرسة الحقوق ، كنت مع عدد قليل من الطلبة لا نعتنق مذهبا سياسيا بينما كان كل طلبة المدرسة وفديين .. عشنا سنوات الدراسة كالمنبوذين !.

● أخذت الليسانس في سنة ٢٣ . دفعة هذه السنة دفعة مشهورة

سيطر خريجوها على الحياة القضائية فى مصر حتى الآن .. بين خريجى الدفعة : محمد الوكيل وزير العدل سابقا ، مصطفى مرعى المحـــامى ، مصطفى فاضل وكيل محكمة النقض ..

● تمرنت فترة على المحاماة فى مكتب وهيب دوس .. سنة ٢٥ عينت مساعد نيابة فى طنطا . بقيت اتنقل فى سلك النيـــابة بين طنطـــا وميت غمر ، حتى انتخبت عضوا فى مجلس النواب ســـنة ٢٩ . كان المجلس وفديا ، وكنت مستقلا .. وكانت جبهة المعارضة فى المجـــلس تتكون منى وأربعة من نواب الحزب الوطنى .. ولذلك قمت بدور رئيسى فى المعارضة .

حدث أن طلبت حكومة الوفـــد تفويضا من المجلس لعقد معاهدة مع انجلترا ، ولكنى عارضت طلب الحكومة بشدة.. قلت أن التفويض سوف يضعف موقف المجلس ازاء نظر المعاهدة عندما تعرض عليه ..

● انحل المجلس فى يونيو سنة ٣٠ .. اختلف مع الملك فحله الملك .. أجريت انتخابات جديدة فى نفس السنة فنجحت فيهـــا عن دائرة مركز منيا القمح .. بقيت فى المجلس حتى خرجت منه سنة ٣٣ .

● عينت مفتشا فى وزارة الداخلية . انتقلت مديرا لمصلحة تحقيق الشخصية . انتقلت وكيلا لمديرية البحيرة ..

● عدت الى مجلس النواب فى انتخابات ســـنة ٣٦ . لم يكن فى المجلس كله غير ١٤ عضوا عارضوا المعاهدة ، كنت واحدا منهم ! كانت المعاهدة تقيد حريتنا فى التنظيم الخارجى وحريتنا فى انهاء الامتيــازات الأجنبية . بينما كان مكرم عبيد يردد فى قاعة المجلس انها وثيقة الشرف والاستقلال !

وكانت المعاهدة فى نظرى عملية استجداء بالقطاعى !.. وكنت أقول لهم بدل أن نستجدى حريتنا جزءا جزءا ، علينا أن ننتظر الفرصة لعقد اتفاق أكرم نسترد به حريتنا كاملة . فالاتفاقات القطاعى سلاح خطـــير يثبط همة الأمة ويشغل الشعب عن استمرار الكفاح !

... وكأنى كنت أؤذن فى مالطة .!

● انحل المجلس سنة ٣٨ وشكل الحكومة محمد « باشا » محمود . عيننى محمد محمود مديرا للقليوبية . تنقلت مديرا للفيوم ، المنيـــا ، البحيرة ، ثم محافظا لبورسعيد .

● منذ كنت فى مدرسة التوفيقية انقطعت عن كتابة الشعر ..عدت الى كتابة الشعر سنة ٤٢ عقب وفاة زوجتى .. أصدرت ديوان « أنات

حائرة » ثم كتبت مسرحية « قيس ولبنى » .. كتبت بعــد ذلك ٧ مسرحيات ، والمسرحية الثامنة هى « قافلة النــور » التى أكتب الآن فصلها الأخير .

***

● انتقلت مديرا لأسيوط سنة ٤٣ . حدثت جريمة قتــل فى قرية « درنكة » كان القاتل من عائلة العمدة . ثأر للقتيل شاب من عائلته فقتل ٣ أفراد من عائلة العمدة .. ردت عائلة العمدة الثأر فقتلت قتيلا آخر. رد الشاب بأن قتل ٥ أفراد من عائلة العمدة .. اشتهر الشاب فى الاقليم كله باسم « الخط » .!

وكان الخط مجرما من نوع غريب .. كان مجرما شريفا لا يسرق ولا يقطع الطريق .. يقتل ليثأر لعائلته الجريحة .!

وسر شهرته أنه لم يكن يثأر برأس واحدة .. كان يقتل القاتل ويقتل معه كل من اشترك فى الجريمة أو كان على علم بها ، حتى ولو بلغ عددهم عشرة .!

وكانت آخر جريمة ارتكبها فى مدينة أسيوط نفسها وفى وضــح النهار .. ثلاثة رجال من عائلة العمدة كانوا يركبون سيارة ومعهم امرأتان. طلع عليهم الخط ، وانزل المرأتين من السيارة وطلب منهما أن تخبئــا وجهيهما وتبتعدا .. ثم أوقف الرجال الثلاثة على « رفرف » السيارة وأطلق عليهم الرصاص !

اعتدى عواد أحد أعوان الخط على مأمور مركز أسيوط فأصــابه برصاصة فى ساقه وقتل كاتب نيابة كان برفقتــه .. جمعت قوات المديرية كلها واستعنت بقوة من الجيش جاءت من منقباد وحاصرنا قرية «موشى» وتمكنت القوة من قتل عواد وأعوانه .

علمت فيما بعد أن الخط كان يعارض عواد فى اعتــدائه على مأمور أسيوط . ولكن عواد استطاع أن يكسب أغلبية آراء الأعوان عند الاقتراع .. فقد كان الخط لا يستبد برأيه . كان ديمقراطيا مع أعوانه .!

وأخيرا .. قتلوا الخط بينما كنت فى القاهرة فى أجازة .!

● خرجت من الحكومة سنة ٤٧ . انتخبت عضوا فى مجلس النواب سنة ٤٨ ، ثم عضوا فى مجلس الشيوخ سنة ٥٠ .

اشتغلت عضوا فى مجالس ادارة شركات كثيرة .

***

قلت لعزيز أباظة :

● عائلة أباظة مثل شبكة الصيد ، كل خيط فيها يتصـــل بخيط آخر ! ما هو أصل العائلة ومتى جاءت مصر وما هي آخر تقسيماتها ؟..

ـ عائلة أباظة عربية الأصل . هي فرع من قبيلة « العائد » في نجد بالحجاز . وقبيلة العائد بطن من بطون « بني جذام » . وقد جاءت العائلة الى مصر واستوطنت الشرقيـــة من ٧٠٠ سنة على الرأى الأرجح الذى يؤكده ابن خلدون والقلقشندى !.

ولم تعرف العائلة باسم « أباظة » الا في عهد المماليك .. فقد حدث أن تزوج احد اجداد الأسرة سيدة من قبيلة أباظة الشركسية .. وكان لهذه السيدة ضرائر من زوجات الجد الأخريات فكن يطلقن على أولادها ازدراء لهم « ولاد الأباظية » ! ولصق اللقب بالعائلة !

وقد قسمت العائلة تقسيما نسميه « التقسيم الكبير » .. ويشمل بيتين كبيرين : بيت السيد « باشا » أباظة ، وبيت سليمان « باشـــا » أباظة .. وبيتين صغيرين : بيت بغدادى أباظـــة ، وبيت قمحـــاوى أباظة ..

● ما هو اسوأ بيت شعر قلته ولم يعجبك ؟.

ـ ليس بيتا واحدا . ان ثلاثة أرباع شعرى شعر سيء لا يعجبنى.!

● اذا كتبت قائمة تضم ٥ شعراء من أحسن من قالوا الشعر العربى .. أين تضع شوقى وأين تضع نفسك ؟..

ـ أضع شوقى على رأس القائمة ، ولكنى لا أضع نفسى بين الخمسة .. ولا الخمسمائة !.

● عشت في الصعيد ولفحت وجهك عن قرب نار الثأر التى تتوهج فيه .. أريد رأيا مدروسا في الثأر .. سببه ، وعلاجه ؟.

ـ عادة الثأر ليست منتشرة في الصعيد كله .. انها تكاد تتركز في محافظات أسيوط وقنا وجرجا . وسببها باختصار تلك الحياة القبلية التى يعيشها الأهالى هناك في عزلة تامة عن كل أسباب الثقافة والمدنية .. اما علاجها فلا يكون الا بتربية جيل جديد يؤمن بسلطان الدولة وبقوة القانون ، ويعطى للدولة حق القصاص من القاتل .. أما الأجيال الحاضرة فلا فائدة من علاجها .!

● لم تعد الكتب مخطوطات تكتب باليد .. ولم تعد المعرفة مقصورة على الاباطرة والأكاسرة وأمراء المؤمنين .. وجوتنبرج اختـــرع حروف الطباعة والحمد لله .. ومع ذلك فالناس في مصر لا يقرأون .. لماذا ؟.

ـ هذا صحيح .. الناس فى مصر لا يقرأون بالفعل .. والذين يقرأون منهم معظمهم يقبل على المادة الضحلة المثيرة .. أما المادة الدسمة الجادة اذا طبعت فى كتاب فان ٢٠٪ يوزع منها فى مصر ، والباقى تلتهمه الدول العربية .!

والسر فى رأيى ان المتعلمين عندنا أصحاب مزاج ... كثيرون منهم يفضلون المتعة العابرة على القراءة .. فيتسكعون فى الشوارع أويدخلون السينما أو يسهرون أمام التليفزيون !.

وربما كان لصعوبة الحصول على لقمة العيش عندنا أثر فى هذه المسألة .!

● هل ابتعد الشعر ـ كأداة للتعبير ـ عن أفهام الجماهير .. وماسبب عدم رواج الاوبريتات الغنائية ؟..

ـ مازالت الجماهير بخير .. ومازال العامة يتذوقون الشعر .. ولكن المسألة مسألة فرقة تقدم الأوبريت وملحن يلحنها .!

● الشعر انكمشت سوقه .. ما هى اذن أكثر فروع الأدب رواجا ؟.

ـ انها القصة القصيرة .. بشرط أن تكون مثيرة وتافهة .!

● فى عمرك كله .. ما هو أهم شىء استطعت أن تحققه ؟

ـ أنا لم أحقق فى حياتى العامة نجاحا يذكر .. المكسب الوحيد الذى كسبته فى حياتى اننى استطعت بمرور الزمن أن أطهر نفسى من شهوة الحقد على الآخرين !



دكتور محمد مندور
((المـــرحوم))

•• دعنى أصف لك النار !

« نشطت عصابة « اليد السوداء » سنة ٢٤ تغتال الضباط الانجليز وتوجه خطابات التهـــديد الى الباشوات الذين ملأ الاستعمار كروشهم بالخير والعطايا •!

وفى نفس السنة ، تمكنت العصابة من اغتيـــال السردار الانجليزى « سير لى ساك » •• وثارت الحكومة البريطانية وطالبت بثمن القتيل •!

وسقطت وزارة سعـــد زغلول • وجاءت وزارة أحمد زيور لتسـلم بكل مطالب الانجليز •• تنازلت عن السودان ، وطرد الجيش المصرى من ثكناته فى عطبرة والخرطوم ليعود الى مصر •• الضـــباط على الخيول ، والجند على الأقدام •! »

فزعت القرية ذات صبـــــاح وألسنة الناس تتناقل الخبر المشئوم لقد قتلوا «أبوك عبد العاطى» شيخ الغفر .. لم يرحموا طيبته ولاشيبته، وضربوه ثلاثة أعيرة وهو ينحدر من على الزراعية فى طريقه الى الجــرن الذى يتوسط قلب القرية . وانقلب المركز كله بضباطه وعساكره ، وجاء المأمور ليعاين مكان الحادث .. حيث « يقف » القتيل .!

كانت الدنيا شتاء .. وفى الصيف يعمر الجرن بأكوام القمح،ونورج العمدة يدور بعجلاته الحادة فوق أعواد القمح ، فاذا انتهى من « درس » محصول العمدة دار من جديد ليدرس للأعيان قمحهم بالأجر .. اما فى الشتاء ، فان الجرن يتحول الى بركة عطنة يتجمع فيها نشع الغيطـان .. ولا يبقى منه الا شريط ضيق يعبره الســـــابلة بحذر وهم عائدون ببهائمهم من الحقول آخر النهار ..

وعلى بداية هذا الشريط الضيق كان « يقف » أبوك عبد العاطى .. القتيل .. لقد ضربوه عيارا اخترق احشاءه .. فشخط فيهم : خاب عياركم يا أولاد الكلب !.. ثم خلع بندقيته من على كتفه ليرد عليهم .. ولكنهم عاجلوه بعيارين آخرين ، فاكتفى بأن استند الى بندقيتـــه وقد انغرز كعبها فى الطين،ولفظ أنفاسه وظل فى وقفته ميتا حتى الصباح.!

واتصل العمدة بالنقطة .. وجاء ضابط النقطة ، وكانت المرة الثانية التى يظهر فيها أمام صبية القرية .. وظن الصبية أن المسألة سوف تنتهى عند هذا الحد .. ولكن الضحى غمر القرية وفوجىء الصبية بمأمور المركز. وعساكر كثيرين يقفزون من سيارتهم على الزراعية وينحدرون الى مكان الحادث ..

وكانت المرة الأولى التى يرى فيها صبية القرية مأمور المركز ومثــل هذا العدد الكبير من العسكر .. وتوقع الصبية ان يلقى المأمور نظرة على القتيل ، ثم يقفز فى سيارته ويعود ادراجه الى المركز .. ولـــــكنه لم يفعل .. لقد أمر العساكر بأن يضربوا كردونا حول القتيل ، ونبه عليهم أن لا يمس واحد الجثة أو يقترب منها .. ثم وقف غير بعيد عنهم يدخن سجائره ، ويكلم العمدة من طرف أنفه ، ويحتد عليه أحيـــانا حتى يكاد يصفعه .. والعمدة يقف أمامه فى ذلة وخشوع ، ويداه متعانقتان بين فخذيه وكأنه يحمل بهما ثقلا ثقيلا انحنت له قامته !

وخيم الوجوم على الجميع . وكان المأمور من حين لآخر يقذف بصره

الى بعيد على الزراعية .. تتبعه عيون العمدة وضابط النقطة .. وكأنهم في انتظار قادم له شأن عظيم ..

وقال الصبية فيما بينهم : انه الملك ..! سوف يأتى ليلقى نظرة أخيرة على شيخ الخفر وهو فى وقفته .. ثم يصفع العمدة ويبصق فى وجهه ويأمره بأن يحمل جثة شيخ الخفر ، ويواريها بيديه فى مقابر القرية .!

ولـكن واحدا منهم قال : انه رئيس الوزراء !

ولم يطل بهم التخمين .. فقد ظهرت على الزراعية فجأة سـيارة ملاكى زاهية اللون ما كادت تقف على أول « المنزل » الموصل الى مكان القتيل حتى انفتحت أبوابها ولفظت أفنديا شديد الأناقة..وسرت الروح فى المأمور فاعتدل فى وقفته وهرش ذقنه ثم رمى يديه وشـبكها وراء ظهره .. والعمدة هرول فى اتجاه الأفندى الأنيق يستقبله بحفاوةورهبة وهو يتمتم بآيات قصيرة من القرآن .. وضرب بعض العسكر أحذيتهم فى الطين وأدوا التحية العسكرية للقادم العظيم ..

وعرف صبية « كفر مندور » مركز منيا القمح أن القـادم لم يكن الملك ولا رئيس الوزراء .. لقد كان وكيل نيابة المركز ! وانطبعت الصورة كالأسطورة فى دماغ الطفل محمد عبد الحميد موسى مندور .. وقررمن يومها أن يكبر ويصبح « وكيل نيابة » .!

***

قال لى دكتور محمد مندور :

● كان عمرى وقتها ٧ سنوات . وكانت الحرب الأولى قـد أعلنت عندما دخلت مدرسة الألفى الابتدائية بمنيا القمـح .. وكانت قلوب المدرسين قاسية مثل جدران الأسمنت المسـلح .. كانوا يضربوننى ويضربون سائر التلاميذ بقسوة ووحشية لأتفه الأسباب .. وكنت أنجح متأخرا فى الترتيب .. ولم أحس بأن الضرب يشل ملكاتى الا عنـدما التحقت بمدرسة طنطا الثانوية ، وظل ترتيبى الأول حتى حصلت على البكالوريا .. فلم يكن يضربنى أحد ..!

● نشطت عصابة اليد السوداء سنة ٣٤ تغتال الضباط الانجليز ، وتوجه خطابات التهديد الى الباشوات الذين ملأ الاسـتعمار كروشهم بالعطايا .

وفى نفس السنة تمكنت العصابة من اغتيال السردار الانجليـزى « سير لى ستاك » . وثارت الحكومة البريطانيـة وطالبت بثمن السردار القتيل .! وسقطت وزارة سعد زغلول .. وجاءت وزارة أحمـد زيور لتسلم بكل مطالب الانجليز .. تنازلت عن السـودان وطرد الجيش

المصرى من تكناته فى عطبرة والخرطوم ، ليعود الى مصر .. الضباط على الخيول ، والجند على الأقدام ! وفتح أحمد زيور خزانة الحكومة وامتدت يد بريطانيا لتأخذ منها نصف مليون جنيه .. كل ذلك ثمنا للسردار القتيل !

ودخلت الحياة السياسية لأول مرة . فاشتركت فى مظاهرة نظمها طلبة مدرسة طنطا الثانوية .. وفصلت شهرا كاملا من المدرسة ، كان سببا فى تأخر ترتيبى فى امتحان البكالوريا ، فطلعت ال ١٢ على القطر كله .!

● فتحت الجامعة الجديدة أبوابها سنة ٢٥ .. وتقدمت ضمن اول دفعة التحقت بكلية الحقوق .. وكانت هناك سنة اعدادية تعد الطلبة للالتحاق بكليتى الحقوق والآداب .. وأول يوم فى السنة القى علينا الدكتور طه حسين محاضرة عن « الشعوبية وانتحال الشعر » ثم طلب منا أن نلخصها فى ٥ دقائق .! وعندما قرأ الدكتور طه تلخيصى للمحاضرة .. قال لى :

ـ انت يا ولد باين عليك ممتاز .. رايح تخش كلية ايه ؟.

قلت له : كلية الحقوق .. اصلى عاوز أبقى وكيل نيابة .!

فشخط فى وقال : أصلك فلاح مغفل .. أدخل كلية الآداب يا غبى وانت تبقى طالب ممتاز وتسافر أوروبا .!

وسمعت كلام الدكتور طه .. كنت أدرس الحقوق الصبح وأدرس الآداب بعد الظهر .. وحصلت على ليسانس الآداب قسم اللغة العربية واللغات السامية سنة ٢٩ . وفى العام التالى نجحت فى ليسانس الحقوق .!

● كتبوا اسمى ضمن بعثة مسافرة الى فرنسا .. ولكنى رسبت فى الكشف الطبى .. وكنت قد كتبت بحثا عن الشعر الجاهلى وأعجب به طه حسين فأخذه الى حلمى عيسى « باشا » ناظر المعارف ، وقال له : « اقرأ هذا البحث » . وأصدر ناظر المعارف قرارا باعفائى من الكشف الطبى ، وسافرت لأدرس فى السوربون !

● وفى السوربون حصلت على ليسانس فى الأدب الفرنسى واليونانى وفقه اللغة وعلم الأصوات اللغوية .. وهو علم يبحث فى أصوات اللغة وموسيقاها ويحلل الموجات الصوتية وكمها ودرجة الارتكاز اللغوى فيها .. ودرست أيضا التشريع المالى والمذاهب الاقتصادية السياسية ، وحصلت على دبلوم فيها ..

وقامت الحرب ، فرجعت من فرنسا لأعمل مدرسا مساعدا فى كلية الآداب ، ادرس للطلبة « الترجمة الانجليزى » !

● قدمت رسالة عن « تاريخ النقد المنهجى عند العرب » وحصلت على الدكتوراه فى الأدب العربى .. وعندما افتتحت جامعة « فاروق » فى الاسكندرية نقلونى اليها مدرسا للأدب العربى . وهناك قابلت احدى طالباتى .. اسمها « ملك عبد العزيز » . كانت تقول الشعر وتنجح بامتياز .. فتزوجتها .!

● لست أدرى كيف زلت قدمى .. فدخلت هذا الطريق المظلم المسدود ! كنت أكتب بعض المقالات الأدبية فى مجلة « الثقافة » .. وأعجب محمود أبو الفتح بمقالاتى ، فأرسل الى الدكتور سيد أبو النجا ليتفق معى على أن أعمل مدير تحرير جريدة « المصرى » بمرتب ٧٥ جنيها فى الشهر ، وبعقد مدته ٥ سنوات .. وكان مرتبى فى الجامعة ٢٥ جنيها فقط ، فقررت أن أقبل العرض وأمضيت العقد ..

وبعد شهرين ، كتب عزيز خانكى فى جريدة « الاهرام » يطالب باصدار تشريع بمنع المسلمين والمسيحيين على السواء من تغيير دينهم !. وكان السبب ان أحد المواطنين المسيحيين أراد ان يتخلص من زوجته فأسلم وطلقها .. وكتبت أرد على عزيز خانكى .. قلت ان الديانة تتعلق بالضمير ، وان المشرع لا يستطيع أن يتخطى حدوده ليتغلغل بتشريعاته داخل ضمائر البشر !

وسمع محمود أبو الفتح بمقالى فأمر عامل التوضيب برفع المقال .! وثرت .. وأخذت بروفة المقال وأعطيتها لأنطون الجميل رئيس تحرير « الاهرام » فنشرها فى اليوم التالى .. وعندما قرأ محمود أبو الفتح مقالى فى جريدة «الأهرام» أرسل أحد السعاة الى البيت ليقول لى : محمود بيه بيسلم وبيقول لك أوعى تروح الجورنال !

***

● وجدت نفسى على الأرض .. لا مال ولا عمل .. نضب كل شىء ماعدا العيال .. فقد كانوا يتكاثرون .! وعانيت من البطالة ، وظللت أعمل بالقطعة فى مجلات « بلادى » و « الرسالة » و « الثقافة » وغيرها .. المقال بجنيه أو جنيهين ، وفى آخر الشهر أجمع مالا يزيد عن ٢٠ جنيها تلقمها منى أفواه العيال .

وفى يوم أرسل لى حامد طلبة صقر صاحب جريدة «الوفدالمصرى». قال لى ان الجريدة تحتضر وانه يود أن يبعث الروح فيها .. وعيننى رئيس تحرير للجريدة بمرتب ١٠٠ جنيه فى الشهر .. وقررت أن

أضع للجريدة شعارا تلتزم به . فكتبت تحت « الترويسة » فى الصفحة الأولى :

« الديمقراطية السياسية ، والعدالة الإجتماعية ، واستقلال وادى النيل » .

وكانت كلمة «العدالة الاجتماعية» نغمة جديدة فى حياتنا السياسية لم يقل بها أحد من قبل . وكانت أيضا تتعارض مع اتجاه حزب الوفد ـ صاحب الجريدة ! ـ الذى يسيطر عليه باشوات الارستقراطية والاقطاع .!

● استطعت فى سنة ان أدخر ٩٠٠ جنيه من مرتبى .. ويبدو ان عدم الاستقرار الذى يسود الوسط الصحفى يدفع بعض الصحفيين الى محاولة اصدار صحف ومجلات لحسابهم ، ليؤمنوا انفسهم ضد القلق .. وقد فشلت محاولات كثيرة من هذا النوع ، ومحاولات نادرة منها نجحت وارتفعت « ادوارا » عالية تنطح السماء !

ووضعت كل ما ادخرته فى مشروع مجلة اصدرتها باسم « البعث » ظلت تصدر ٩ أشهر .. ثم جاء اسماعيل صدقى فأغلقها وأغلق معها ١٢ جريدة ومجلة أخرى ، من ضمنها « الوفد المصرى » و « الفجر الجديد » .. وقبض على وعلى ٢٠٠ صحفى وكاتب وأديب من بينهم سلامة موسى ، وزكى عبد القادر ، ورشدى صالح ، وسعد لبيب !

● أمضيت فى سجن الأجانب ٤٦ يوما على ذمة التحقيق ، ثم أفرج عنى .. وكانت هذه المرة الأولى فى حياتى التى انظر فيها للدنيا من وراء قضبان ، ولكنها لم تكن المرة الأخيرة .. فقد دخلت السجن بعد ذلك ١٥ مرة . وفى أحيان كثيرة كنت أغادر زنزانتى فى الصباح لأتنسم الحرية نهارا بطوله ، ثم يقبض على وأعود اليها فى المساء !.

الشىء الوحيد الذى كنت أستطيعه ، هو كتابة المقالات .. وكنت أكتب مقالاتى وأنا فى السجن ثم أرسلها مع احد العساكر لتنشر فى جريدة « الوفد المصرى » . وتنقلب الحكومة ، ويبحث اسماعيل صدقى فى رأسه الأصلع عن شعر يشده .. من الغيظ !

● كان الوفد هو حزب المعارضة ، ووقف صبرى أبو علم فى مجلس الشيوخ يطالب باصدار رخصة جريدة جديدة بدل « الوفد المصرى » التى اغلقت .. ووافق اسماعيل صدقى على اصدار جريدة « صوت الأمة » .. بشرط ألا أكتب فيها .!

● سقطت وزارة صدقى ، وخرجت من السجن لأرأس تحرير « صوت الأمة » ، وظللت رئيس تحريرها حتى سنة ٤٨ . ثم تعبت من

الصحافة .. أحسست اننى أتخبط فى طريق مظلم مسدود .. فانسحبت من الميدان ، وفتحت مكتبا للمحاماة .. وجاءت الانتخابات سنة ٥٠ . فرشحت نفسى عضوا فى مجلس النواب عن دائرة السكاكينى .. وكنت طوال مدة نيابتى رئيسا للجنة البرلمانية لشئون التربية والتعليم ..

● اصبت بورم فى « الغدة النخامية » بالمخ .. وأثر المـــرض على أعصاب الأبصار فخبا نور عينى .. وسافرت الى لندن حيث أجرى لى الدكتور « هارفى جاكسون » ، استاذ جراحة المخ بكلية زمالة الجراحين بلندن ، عملية استئصال .. واستعدت قوة بصرى تماما ..

وكانت احدى الصحف اليومية قد نشرت خبرا قالت فيـــــه أننى أصبت بالعمى .. وأثر ذلك على مكتب المحاماة ، انســحب الزبائن ولم يسترد المكتب نشاطه من يومها .!

وبلغت نهاية المطاف .. عينت استاذا منتدبا فى قسم الصحافة ، وفى معهد التمثيل .. ورأست تحرير مجلة « الشرق » .. وما زلت أعيش .!

●

قلت للرجل الذى هز عقيدتى فى مستقبلى الصحفى !:

● تستطيع أن تعرف لى نفسك .. ذاتك وحياتك .؟

ـ انا من ضيع نصف عمره فى الثقافة لذات الثقافة .. ثم افقت فوجدت موسوعة علمية فى عقلى ، ولاشىء فى جيبى .!

● كيف شهدت الحرب العالمية الأولى .. وما هى انطبـــاعاتها فى ذهنك ؟.

ـ كنت صبيا أثناء هذه الحرب ، فأنا من مواليد ٥ يوليو سنة ١٩٠٧ وكنت أسمع أبى يقول لرفاقه وهم جالسون على المصطبة فى كفرمندور « النهاردة الامبراطور غليوم غرق للحلفاء مركب فى بحر البلطيق » .. وكانوا جميعا يتحمسون لألمانيا ، ويتغزلون فى الامبراطور غليوم ويدعون له بالنصر !.

كانت السلطة ايامها هى الشبح المخيف الذى يرهبه الجميع ..الذرة والقمح الفلاحون يخبئونها فى سرداب سرى فى البيت حتى لاتمتد اليه يد السلطة ! والفلاح يخرج ببهيمته الى الغيط فى الصباح ، يحرسها بعينيه ، ويدعو الله ألا يعود من غيرها آخر النهار !. وكانت السلطة تجمع الأنفار وتشحنهم فى قطارات البضاعة الى فلسطين حيث ميدان الحرب . وعلى أفواه الشعب تردد أنينه فى شكل ألحان شعبية ، أذكر منها أغنية مطلعها يقـــول :

ولـــدى يا ولـــدى والسلطة خدت ولدى !

● فى المجتمع ينتصر الخير على الشر بالتقاليد ، والقوانين ، والسجون. وفى دنيا السياسة ينتصر الشر على الخير .. بدليل أن الحرب تسخن وقد تبرد ، لكنها أبدا مستمرة .. ما تعليلك ؟

ــ ان السلوك الداخلى فى المجتمع يضمنه جزاء محسوس لا يسمح للشر بأن ينتصر .. أما فى المجال الدولى فليس هناك جزاء يمكن أن يوقع على الدول البادئة بالعدوان .. صحيح أن هيئة الأمم الآن تملك أسلحة كثيرة مثل الضغط السياسى ، والمقاطعة الاقتصادية ، وتحرك القوات الدولية أحيانا لقمع العدوان .. ولكن هذه الجزاءات فى الواقع تسيطر عليها الدول الكبرى ، وهى التى تقوم عادة بالعدوان على الشعوب الصغيرة ! .

ولذلك ينتصر الشر ، ويعيش العالم دائما فى حالة حرب ساخنة أو باردة !.

● قطعا أنت لم تزر الجنة .. ولكن من خلال عقيدتك وقراءاتك هل تستطيع أن تصفها كما تتصورها .. وما شكل النار ؟!

ــ ان أشواقى الروحية تتلخص فى أن ارتاح من القلق وعدم الاطمئنان للمصير . وساكون حتما فى الجنة فى اللحظة التى تتحقق فيها أشواقى الروحية !. أما النار فأنا أستطيع أن أصفها لك باسهاب .. أستطيع أن اصف لك حياتى !.

● الرأسمالية تتفكك عالميا وتفوح منها رائحة مساوئها .. والاشتراكية ــ خارج الاتحاد السوفييتى ــ عدل منهاجها فى يوغوسلافيا .. وعدل عنها فى منتصف الطريق فى انجلترا ، ولكنها تسير بتطبيقات عربية وأفريقية ناجحة فى مصر والجزائر وغانا خصوصا .. أى النظم اذن اصلح لهذا العالم ؟.

ــ لقد تغير مدلول هذه المذاهب الاقتصادية بمرور الزمن .. فشيوعية لينين غير شيوعية ستالين وشيوعية خروشتشيف .. ورأسمالية مونرو التى قامت على العزلة غير رأسمالية أمريكا الآن التى تتعطش الى الأسواق بجنون وتتحول رغم أنف الاحتكارات الأجنبية نحو الاشتراكية .. وقد اخترعت أمريكا مذهبا جديدا لتحارب به الشيوعية اسمه « الرأسمالية الشعبية » ويقضى المذهب الجديد بتوزيع أسهم الاحتكارات والشركات على أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب الأمريكى .. والرأسمالية الشعبية فى اعتقادى خطوة فى الطريق نحو الاشتراكية !.

ان أصلح النظم لهذا العالم على الاطلاق هي : اشتراكية في المجال الاقتصـــادي ، وديموقراطية في المجال السياسي ..

● **اذا حللت نفسك تجد كم «عقدة نفسية» وكم «مركب نقص» ؟ !**

ـ أنا لست معقدا تقريبا.. فقد نشأت نشأة هينة.. لم يتزوج أبي على أمي . وتفوقي في الدراسة اكسبني ثقة بنفسي ، وكانت هذه الثقة هي سلاحي الوحيد الذي واجهت به أعاصير حياتي ! .

● **ما هي أغرب عاداتك ؟**

ـ التدخين بافراط .. فأنا لا أستعمل الكبريت مادمت قد أشعلت أول سيجارة في الصباح ! وأظل أدخن باستمرار فلا يمنعني من التدخين الا النوم ! انني أدخن ١٣٠ سيجارة في اليوم !

● **كم مرة بكيت في حياتك ؟**

ـ مرة واحدة بكيت فيها بكاء يكفيني العمر كله .. كانت لي أخت اسمها « فاطمة » ماتت محروقة وأنا في باريس ولم يكتبوا لي بخبر وفاتها .. وعندما عدت قالوا لي لقد أوصت وفي صدرها حشرجة أنفاس الموت أن نقول لك عندما تعود : انها ذهبت لتحج وبقيت هناك في أرض الله .. !

وبكيت .. بكيت من قلبي دما ، ومن عيني دمعا .. وظللت ابكي حتى استحالت عيناي الى نتفتين من اللحم الأحمر .

***

بيرم التونسي

من الأول .. ياعم بيرم !

« وقفت الباخرة فى ميناء بور سعيد .. لمحت أحد البمبوطية فقلت له : الواحد يقـــدر ينزل يتفسح ؟. فهم .. وقال : امشى ورايا ! قبلت تراب بورسعيد عندما دست عليه .. أعطيت البمبوطى ٦٠ قرشا ثم جريت الى المحطة .. ركبت القطار ، ووصلت القاهرة مع بوادر عتمة المساء .. بعد ٢٠ سنة فى المنفى ! »

واحد مثل بيرم التونسى لا يجهدك أن تكتب عنه ٠٠ يكفى أن تقـول له « كيف الأحوال ياعم بيرم ؟ » فيأخذك من يدك الى أقرب قهوة بلدى ، ويجلس معك الساعات التى تريدها يكلمك عن أحواله ! يقول لك : «كل يوم يا ابني يمر على تزيد رغبتى فى الابتعاد عن النـاس ٠٠ لو أغلقت فمى بقفل ورميت مفتاحه فى البحر لن أقول لك : بعمل ايه ٠٠ شهر ، شهرين بقية العمر ، لا يهم ٠٠ فالبعد عن الناس غنيمة » !٠

ثم يؤيد كلامه ب « كوبليه » زجل كتبه سنة ٢٠ ٠٠ ويستأنف كلامه: « عشت عمرى ٥ مرات فى المنفى ، وبعد سن ال ٦٥ استقرت بى الأحوال ٠

لم أعد أطمع فى تغيير مسكنى ، مع أنه شقة فى قاع التواضع ، تقف على ساق واحدة فى حى « فم الخليج » ٠٠ كان ايجارها ١٨٠ قرشا ، رفعته الى ٣ جنيهات ــ بعد قانون التخفيض الأخير ــ لأجامل صـــاحب البيت !٠ ولم أعد أطمع فى تغيير امرأتى ، رغم أنها عجوز لا تقرأ ولا تكتب ولا تختم ٠٠ فليس لديها « ختم » !٠

أنا شيخ بلا مطامع ٠٠ ولكنى لا أخلو من أمل تحـرقنى ناره ٠٠ ان أربى طفلين هما أصغر أبنائى ، أو أتركهما فى ستر من زمن غدار !٠ »

وتكون غبيا اذا سألت بيرم التونسى عن سر اتجاهه الى كتابة الزجل ٠٠ سيقول لك ، وكأنه « يملص » أذنيك بكلامه ، انه حشى مخه ب ٣٠ ألف بيت شعر من مختلف عصور الأدب قبل أن يكتب أروع أزجاله !.

ثم يشـــكو لك من الصحافة ٠٠ والمفروض أنه ــ فوق الزجـل ــ صحفى !٠ يقول لك : « أنا عارفك ابن حلال ٠٠ انما أنا لا أتحدث الى صحفيين ٠٠ بيفبركوا على الأخبار !٠ أبقى قاعد فى أمان الله أشرب فنجان قهوة سادة على « قهوة العمال » جنب البيت ٠٠ ألاقى نفسى اتخانقت مع أحمد رامى ، وعملت ١٠ عقود لكتابة أغانى أفلام ، وقبضت ٥٠٠ جنيهمن « مكتب باريس » قيمة أجر الأداء العلنى لأغانى القديمة !٠

٠٠٠ وساعة على هذه الحال ٠٠ وأجد زمام الكلام سيفلت من يدى ٠٠ فأقول له : ياعم بيرم ٠٠ نتكلم من الاول !٠

***

قال لى بيرم التونسى :

● تونس تحت الاحتـــلال الأسبانى ٠ غزتها الدولة العثمانية سنة ١١٠٠ هـ ٠ أرسلت اليها جيشا يقوده ضابط تركى اسمه « بيرم » ! طرد

بيرم قوات الاحتلال الاسبانى وأخضع تونس للاحتلال العثمانى ، وأقام هناك بقية عمره • هاجر بعض فروعه وأحفاده الى الاسكندرية واشتغلوا بالتجارة ومن بينهم جدى •• ومازال بيتنا فى مدينة تونس للآن بعد أن أصبح مقرا لمشيخة الاسلام ودار الافتاء التونسية ••

اسمي الحقيقي : محمود محمد مصطفى •• كانت الاسكندرية مليئة بأسماء « بيرم » من مختلف الجنسيات •• بيرم التركى ، وبيرم الكريتلى •• أطلقوا على اسم « بيرم التونسى » !•

● ولدتنى أمي في ٤ مارس سنة ١٨٩٣ •• كنا نسكن حي الأنفوشي •• وكان أبى تاجر حرير فى سوق المغاربة • تزوج أبى امرأة أخرى ، وكان يملك — ضمن ما يملك — ٥ آلاف جنيه ذهبا •• قتلتـــه زوجته • دست له الزرنيخ على جرعات حتى مات ، واستولت على ثروة الذهب !

● دخلت كتاب الشيخ جاد الله •• كان الشيخ جاد يحفظنا حروف الهجاء بطريقة « منغمة » كالتواشيح •• كنا نقرأ الحروف ساعة أو أكثر بلا ملل •• وأعتقد ان هذه أنسب طريقة تحفيظ الأطفال حروف الهجـاء وتعليمهم القراءة والكتابة •• أما طريقة تحفيظ الحروف بالجملة — طريقة شرشر التى تتبعها وزارة التربية والتعليم هذه الأيام — فتتنـــاسب مع الحروف اللاتينية فقط •• ان الحروف اللاتينية عددها ٢٦ حـــرفا ، بينما الحروف العربية — بأشكالها المختلفة في أول الكلمة ووسطها وآخرها — تزيد على ٨٠ شكلا !•

● دخلت مدرسة الرشـــاد الابتدائية • مدرس اللغة العربية كان « فقى » يعمل فى المدرسة فى الصباح بمرتب ٨٠ قرشا ، ويقرأ بعـــد الظهر فى المآتم ويمشى فى الجنازات كمساعد حانوتى !• ولم يكن لمدرس العربى قلب •• كان يرسل الشرر من عينيـــه ويقول : « جاء زيد •• يا أولاد الكلب » و « ذهب عمر •• يا أولاد الجزمة القديمة » •• ثم ينهال علينا صفعا بلا مناسبة !•

كرهت المدرسة • خرجت منها بعد وفاة أبى وقعدت مكانه فى المحل أتربع على « الكنبـــة » وسط أكداس الحرير •• اتخذنى « صنايعية » المحل صبيا لهم مع أنى صـــاحب المال •• كانوا يرسلوننى أشترى لهم العيش والفلافل والدخان المضغ !•

لم يهتم أحد باعادتى الى المدرسة •• وبمرور الوقت نسيت الحروف التى تعلمتها • أصبحت أميا !•

***

● عشت فى بيت خالى ، وكان مقاولا ٠٠ جاء أحـــد البنائين ليأخذ اجرته وجلس فى الحوش ينتظر ٠٠ سمعته يردد قصة «السلك والوابور»، وهى محاورة خفيفة الدم بين التلغراف والقطار كتبها الشيخ عاشـــور مؤلف طقطوقة « امتى الهوى ييجى سوا » التى تغنيها أم كلثوم ٠٠ ذهبت الى حى الشمرلى ، واشتريت قصة « السلك والوابور » وبقية السلسلة الشعبية !٠

غرقت فى بحر من الأساطير الشعبية ، الى أن قرأت « ألف ليـــلة وليلة » ، فازداد نهمى الى هذا النوع من الثقافة ٠٠

● سكن فى بيتنا أستاذ تركى اسمه محمد طاهر ٠٠ لمح ميلى الى الشعر فاهدانى كتابا فى علم « العروض » . سهرت على الـكتاب ، وفى ليلة واحدة حفظت الـ ١٦ بحرا وفروعها . شرح لى محمد طاهر معنى قصيدة تركية يخاطب فيها الشاعر « الساعة » وطلب منى أن أنظمها فى شعر عربى .. فكتبت أقول :

قلت للســاعة مـــاذا	فيك من معنى الحياة
فأجابت لى شــــأن	مـــدرك بالانتبــــــاه
قـــد تأوهت لأمـــر	غـــير ما أنت تـــراه
أنا أبكى العمــر ياغا	فــل حتى منتهـــاه
كلمــــا زاد انصراما	زدت فى قولى : آه !

كتب الخطاطون القصيدة على لوحات خشبية وباعوها فى الأسواق ! كتب صاحب « الأنابيش » عن القصيدة فى أول انبوشة له فى جريدة « المصرى » ، وقال عنها انها لشاعر عربى قديم . !

● تزوجت وعمرى ١٧ سنة ! اشتغلت فى تجارة « الكونتراتات » بسوق المغاربة . كنت أشترى العقود من البورصة ثم أبيعها . خسـرت فى التجارة معظم ما ورثته ! بقى مبلغ ألف جنيه اشترى بها زوج أمى بيتا لى . كان موظفو البلدية يقدرون « عوائد » البيت جزافا ، فكنت أدفع ايراد البيت كله للبـــلدية ! كتبت قصيدة هجوت فيهـــا المجلس البلدى ٠٠ قلت فيها :

اذا الرغيف أتى فالنصـــف آكله	والنصف أجعله للمجلس البلدى !
كأن أمى ابل الله تربتهـــــــا	أوصت وقالت: أخوك المجلس البلدى!
يا بائع الفجل بالمليم واحـــــدة	كم للعيال٠٠ وكم للمجلس البلدى؟!

ترجم موظفو البلدية ــ وكان كلهم أجانب ــ القصيدة الى اللغـــات الأجنبية ٠٠ نشرها عبد القادر حمزة فى جريدة « الأهالى » ٠٠ ذاعت فى

القطر كله ·· طبعت منها ١٤ ألف نسخة على حسابي وبعت النسخة بتعريفة !·

··· كانت هذه هي بداية حياتي الأدبية !·

● قامت ثورة ١٩ · تحمست للأحداث الوطنية ونظمت أشعارا ملتهبة ، ولكني وجدت ان الشعر وسيلة محدودة الانتشار بين شعب ٩٥٪ منه لا يقرأون ! انتقلت الى القاهرة وطلبت رخصة مجلة أصدرها · رفض طلبي «خلاط بك» مدير المطبوعات · عدت الى الاسكندرية وأصدرت جريدة من غير رخصة باسم « المسلة » ·· وكتبت تحت الاسم : « لا جريدة ولا مجلة » !

ميع الانجليز ثورة ١٩ وحولوها الى فرح عريسه الملك فؤاد ، « وعوالمه » نواب مزيفون في برلمان مزيف !· جلس فؤاد على العرش وتزوج نازلي وأنجب فاروق بعد ٤ شهور من زواجه !· وكتبت زجلا أهجو فيه الملك وشرفه المذبوح ·· قلت فيه ·

البنت ماشية من زمان تتمخطر والغفلة زارع فى الديوان قرع أخضر
العطفة من قبل النظام مفتوحة والوزة من قبل الفرح ··مدبوحة!

وكان هذا هو أخف ما في الزجل ، أما بقيته فلا يمكن نشرها الآن ·· كان اسمي مقيدا مع الجالية التونسية في القنصلية الفرنسية ·· صدر أمر ملكي بنفيي من البلاد !·

● كان ذلك في أواخر سنة ١٩ ·· خرجت من ميناء الاسكندرية على ظهر الباخرة «شيلي» في طريقي الى تونس ·· اعتبرتني الادارة الفرنسية في تونس بشير الثورة في المستعمرات ·· فوضعتني تحت المراقبة ، وقبضت على معارفي وأصدقائي ! هربت بعد ٤ شهور الى فرنسا ·· تزلت في مدينة ليون · وليون مشهورة عند الفرنسيين بأنها مدينة معتمة لا تشرق الشمس عليها ، وأهلها يتميزون بالجهالة والبخل وقسوة القلب ·· حاولت أن أعمل لآكل ، ولكن العمل هناك محرم على الأجانب ·· أمضيت شهورا كالصعلوك التائه ·· عرفت كيف أقاوم البرد بلا ملابس ولا مأوى ، وكيف أتحمل الجوع بلا طعام ·· فلم أكن آكل أكثر من وجبتين في الأسبوع !·

● انفتحت أبواب الفرج ووجدت عملا في شركة « المنتجات الكيماوية العالمية » ·· كانت الشركة تعمل في المعادن القذرة والغازات الكيماوية الخانقة ، ولم تكن تشترط في العامل أكثر من بنية قوية تتحمل العمل المضني ·· اشتغلت عاملا ب ٢٠ فرنكا في اليوم ، وهو مبلغ يكفل القوت

الضرورى جدا ‥ فاذا امتنع الانسان عن شرب النبيذ وأكل الفاكهة ، أمكنه أن يدبر أجرة السفر ليهرب من ليون الى أى مدينة أخرى !٠

***

● عدت الى مرسيليا وأقمت فيهـــا ٥ سنوات ٠ تنقلت من مدينة الى مدينة حتى وصلت باريس ٠ سمعت أن ســـعد زغلول في باريس ، فذهبت اليه لينقذني ‥ ادخلوني شقته المفروشة في حي الشانزيليزية ، وخرج الي وهو يرتدى بيجامة من حرير ، وسألني بخشونة : عايز ايه ؟‥ حكيت له قصتي فكان يقـــاطعني من حين لآخر بســـخرية وهو يقول : « ماشاء الله ‥ ايه تاني ؟‥ عاوز تقول ايه كمان ؟! » ٠ ولم أكن قـــد أكملت قصتي عندما قال لي : « طيب اتفضـــل مع السلامة » ‥ وأشـــار بيده الى باب الشقة !

● حدثت أزمة بطالة بين عمال فرنسا سنة ٣٢ ، فأعادت السلطات الفرنسية كل العمال الأجانب الى بلادهم ‥ عـدت الى تونس وأمضيت فيها ٥ سنوات أعمل في جريدة لا تقرأ اسمها « الزمان » ! جاءت وزارة « ليون بلوم » الاشتراكية في فرنسا فأباحت حرية الكلام في المستعمرات٠ كان على كل من يريد اصدار جريدة جديدة أن يبلغ البوليس عن عنوانه ويدفع رسما ٦ فرنكات ‥ أبلغت البوليس عن عنواني ودفعت ال ٦ فرنكات وأصـــدرت جريدة « الشباب » ‥ انتشرت الجريدة وأصبحت تقرأ من أول تونس حتى الدار البيضاء ‥ قررت الســـلطات الفرنسية أن تنفيني الى داكار في السنغال ‥ قابلت محافظ المـــدينة وقلت له : ان كنتم مصرين على نفيي ‥ فأنا أفضـــل أن أنفى الى سوريا ٠ عشت في ســـوريا سنة متخفيا لا يعرفني أحد ٠ أخرجتني السلطات الفرنسية من سوريا بعد أن أقمت فيها أكثر من المدة المقررة ، ووضعتني على ظهر باخرة مسافرة الى مرسيليا ٠ وقفت الباخرة في ميناء بور سعيد ‥ لمحت أحد البمبوطية فقلت له : الواحد يقـــدر ينزل يتفسح ؟ فهم البمبوطي قصدي ‥ وقال بهمس : امشي ورايا !

قبلت تراب بور سعيد عندما دست عليه ‥ أعطيت البمبوطي ٦٠ قرشا ، ثم جريت الى المحطة ‥ ركبت القطار ووصلت القاهرة مع بوادر عتمة المساء ‥ بعد ٢٠ سنة في المنفى !٠

● أذاع راديو القاهرة نبأ هروبي من البـــاخرة ‥ كنت لا أغادر البيت الا في المساء لأجلس على مقاهي عماد الدين ‥ لم يكن أحد يعرفني ما عدا بائع يانصيب كان يعترضني كل مســـاء ويقول : تاخـــذ ورقة يا خواجا !٠

انكشف أمرى ، وكتبت الصحف تطالب بالعفو عنى . أصدر أحمد حسنين « باشا » أمرا الى البوليس بعدم التعرض لى .!

● اشتغلت فى روزاليوسف . كتبت أغانى وحوار ١٣ فيلما بدويا منها : رابحة ، عنتر وعبلة ، سلامة . اشتغلت فى دار أخبار اليوم والمصرى وجريدة الجمهورية .

أنا الآن عاطل .. انتظر أن تدعونى الاذاعة من حين لآخر لأكتب لها أغنية فى مناسبة مقابل ١٠ جنيهات !

***

قلت لبيرم التونسى :

● **الى أى حد تقف امكانيات التعبير بالزجل .. هل يمكن التعبير به عن المعانى غير الشعبية ؟..**

ـ لقد عبرت بالزجل عن كل المعانى .. كتبت فى السياسة والفلسفة ، وكتبت أيضا أزجالا صحية !

● **كيف تؤلف أزجالك .. هل تفتعل الجو الذى تكتب فيه ؟**

ـ ان لى عقلين .. عقلا أؤلف به ، وعقلا أمارس به تصرفاتى السلوكية الأخرى .! وقد أكتب الزجل وأنا أتشعلق على سلم الترام ، وقد أكتبه وأنا عند الحلاق أو وأنا طالع على سلم الاذاعة .. وأشق أنواع الأغانى التى أكتبها هى أغانى المناسبات مثل تهانى الحجاج ، وابتهالات رمضان، وزفة العروسة ، والاحتفال بشم النسيم .. فمعانيها مستهلكة ومجال التجديد فيها محدود !

● **فى نظرك .. ماهى رسالة الأغنية ؟**

ـ الأغنية مدرسة .. تستطيع أن تحملها قيما سليمة ، أو تدس فيها سموما خبيثة ، انها أخطر أداة للنشر فى هذا العصر .. والمحزن ان لا أحد يقدر خطر الأغنية .. لا المؤلف ، ولا الملحن ، ولا المطرب !

● **قرأت ما يعادل ٣٠ معلقة من الشعر قبل أن تكتب الزجل . بمن تأثرت من الزجالين والشعراء القدامى ؟**

ـ روح الهجاء التى اتسمت بها أزجالى سرت الى من أشعار ابن الرومى وأزجال محمد توفيق صاحب جريدة « حمارة منيتى » .. وكانت « حمارة منيتى » تصدر سنة ١٢ ، وكان الخديو عباس حلمى يؤجر صاحبها ليشتم الشيخ محمد عبده . وأسلوب محمد توفيق فى الهجاء كان يضحك طوب

الأرض ٠٠ رجل واحد فلت من هجائى هو نورى السعيد ٠٠ كنت أتمنى أن أهجوه ، ولكنهم قتلوه ٠٠ فنفد بجلده !

● **حياة الصعلكة التى عشتها فى باريس قطعا أثرت عليك ؟**

ـ أبدا ٠٠ لقد شاهدت كثيرا من الطلبة الشرقيين يتخلون عن فضائلهم الشرقية ويغرقون فى مخازى باريس ٠٠ أما أنا فقد تمسكت بأهداب العفة ٠٠ ربما لأننى لم أكن أملك ثمن اللذة ، فقد كنت مفلسا دائما ٠!

● **ماهو اسوأ ما فى الأغنية المصرية ؟**

ـ العاشق المحب ٠٠ انه دائما مطرود يقف على الباب يلطم الخدين ويمسح دمع العينين ٠٠ وهو تكلف ممقوت وتزوير عاطفى ٠٠ ان الحب ليس هكذا !

● **من أيام الشقاء ٠٠ ماذا جنيت غير الشقاء ؟**

ـ لم أجن غير شيئين :

صيت بالغنى ٠٠ وشهرة الغنى تعجبنى ٠٠ فالناس يحترمون الرجل الغنى بلا مناسبة ! ورغبة دائمة فى الابتعاد عن الناس ٠٠ وأنا أعمل بقول الشاعر الريفى :

بعدك عن الناس أحسن لك وأبقى لك
يتلم عرضك ٠٠ ويتوفر عليك مالك !

***



چورج أبيض

((المرحوم))

هكذا عشت آخر ايامى !

((ان چورچ أبيض لا يتحدث عن نفسه .. انه يقف فقط على المسرح تلفه أردية أبطال التاريخ .. ثم يفتح حنجرته وينطلق بصوت له عرضه وعمقه وطوله ، ليمثل دور « لويس أونز » أو « أوديب الملك » أو «الأب ليونار)) ..

وأمام چورچ أبيض ، ليجلس فى صالة المسرح من يشاء من كبار النقاد . ليجلس فكرى أباظة ومحمد التابعى وفتحى رضوان .. وغيرهم ممن شاهدوا چورچ أبيض وحفظوا أدواره عن ظهر قلب ، وعاصروا معه أيامه الذهبية . وبعد ذلك ليخرجوا أقلامهم ويكتبوا نقدهم ..

.. وسيكون نقدهم تسجيلا وتحليلا لمجد چورچ أبيض !)) .

لا تطلب منى ان أحدثك عن نفسي .. فلن أستطيع آن أستعيد أمامك مجد جورج أبيض .. لقد ربطنى بالمسرح عشق قديم .. تسللت خطاه الى قلبى من ٦٠ سنة .. وقد عشت هذا العمر الممدود أصنع أمجادى علنا أمام الجماهير !

لا تطلب منى ان اجهد قواى لأتذكر ماضى من ٦٠ عاما .. اننى فى نهاية أعوامى الثمانين ، فقد فقدت القدرة على التركيز .. وأصبح الأمس بالنسبة لى شيئا كفسق الليل .. لا معالم ولا تفاصيل . ولا تواريخ ولا ذكرى .. الا ما يذكرنى به الآخرون . !

ان جورج أبيض لا يتحدث عن نفسه . !

ان جورج ابيض يقف فقط على المسرح تلفه اردية أبطال التاريخ .. ثم يفتح حنجرته وينطلق بصوت له عرضه وعمقه وطوله ، ليمثل دور « لويس أونز » أو « أوديب آلملك » أو « الأب ليونار » ..

وامام جورج أبيض .. ليجلس فى صالة المسرح من يشاء من كبار النقاد .. ليجلس فكرى أباظة وفتحى رضوان وعباس العقاد .. وغيرهم ممن شاهدوا جورج ابيض وحفظوا أدواره عن ظهر قلب .. وعاصروا معه أيامه الذهبية ..

وبعد ذلك ليخرجوا هم أقلامهم ويكتبوا نقدهم .. وسيكون نقدهم تسجيلا وتحليلا لمجد جورج أبيض . !

آن جورج أبيض رغم أعوامه التى اشرفت على الثمانين .. ورغم وهن الشيخوخة ينقلب على المسرح الى شخصية حية تتحرك بخطى الشباب ..

ان جورج أبيض لا يتكلم ولا يعبر عن نفسه .. الا من فوق خشبة المسرح ..

وتلفت « شيخ المسرح » حوله فوقعت عيناه على ستائر حجرة صالون بيته .. لقد فصلها بشكل ستائر المسرح ، وصنعها من نفس القماش .. الجوخ الأخضر !.

والتفت الى .. وبدا على وجهى اننى انتظر منه أن يتكلم .. وأهاجت ستائر الصالون فيه ملكة الكلام .. فتكلم . !

***

قال لى جورج ابيض :

● اننى هذه الأيام كمستنقع كبير .. حياتى ركود ، لا عمل ولا أمل .. لقد كسروا كرامتى وقطعت الفرقة القومية معاشى الهزيل .. وبقيت هنا حبيس جدران البيت .. لم أعد ادخل بيتى لأنى لم اعد أخرج منه ! ركود وكلل وملل وشعور طاغ بالضياع .. وهـذه هى آخر أيام چورچ ابيض ! .

● اول أيامى بدأت فى ٥ مايو سنة ١٨٨٠ ، ولدت فى بيروت .. دخلت « مدرسة الفرير » ببيروت وأخذت منها « سيرتيفيكا » وعمرى ١٢ سنة . دخلت بعدها مدرسة الحكمة القانونية واخذت منها دبلوما يعادل البكالوريا سنة ١٨٩٧ .

عشقت التمثيل وانا فى مدرسة الحكمـة . اشـتركت فى فريق التمثيل وكنا نمثل باللغـة الفرنسية .. مثلنا معظم روآيات الكسندر ديماس المشهورة . نسيت زملاء الدراسة .. كلهم تقريبا أخذهم الموت . لم يبق غير زميل يعمل محاميا فى الاسكندرية .. لا اذكر اسمه .. آه تذكرته .. إسمه « الفريد دميا » . !

اخذت « كورس » فى علم التلغراف . درسـت أجهزة الارسـال والاستقبال واشارات موريس . اشتغلت موظفا فى تلغراف محطة سكة حديد بيروت . بقيت فى بيروت سنة واحدة .. انتقلت بعدها الى محطة « حوران » بجبل الدروز ..

ضقت بلبنـان .. كانت حيـاتى رتيبة مملـة . وكان لى عم فى الاسكندرية اسمه « سمعان أبيض » كون لنفسه ثروة من التجارة .. فكرت أن أسافر الى الاسكندرية وان أبقى فيهـا وأكتسب الجنسـية المصرية . استقلت من عملى وركبت باخرة صيد صغيرة من بيروت فى طريقى الى الاسكندرية .. وكان ذلك سنة ١٩٠٠ .

● اشتغلت ناظر محطة سيدى جابر . اشتركت فى نادى الخـريجين ـ خريجو مدرسة الفرير ـ بالمنشية .. كونت فريقا للتمثيل من أعضاء النادى .. كان للنادى مسرح صغير كنا نمثل عليه .. مثلنا روايات كثيرة بالفرنسية أذكر منها رواية « القروش الحمراء » ورواية « مراكبى الموت » وكان معظم الروايات آلتى نمثلها لمؤلفين مغمورين من الهواة !

● سنة ١٩٠٢ جاءت فرقة ايطالية على رأسها الممثل الايطالى المشهور « ايرميتى نوفيللى » .. مثلت الفرقة روائع المسرح العالمى على مسرح

دار الاوبرا بالقاهرة وتياترو « زيزينيا » بالاسكندرية .. تركت عملى وسافرت وراء الفرقة الى القاهرة لأشهد كل حفلاتها ·· وعادت الفرقة الى الاسكندرية فحجزت لنفسى مكانا دائما فى تياترو زيزينيا !

درست حركات «ايرميتى نوفيللى» وطريقته فى التمثيل .. وزنت موهبته فوجدت اننى موهوب مثله .. اصبح يقينا فى نفسى أن مستقبلى على خشبة المسرح ، وليس على رصيف محطة سيدى جابر !.

● كونت فرقة من الهواة .. كان أعضاء الفرقة من معارفى .. واحد مهندس ، والثانى دكتور ، والثالث محام ·· جمعتهم الهواية فى فرقة واحدة .. وكنت أحيانا أضطر الى اسناد بعض الأدوار النسائية لزوجات الممثلين وبناتهم .. وكنا نقيم حفلاتنا على مسرح زيزينيا .

● اكتشفت أن الهواية لا تكفى .. وان موهبتى فى حاجة الى عملية صقل علمى .. كتبت مذكرة طويلة الى الخديو عباس حلمى . قلت له أن المسرح المصرى فى حاجة الى نهضة واننى مستعد أن أقيم نهضته على أكتافى ! وطلبت منه أن يرسلنى فى بعثة على حسابه الى فرنسا لأدرس التمثيل ثم أعود ·· ولم يرد على الخديو !

ارسلت له مذكرة بعد شهور قلت فيها نفس المعنى ، وطلبت منه ان يشهد مسرحية «لاتور دى تل» التى سأقدمها بفرقتى على مسرح زيزينيا يوم ٢٩ يوليو سنة ١٩٠٤ .

ووقفت يوم الحفل على باب المسرح افرك يدى من القلق .. ثم فوجئت بركب الخديو يتجه الى المسرح ، فهرولت الى الداخل وقلبى يقفز من الفرحة . !

مثلت دور « برودان » فى المسرحية .. اعجب الخديو بطريقتى فى التمثيل . استدعانى الى مقصورته قبل الفصل الأخير وقال لى : مبروك .. استعد للسفر الى باريس لتدرس التمثيل على نفقتنا . !

● اغسطس سنة ١٩٠٤ ، ركبت الباخرة الى فرنسا .. تتلمذت فى باريس على البروفسور سيلفان اشهر ممثل مسرحى فى فرنسا .. كانت للبروفسور سيلفان فرقة مسرحية تقوم برحلات فنية الى مدن فرنسا وبلاد المغرب . سافرت مع الفرقة الى بوردو وتولوز ومارسيليا وسائر مدن فرنسا والجزائر ومراكش ..

● عدت الى مصر فى سنة ١٠ ، كان لى بيت ورثته فى بيروت . رهنت البيت قبل عودتى ، وجمعت فرقة فرنسية وأحضرتها معى على حسابى ، قدمت مع الفرقة مسرحيات كثيرة على مسرح دار الأوبرا ··

مثلنا : أوديب الملك • هوراس اندروماك • الشيخ متلوف • كنا نمثل بالفرنسية • شهد سعد زغلول مسرحية أوديب الملك فأبدى اعجابه بتمثيلى ، مع انه كان لا يجيد الفرنسية ، وطلب منى أن أنهى عقود الفرقة الفرنسية ، واتفرغ للاهتمام بالتمثيل العربى .

● كونت أول فرقة تحمل اسمى سنة ١٢ • أسس معى الفرقة عزيز عيد وعبد الرحمن رشدى وأحمد فهيم ومحمد بهجت وفؤاد سليم وعبد العزيز خليل •• وكل هذه الأسماء صعدت الى العالم الآخر ، ماعدا عبد العزيز خليل •

بدأنا بالروايات المترجمة نمثلها على مسرح الأوبرا .. ترجم لنا خليل مطران رواية « عطيل » . والياس فياض ترجم « لويس الحادى عشر » . وترجم فرح انطون « اوديب الملك » .

● أحييت بفرقتى روائع المسرح العالمى .. اتجهت بعد ذلك الى خلق ادب مسرحى محلى .. كتب فرح انطون للفرقة رواية « صلاح الدين ومملكة أورشليم » ، و « مصر الجديدة » وهى رواية عصرية .. الف لطفى جمعة المحامى رواية « قلب امرأة » وكتب ابراهيم رمزى رواية « الحاكم بأمر الله » .

● تزوجت السيدة دولت أبيض سنة ٢٣ بعد قصة حب حارة . كان لزوجتى بنت من زوج سابق • وأنجبت منها بنتا وحيدة وولدا وضعته على ظهر الباخرة وهى عائدة من أمريكا ، ولكنه مات بعد أيام . كانت دولت الدعامة الكبيرة فى فرقتى .. كنت أسند اليها أدوار البطولة فى المسرحيات . وكان لها الفضل فى نجاح الفرقة وفى تغلبها على الأزمات .. كانت دولت بطلتى وزوجتى وشريكتى فى الكفاح !

● ظلت الفرقة ٢٢ سنة تحيى فن المسرح .. أقامت حفلات فى كل مدينة فى مصر وفى سائر بلاد الشرق الأوسط سافرت بها فى رحلات فنية الى فلسطين والأردن ولبنان وسوريا والعراق وليبيا وتونس والجزائر ومراكش .

مرت بالفرقة ازمات كثيرة .. توقفت عن العمل .. حلت وشكلت من جديد .. خرج منها أعضاء قدامى ودخلت مكانهم مواهب جديدة !

ثم حلت الفرقة نهائيا سنة ٣٥ عندما حلت الحكومة الفرقة الأهلية واندمجت فرقتى مع فرقة رمسيس وفرقة عكاشة وفرقة منيرة المهدية وتكونت منها جميعا « الفرقة الحكومية » • اشتغلت فى الفرقة الحكومية

بمرتب ٤٠ جنيها وكان أكبر مرتب فى الفرقة ، وكان حسين رياض يعمل أيامها بمرتب ٣٥ جنيها .

● اشتغلت بالسينما . كنت أول من أنتج فيلما ناطقا فى مصر سنة ٣٢ . أول أفلامى « انشودة الفؤاد » عرض سنة ٣٢ ، وآخر افلامى « أنا الشرق » عرض منذ سنوات قريبة .

اشتركت فى تأسيس المعهد العالى للتمثيل سنة ٣٠ ، بقيت فيه حتى الآن أستاذا لفن الالقاء والتمثيل .

***

● قررت اللجنة الفنية الحكومية احالتى الى المعاش وقررت لى معاشا ١٥ جنيها زاد بعد ذلك الى ٢٥ جنيها مع ٢٠ فى المائة من ايراد الحفلات التى أظهر فيها على المسرح .

● قامت الثورة ، وفى سبتمبر سنة ٥٢ استدعانى فؤاد جلال ـ وزير الشئون الاجتماعية فى ذلك الوقت ـ واسند الى منصب مدير « الفرقة المصرية » بمرتب ١٠٠ جنيه فى الشهر . وجدت نفسى غريقا فى مشاكل الممثلين والاداريين و « بيع الليالى » للمتعهدين ، والاشراف على اعلانات الفرقة .. وكنت قد تعودت طول حياتى الفنية مع فرقتى ان اعهد بهذه المسائل الى « مدير ادارة » أدفع له ٤٠ جنيها من الذهب كل شهر لكى أتفرغ أنا للفن ، استقلت من منصب مدير الفرقة بعد سنتين .!

قطعت الفرقة معاشى فى أكتوبر ٥٧ بعد أن تقاضيته ١٥ سنة ورتبت حياتى عليه ، رفعت قضية ضد الفرقة أطالب بحقى المكتسب ..

● اعتنقت الاسلام أنا وزوجتى منذ ٥ سنوات ، اعتنقناه عن عقيدة وكنت مسيحيا كاثوليكيا من الموارنة ، وكانت زوجتى قبطية أرثوذكسية ! كنت طول عمرى أميل الى دين محمد واحاول أن أقرأ عنه وان أفهمه . كنت مسيحيا ولكنك لم تكن تجد فى فرقتى أكثر من ثلاثة أعضاء مسيحيين والباقون مسلمون .. تزوجت بنتاى من زوجين مسلمين وأصبح لنا احفاد مسلمون ، فكان لابد أن نشهر اسلامنا . قالوا لنا فى « المحكمة الشرعية » ان تغيير الاسماء اجراء شكلى فاحتفظت باسمى واحتفظت زوجتى باسمها ! بنيت لنفسى وللعائلة مقبرة فى مدافن المسلمين بالغفير . اصحوا الفجر لأصلى الصبح حاضرا . « أفيونتى » الاستماع الى الشيخ عبد الفتاح الشعشاعى وهو يقرأ القرآن .. انه يذكرنى بحنجرتى وصوته مثل صوتى عريض مشبع !.

***

قلت لشيخ المسرح :

● على المسرح *. ماهو أحسن ادوارك على الاطلاق ؟.

ـ ليس دورا واحدا .. أربعة أدوار : دور أوديب ، ودور لويس الحادى عشر . ودور عطيل . ودور الأب ليونار فى رواية الأب ليونار.!

● وفى السينما ؟..

ـ دور عم ابراهيم فى فيلم « أنشودة الفؤاد » .. فى الفيلم تحدث مأساة للبطل ابراهيم ، يصاب برصاصة تفقده بصره ولكنه يعود اليه بعملية جراحية فى نهاية الفيلم ..

وكان الفيلم مشهورا فى مصر وفى كل البلاد العربية التى عرض فيها .. حدث أن زرت تونس سنة ٣٢ ، وأنا أسير فى شوارع تونس لمحتنى سيدة تونسية فأطلت على من الدور الثالث وصرخت : « عم ابراهيم .. يعايشك » ـ يعنى يطول عمرك ـ وطلبت منى أن أصعد عندها لأشرب القهوة .. وحكت لى السيدة قصتها .. قالت انها حامل ، وانها شاهدت الفيلم ولما رأت عم ابراهيم يصاب برصاصة أغمى عليها وكادت تجهض .. وربتت السيدة بيدها على كتفى وقالت « حمد لله .. برد نارى » !

● من هو جيلك الذى شهد أمجادك الفنية ؟

ـ الجيل الماضى .. الناس فوق سن الأربعين .. أما شباب اليوم فلا يعرفوننى !

● احسن نهضة مسرحية .. أين ؟

ـ فى انجلترا وفى ايطاليا فى نطاق الأوبرا .. وفى أمريكا فى نطاق المسرح الاستعراضى .

● مارأيك فى مدرسة يوسف وهبى فى التمثيل .. ما رأيك فى « الكريشيندو » طريقته المشهورة فى تلوين الالقاء ؟.

ـ كل شيخ له طريقة ..وتقدير طريقة يوسف وهبى فى الالقاء مسألة يكتب عنها النقاد الفنيون . ويوسف له أدوار خالدة مثل دور «راسبوتين» واسكاربيا الحاكم فى رواية « توسكا » ، والكاردينال فى رواية « كرسى الاعتراف » . وعيب يوسف انه لايعترف بمزايا التخصص ، ويريد أن يمثل اى دور فى اى لون ! ولكنه مع ذلك مجتهد .. ولا أحد ينكر فضله على المسرح !

● ماهى احسن مزايا الدين الاسلامى ، بصفتك مسلما ؟

ـ انه دين عملى .. ينظم بدقة كاملة المسائل الدنيوية .

● ينبوع القلق في الشباب : لقمة العيش ، وبناء المستقبل ·· وفي الرجولة الاستقرار ، وتربية الأولاد ·· وفي الشيخوخة ، من اين يتدفق ينبوع القلق ؟

ـ من خشية الله ·· ومن رهبة مواجهة النهاية !

● الانسان يمضي عمره في البحث عن الحقيقة ·· في عمرك الطويل: هل وجدت الصديق ؟·· هل عثرت على السعادة ؟ وماهي الحقيقة الكبرى في هذه الدنيا كما عثرت عليها بعد ٨٠ سنة ؟!

ـ في قلبي صورة للصداقة النقية ، ولكنى لم أجد الصديق الذى تنطبق عليه ملامح الصورة !. وقد تذوقت السعادة في حياتى مرات كثيرة ، ولكنها كانت دائما سعادة ناقصة .. أما أكبر حقائق الحياة فهى القناعة ، انها كنز قارون الذى يمكن أن يملكه الانسان ·· أو يفقده !

● الابن بلا أب : يتيم ·· والرجل بلا ابن ؟

ـ اسعد خلق الله !. فمتاعب الأولاد كثيرة . وخلفة البنات اجمل!.

***



يوسف وهبي

الفنان .. ابن من ؟ !

سوف يزورنى ((عزرائيل)) يوما ما ، فانا أحس بالزمن يسرى فى أوصالى ويسلمنى للشيخوخة ..وان كنت أتوقع أن أعيش اكثر مما اتصور !.

وعندما أصبح جثة بلا روح ، لا اريد من أحـــد ان يبكينى . فانا فى حياتى لم أبلل ســـوى منديلين بالدموع .. منديل لأمى ومنديل لابنتى ((بثينة)) التى طارت الى العالم الآخر فى نفس اللحظة التى كانت ستطير فيها من بيروت الى القاهرة ، وفى قلبها شبابها ! .

كانت امى فى صبا أيامى هى محـــراب حبى .. وعندما وقفت على أعتاب الآخرة كانت آخر همساتها الواهنة دعاء لى .. لقد همست مع آخر دقات قلبها ((ربنا يحبب فيك خلقه يايوسف)) ومن حب الخلق أنا أقتات الآن وأعيش أيامى !.

وعندما اموت لى وصـية : أن يطلق اسـمى على مسرح ومعهد للتمثيل . وأن أدفن بجوار أمى . وأن أسير الى قبرى فى نعش من خشب المسرح القديم ! .

الفنان ليس ابن أمه .! والتاريخ الذى يسجل بخط منكوش فى شهادة ميلاده ليس هو بالفعل تاريخ مولده .. فاليوم الذى يرى فيه الفنان الدنيا يوم عادى كسائر أيام الاسبوع يشترك معه فيه كل أطفال العالم الذين تلدهم أمهاتهم فى نفس اليوم !.

ان الفنان ابن فنه ، وتاريخ ميلاده يتحدد فى اللحظة التى تنطلق فيها أولى آهات الاعجاب بفنه .!

ومئات الممثلين الذين يظهرون الآن على خشبة المسرح ، أو يمثلون فى السينما فيلما وينتجون لحسابهم الفيلم الثانى ، لم يولدوا كلهم بطريقة واحدة .. فمنهم من ولده فنه وهو مازال طفلا لم تجف بعد آثار اللبن فوق شفتيه ! والكثيرون منهم ضربوا باب الفن بالكتف ثم دخلوا بلا استئذان على طريقة رعاة البقر الأمريكان ! ويقولون ان الفن هبة .. وأنا أقول أن الفن قماش ! . فمن له قماشة صالحة .. خيوطها هبة وموهبة . ونسيجها استعداد وتكوين . ويملك القدرة على قص هذا القماش ببراعة .. فانه يستطيع على كر السنين أن « يفصل » من نفسه فنانا ! .

***

على صوت نباح الكلاب المنتشرة فى الفدادين الأربعة التى تحيط بفيلته فى طريق الهرم ، بدأ يوسف وهبى حديثه معى بهذا الكلام .. كان كلامه مع دخان سيجارته ينطلق من بين شفتيه . وكانت عيناى تدمعان من الدخان وأحيانا من الكلام !.

قال لى أستاذ المسرح المصرى :

● أنا ابن الشرق الأوسط كله .. فلى من كل قطر جد !

ابى عبد الله « باشا » وهبى كان فى آخر حياته مفتشا عاما للرى .. وجدى لوالدى اسمه الشيخ هديب قطب ، وكان قاضيا فى تونس قبل أن يهاجر الى مصر .. أما جدى لأمى فاصله من بغداد ، واسمه الحاج على البغدادى ، وقد مات وهو يشغل منصب شيخ الاسلام فى دمشق .. وجدتى لأمى تركية عاشت معظم حياتها فى تركيا ، وان كان أصلها من جزيرة كريت .

● التاريخ المكتوب بخط منكوش فى شهادة ميلادى هو ١٤ يوليو سنة ١٩٠٢ ، وقد أسمانى أبى « يوسف » لأن بيتنا كان يقف فى عزلة على بحر يوسف فى الفيوم ومن حوله الغيطان !

أما تاريخ ميلادى الحقيقى فقد بدأ فى سوهاج ..

وكنت فى السادسة من عمرى عندما جاءت فرقة التمثيل اللبنانية « القرداحى » لتمثل مسرحية « عطيل » فى نادى الموظفين .. وفى اللحظة التى ارتفع فيهـا الستار عن مأساة شكسبير الحزينة ارتفع الستار عن حيـاتى الفنية !

ليلتها عدت الى البيت وأنا ارتجف من الحمى .. ارتفعت درجـة حرارتى وأحسست بالدم يغلى فى عروقى وهو يسير بلا اتجاه ... وفى منامى ، كنت أردد دور عطيل وأنا اصرخ .. مرضت بالمسرح ، لدرجـة اننى عندما شفيت من الحمى ، كنت لااتناول طعامى الا اذا وضـعوا لى ستارا أمام المائدة !.

● شىء أحب أن أقـوله .. فقد ولدت فنيـا وأنا لا أشعر الا بأدوار البطولة .. وعندما شاهدت فرقة « القرداحى » وهى تمثل مسرحية عطيل لم اهتز لشىء فى المسرحية الا لدور عطيل نفسه !

وظللت أسير على هذا الخط المميز طوال حياتى .. فكنت دائما بطـل كل فرقة تمثل على مسرح ! . وأذكر ذات يوم كلفنى مدرس الانجليزى فى مدرسة الناصرية الابتدائية أن أمثل دور – الابن – فى مسرحية صغيرة اسمها « الفـــلاح الأمين » ، فرفضت لأن دور « الأب » فى الرواية كان هو دور البطل .. وقلت له : « لقد قرأت المسرحية . وعشت دور الأب ليلة كاملة .. وأريد أن أمثل هذا الدور !» وبسرعة انحنيت أمامه . . وانطلقت بصوت متهدج أمثل دور الأب ، وصاح فى المدرس : «كأنك شخص آخر .. لقد اسندت اليك الدور » !

* * *

● أصبحت الحياة فى نظرى خشبة مسرح ، وستارا ، وجمهورا لايكف عن التصفيق . كنت أمثل فى مسرحياتى دور اللص والشحات والملك والملحد ورئيس الكهنة . ونضجت قبل الأوان .. وعرفت العشق وعمرى ١١ سنة ، واحترقت بلهيب الغيرة .!

كانت فتاتى شقراء لعوبا عمرها عشر سنين ! . وكل الصبية فى حى عابدين كانت تغازلهم فيطاردونها كالكلاب الصغيرة . ولم تكن تغازلهم الا عندما ترانى ! وكنت أمامها أبدو رجلا وأظهر عدم الاهتمام .. ثم أعود صبيا كما كنت عندما اغلق على غرفتى . واتمدد على السرير احلم بهـا وبطيشها فأمزق الوسادة وأقذف بها فوق الدولاب !

وسلمتنى قلبها فى النهاية ، بعد أن عرفت اننى جدار شامخ لايضعف! وويل لرجل يتحول أمام امرأة .. الى امرأة ! . وقرر أبوها أن يبعدها عنى ، وان يرسلها الى امها فى تركيا ، وانتظرتنى ذات مساء تحت فانوس

الحارة وقالت لى : « انا لن اسافر .. سوف اهرب معك الى أى مكان فى الدنيا » ! قلت لها وكأننى ملك يعتز بعرشه « سيبينى افكر » !واخفيتها اسبوعا كاملا فى بيت احدى صديقات مربيتى « أم رقية » .. وكنت كل يوم أسرق لها الخبز والسمن والجبن والبيض والفه فى خرقة قديمة ، ومن شباك غرفتى أسقط اللفافة الى الحديقة خارج البيت بعد أن أربطها فى حبل الغسيل .. ثم اتسلل الى بيت صديقة مربيتى وانا احمل لحبيبتى الصغيرة طعام اليوم !.

ثم اكتشفوا أمرى وأمرها .. فضربونى واخذوها منى الى الأبد !

● كنا نسكن فى حارة الهدارة بعابدين أمام سراى شريف « باشا » المليئة بالعفاريت .. وكنا نسمع صراخ العفاريت طول الليل !.

وتعرفت على جارى محمد كريم .. وكان أول صديق لى من بين صبية الحارة .. وكنت انا وكريم نذهب معظم أيام الأسبوع الى سينما «ايديال» لنشاهد افلام اللص « فانتوماس » نشاهد الفيلم ونسرق بعض صور الممثلات الأجنبيات من لوحة الـ « أفيش » ونرشقها بالدبابيس فى غرفة نوم كريم التى اتخذناها بعد ذلك أول مركز لنشاطنا الفنى .!

ودخلنا مدرسة السعيدية . وهناك التقينا بمختار عثمان . فانضم الينا وأصبحنا فرسانا ثلاثة لانفترق .! وفوجئنا بامتحان شهادة الكفاءة وكنا قد أمضينا العام لم نقرأ من دروسنا كلمة .. واقترح مختار عثمان ان نحرق خيمة الامتحان .. ووضعنا تفاصيل خطة مدروسة .. مزقنا خراطيم الحريق فى المدرسة كلها . ثم اشعلنا النار فى اللجنة فاحترقت الكراسى وامتدت النار الى الخيمة .. وبسرعة هرب التلاميذ من اللجنة، وفصلنا الناظر من المدرسة فى اليوم التالى!

● أحيل أبى الى المعاش وشغل منصب مدير الجمعية الخيرية الاسلامية . ولم يمض على فصلنا من المدرسة السعيدية أسبوع ، حتى كان ابى قد الحقنا نحن الثلاثة بمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالدرب الأحمر .. وكان ناظر المدرسة هو الشيخ عبد الله حسين الأخ الأكبر للدكتور طه حسين .. ونجحنا فى « الكفاءة » .. وعندما جاء امتحان النقل للسنة الرابعة اقترح عثمان ــ ثانى ــ أن نسرق الامتحان !

وكنا نقلد « فانتوماس » لص الأفلام الأمريكية .. فبتنا ليلة كاملة فى حمام المدرسة .. وعندما لسعنا البرد فتحنا معمل الكيميا واشعلنا خمسة من مشاعل « بنزن » وتدفأنا على لهيبها ثم فتحنا حجرة الناظر بطفاشة ونقلنا أسئلة كل الامتحانات .. ماعدا امتحان الانجليزى ، فلم

نعثر له على أثر . ثم أعـدنا أوراق الأسـئلة مرة أخرى داخل الأظرف وختمناها بالشمع الأحمر !

وانتقلنا الى السنة الرابعة ٠٠ وانضممت الى فرقة « حسن شريف » الذى أصبح بعد ذلك متعهدا لحفـلات محمد عبد الوهاب ٠٠ وانقطعنا عن المدرسة بالأسابيع ، ففصلنا الشيخ عبد الله حسين ناظر المدرسة .. وطلبت الشـيخ عبد الله فى التليفـون وقلدت صوت أبى وأنا أرجـوه أن يعيدنا الى المدرسة ٠٠ ولم يرفض الرجل ، قال لى : أمرك يا باشا !

ودخلنا امتحان « البكالوريا » ولكننا كنا نرسب بالجملة ٠٠ فقـد سيطر المسرح على كل نشاطنـا وشغل كل وقتنا ، ولم يبق فينـا شيء يصلح للتلمذة !

***

● كان ذلك سنة ١٨ ٠٠ عندما كان أبى يسير فى جنازة أحد أصدقائه ولمح على الحوائط اسمى فى اعلانات فرقة عزيز عيد ، فبكى ٠٠ ولمـا سألوه ٠ قال : « أنا لا أبكى صديقى الذى مات ٠٠ اننى أبكى ضياع ولدى » ١٠

وقررت أن أهرب الى ايطاليا ٠ لم أقل لأحد اننى مسافر الا لمربيتى « أم رقية » التى بكت ثم أعطتنى سوارين من ذهب بعتهما ب ١٨ جنيها ، وقطعت تذكرة بالدرجة الثالثة على احدى البواخر بثمانية جنيهات ٠٠

وصلت « ميلانو » فى فجر يوم طمس فيه الضباب معالم المدينة ، واشتد البرد ٠ وحملت حقيبتى على كتفى وسرت فى شوارع المدينـة وأسنانى تصطك وأطرافى تكاد تتجمد ٠٠ وقادتنى قـدماى الى مسرح « ايدن » أكبر مسارح المدينة ، فجلست على باب المسرح الخلفى وكأننى على موعد مع أحد الممثلين ٠

تعرفت على الفنان الايطالى « اميديو كيانتونى » واستطعت أن أقنعه بان أكون تلميـذه ٠٠ وعملت خادما له عدة شهور حتى اقتنع الرجل بموهبتى فألحقنى بمعهد « ميلودراماتيكا ايتاليانا » وظل ينفق على من جيبه حتى حصلت على شـهادة « برمورى اللارتدراماتيكا » ٠٠ وكان ترتيبى الأول ٠٠

وفى ايطاليا عشت سنين تعذبت فيها من الضياع والهوان ٠ ليالى الشتاء الرهيبة كنت أمضيها وقد تكورت على نفسى فى ركن من أركان المسرح وستائر الكواليس أشدها على جسدى فلا تمنحنى دفئا ، ولا تمنع عنى سياط البرد ٠٠ وكان رئيس عمال المناظر يشفق على أحيـانا ،

فيأخذني الى بيته لأتمدد الليل على كنبة فى الصالة ، أستنشق الأنسام الدافئة التى تتسرب الى من الحجرة التى ينام فيها ٠٠ وفى أحضـــانه زوجته !

ولم أكن أحس انني صعلوك الا عندما يسافر أستاذى «كيانتونى» ليمضى أشهر الصيف فى الريفييرا كل عام ٠٠ كنت أعمل « كومبارس » فى الأفـــلام الايطالية ٠ واشتغلت صيفا بأكمله جارســـونا فى مطعم « اليتزيا » فى جنوا ٠٠ وكنت أجوع معظم أيام الأسبوع وأعيش بقيته على « عين الجمل » ٠٠ أشترى منه بليرة واحدة كل يوم ، وكلما صرخت أمعائى ألقمتها حبتين !

وتعرفت على « بريمادونا » السينما الايطالية « الينا لوندا » وغرقت معهـــا فى غرام عنيف ٠٠ واستطاعت « الينا » أن تصـــقل مواهبى السينمائية ٠٠ وقفزت بى من أدوار الكومبارس الى أدوار البطولة ٠٠ وأطلقت على اسم « وهبى رمسيس بك » !

ولكنها كانت تدمن شم « الاتير » ٠ وفى كل مســـاء كانت تهمس فى أذنى قبل أن تنام : « املأ لى القطنة يا حبيبى » ٠٠ وكنت أملأ لهـا قطعة القطن بالاتير وأقربها من أنفها ٠ ثم تطور الأمر فكنت أملأ قطعة القطن وأقربها ٠٠ من أنفى !

وقررت فى النهاية أن أهرب منها ٠٠ ومن الاتير ٠!

***

● عدت الى مصر فى ١٠ مارس سنة ٢٣ بعد أن مات أبى ٠٠ وورثت عنه ٢٠٠ فدان فى السنبلاوين و ١٠٠ فدان فى المنيا و ١٠ آلاف سهم فى الشركات قدر ثمنها ب ٣٠ ألف جنيه !

وقـــد خسرت كل ماأملك فى المسرح ٠ لكنى استطعت أن أعوضه وزيادة من السينما ٠!

● كونت « فرقة رمسيس » ٠٠ ولكنى أغلقت مسرح الفرقة بعـد أن أشهرت افلاسي سنة ٣٦ . وكانت آخر رواية مثلتها الفرقة مسرحية « الدفاع » ٠٠ ثم أنشأت « فرقة رمسيس الجديدة » من الممثلين الهواة سنة ٣٧ ٠ وكانت أنجح الروايات التى مثلتها الفرقة مسرحية « رجـل الساعة » ومسرحية « بنات الريف » ٠

● عرضت على « الفرقة القومية » أن أعمل معها سنة ٤١ بمرتب ٤٠ جنيهـــا فى الشهر ٠ قلت لمدير الفـــرقة المرحوم خليل مطـــران : « أنا اشتغلت فى فرقة عزيز عيد سنة ١٧ بمرتب ٨٠ جنيها ٠٠ وغير

معقول أن أعمل معكم الآن بـ ٤٠ جنيها فى الشهر . » قال لى : « يا ابنى أنا مدير الفرقة ومرتبى ٥٠ جنيها . » قلت له : « طيب يا خليل بك .. مثل أنت بأه » !.

واتجهت الى التمثيل والاخراج فى السينما .. وكان أول أفلامى « ليلة ممطرة » .. وآخر فيلم قمت فيه بدور ضيف الشرف فيلم يحيى شاهين « الملاك الصغير » ..

● عدت الى المسرح مرة أخرى سنة ٤٠ . اشتغلت مديرا للفرقة المصرية .. وبسبب التيارات التحتية الخبيثة التى كانت تجتاح الفرقة من حين لآخر ، استقلت منها وعدت اليها أكثر من مرة .. ثم قدمت استقالتى الأخيرة سنة ٥٥ . وعدت الى فرقتى .. فرقة رمسيس الجديدة .. فأعدت تنظيمها سنة ٥٧ .

انى لا أطيق البعاد عن جمهورى أبدا . انى « حشاش مسرح » !

***

قلت ليوسف وهبى :

● **لماذا اخترت « الدرام » لتمثلها فى معظم افلامك ومسرحياتك ؟.**

ـ لن تصدق اذا قلت لك ان طبيعتى وموهبتى فى الكوميديا أكثر من الدراما .. وأنا احيانا أسأل نفسى هذا السؤال فتأتينى الاجابة من أغوار الماضى .. من ٤٠ سنة .. لما أحببت شقراء يونانية وأنا طالب فى مدرسة مشتهر الزراعية .. لقد تعاهدت معها على أن أرسل لها أجرة السفر لتلحق بى فى ايطاليا .. ولكننى عجزت عن تنفيذ وعدى .. وفى يوم كتبت لى تقول : ان أمها مريضة بالسرطان .. وفى حاجة الى ٨٠ جنيها لتدفع لها أجر عملية جراحية عاجلة .. وقالت لى فى نهاية خطابها انها تستطيع أن تحصل على هذا المبلغ بسهولة لو باعت نفسها لمن يملك الثمن .. وطلبت منى أن أنقذها فورا . وكنت فى ايطاليا عاجزا حتى عن أن أعول نفسى !. فسكت وقلبى يحترق بين ضلوعى .. وبعد أسابيع أرسلت لى خطابا لم تكتب فيه كلمة واحدة .. مجرد ورقة بيضاء تتوسطها علامة سوداء رهيبة الشكل ؟!

.. وفهمت المأساة .. وعشت عمرى اجترها وأنا أمثل أدوارى !.

● **لهذا السبب تتحدث كثيرا فى اعمالك الفنية عن : شرف البنت ؟!**

ـ لهذا السبب .. آكيد !

● **أنت صاحب مدرسة فى التمثيل .. فكيف كونت لنفسك أسس هذه المدرسة ؟**

— لقد أخذت من المسرح الايطالى حرارة التمثيـــل ٠٠ ومن المسرح الانجليزى قلة التعبير بالاشـــارة ، والاعتماد على تعبيرات الوجه ٠٠ ثم خلقت لنفسى مدرسة للالقاء تتفق مع مخارج اللفظ ومقـاطع الكلمة ونهاية الحروف .. واقتضانى ذلك دراسة طويلة للغة العربية .. وقد ســاعدتنى دراستى للموسيقى فى ايطاليا على خلق طريقة فى تلوين الالقاء ، أو ما يسمونه فى المسرح ال « كريشيندو » ، بشكل هارمونى يتفق مع شخصية الدور ٠٠

● كم مسرحية مثلتها حتى الآن ؟٠٠

— أكثر من ٢٠٠ مسرحية ٠٠

● وكم فيلما فى السينما ؟

— ٣٥ فيلما ٠٠ تقريبا ٠٠

● ماهو أكبر رقم دفعته لمصلحة الضرائب ؟

— أنا أخضع لضرائب المهن الحرة ولم أعمل فى حيـــاتى منتجا ٠٠ أما أيام فرقة رمسيس الأولى فلم تكن هنـــاك ضرائب ٠ كانت البلد أكثر تأخرا ٠!

● والرقم القياسى الذى دخل جيبك من مسرحية واحدة ؟

— ٦٠ ألف جنيه .. من مسرحية « أولاد الفقراء » .

● ومن فيلم واحد ؟

— ١٧٨ ألف جنيه ٠٠ من فيلم « غرام وانتقام » ٠٠ حتى الآن ٠!

● قل لى كلمة أخيرة فى مستقبل المسرح المصرى ؟

— ان أزمة المسرح المصرى أزمة مسارح ٠٠ أزمة معمار ٠! ونهضـة المسرح تقاس فى كل الدول بعدد المسارح فيها ٠!

● هل عندنا أدب مسرحى ؟

— عندنا ٠٠ لكن فى نطاق محدود ٠٠ ويقلل من أهمية أدبنا المسرحى ذلك الصراع الذى لا يهدأ بين العامية والفصحى !

● كم ممثلا ٠٠ وكم ممثلة اكتشفتها للآن ؟

— ٩٠ فى المائة ممن يعملون فى المسرح والسينما من تلاميذى ٠٠ وأول ممثلة اكتشفتها هى أمينة رزق ، وأول ممثل المرحوم أنور وجدى ، أما آخر « وجه » اكتشفته فهو نور الهدى ٠٠

● ما هى المسرحية الناجحة ٠٠ والفيلم الفاشل فى حياتك ؟

ـ أنجح مسرحياتي هي بلا شك « بنات الريف » ٠٠ أما الفيلم الفاشل فهو بقدر ما أذكر فيلم « المجد الخالد » ٠٠ كان الفيلم يصور ان آثار مصر ملك لها ٠ وان من يسرق شيئا منها فقد سرق قطعة من الوطن ٠٠ وكان الوعي القومي بين الجمهور في تلك الأيام ضعيفا ٠٠ فنظر الجمهور الى الأثر المسروق في الفيلم على أنه قطعة من الحجر ٠٠ ليس أكثر ٠!

● ما هي الدراما الحقيقية في حياتك ؟٠٠

ـ ان درامى حياتى مكونة من فصل واحد ، واستغرقت حتى الآن ٣٠ عاما عملتها فى المسرح دون أن يعاوننى أحد ٠ وحوربت فيها حربا عوانا فلم يقف بجانبى أحد لا فى الصحافة ولا فى الحقل المسرحى نفسه !

ثلاثون عاما من الحرب والكفاح ٠٠ آه يا للهول ٠!

● والكوميديا الحقيقية ؟

ـ اننى ممثل كوميدى ٠٠ ولكن الظروف تضطرنى الى تمثيل الدرام ٠!

● بشيء من المقارنة ٠٠ تكلم في طريقة استحسان الجمهور للممثل المسرحي وطريقة سخطه عليه ٠٠ زمان والآن ؟٠٠

ـ كان الجمهور من ربع قرن ينتصر لمن يمثل دور المظلوم ، ويلعن من يمثل دور الشرير ويحقد عليه ٠٠ وفى الريف كان اذا أسدل الستار على مشهد مفجع لا يصفق أحد ٠٠ واذا صفق واحد هنا أو هناك ضربوه!

ولم يكن المتفرج يستطيع أن يسيطر على انفعالاته أزاء الممثل الذى يظهر أمامه ٠٠ يهلل للاستحسان ، ويصرخ اذا تضايق من الدور وهو يقول : « شيلو الجدع ده من على المسرح » ٠!

وفى احدى المسرحيات كان أحد الممثلين يؤدى دورا ثقيل الظل ٠٠ وفى جزء من الدور كان يقول : « أعمل ايه بس ٠٠ أنا لو معايا خنجر كنت ضربت نفسى ، والاسم كنت شربته » ٠٠ فرد عليه واحد من الصالة : « أنا جايب لك معايا زرنيخ » ! .

أما الآن فقد تسربت الينا آداب المسرح الأوروبى ٠٠ ولم يعد الجمهور فى حاجة الى مبادىء اللياقة وآداب السلوك التى كنا نكتبها له على ستار مسرح رمسيس !

● لو كتبت وصيتك ٠٠ ماذا تقول فيها ؟

ـ هناك مسائل شخصية معقدة سوف أذكرها فى وصيتى ٠ ولن أطلب بعدها أكثر من أن يطلق اسمى على مسرح ومعهد للتمثيل ٠ وان أدفن بجوار أمى وابنتى « بثينة » ٠٠ وأن أسير الى قبرى فى نعش من خشب المسرح القديم ٠!



الفريق أول طيار
محمد صدقي محمود

الساق الخشبية للذكرى المرة ! .

.. وبحثت عنهم .. عن الذين يصنعون الثورة ويضعونها في منشور يهز مشاعري وتنفذ سطوره الى قلبي كلما مررت على صندوق البوستة كل صباح ..

وكانوا منبثين كالمردة من أمامي ومن خلفي ، ومن كل اتجاه حولي في سلاح الطيران .. كنت أحس لفحة أنفاسهم ، ولكن ذكائي كان دائما يضل الطريق اليهم . !

وانتظرت ((ساعة الصفر)) في كل لحظة تمر .. وجاءت الساعة الفاصلة التي غيرت وجه التاريخ ، ووجدت نفسي أمامهم وجها لوجه وقد غمرتهم الأضواء .

وفي اللحظة ، وضعت يدي في أيديهم وقلت : الله معنا . !

شيء متعب جدا أن تفتح فم رجل عسكرى وتحرك فى فمه لسانه ، ثم تضع يدك خلف أذنك وتسمع منه كلاما ! فأفواه العسكريين - فى العادة - لا تنفتح الا أمام طبيب الأسنان ! انها مثل الأقفال الـ «ماستر» ذات النمر السرية .. لاتنفتح الا لصاحبها عندما يريد .. أما عباد الله من غير أصحابها فانها تبقى أمامهم مغلقة مهما أداروا قرص النمر السرية من الأول للآخر ، ومن الآخر للأول .!

وتحدث المعجزة أحيانا وفى ظروف نادرة عندما تستطيع أن تفتح فم رجل عسكرى وتحرك فى فمه لسانه .. ولكن ألسنة العسكريين لا تتصل أبدا بقلوبهم .. انها تتصل بعقولهم بأسلاك مباشرة . ولذلك سرعان ما تتوقف وهى تؤدى التحية العسكرية !

والفريق أول محمد صدقى محمود رئيس هيئة أركان حرب القوات الجوية ، رجل عسكرى . ذهبت اليه لأعصره فعصرنى هو ! كنت أستدرجه ليتحدث عن نفسه فيتحدث عن العميد عصام الدين خليل بطل المؤامرة التى هزت المخابرات البريطانية ، وكسب منها ١٦٢ر٥ ألف جنيه أضافها الى الدخل القومى .. ويقول : انه بطل وطنى أمين .. انه « قومندان الجواسيس » .!

وكنت أكلمه عن بطولته وأمجاده فى الجو ، فيكلمنى عن جمال الطقس .. ثم يفرك يده بيده الأخرى ليفتح فى عروقها طريقا لدمه ..

وكلمته عن الطائرات المتاتلة التى وقفت سرعتها بين سرعة الصوت وسرعة الضوء .. وكلمته عن « الميج » الروسية « والسابر » الأمريكية و « الهنتر » الانجليزية و « المستير » الفرنسية .. وحاولت أن أجره الى مقارنة فنية بين الميج والسابر ، فجرنى الى علبة من « الشيكولاتة » الفاخر ، وقال لى : اتفضل .. حلى بقك . !

وأحسست أن « المولد » أمامى واننى بهذه الطريقة سوف أخرج منه بلا « حمص » .. صعب على .!

وبعد ساعة من « المناورة » .. قررت أن أبدأ الحديث من الأول ، بتكتيك جديد .. وبعد ساعتين كنت قد حصلت على كل ما أريد .!

***

تتبع خط حياته ، تجده يسير بوضوح الى هذه النهاية .. ان محمد صدقى محمود لم يخلق الا ليحمل رتبة الفريق أول ، ولكى يجلس - بالتحديد - على كرسى القيادة فى قواتنا الجوية .. وليس على أى كرسى آخر .!

لقد عاش حياته بنفسه لنفسه معتمدا على نفسه ٠٠ كان يستذكر دروسه بنفسه فلم يعرف « الدروس الخصوصية » ٠! وكان ينجح لنفسه ويرضيها بأن يطلع دائما من الخمسة الأوائل ، فى المركز الثانى بعد سيد مرعى وكيل مجلس الأمة !

وعندما لعب لم يلعب الهوكى أو كرة القدم حتى لا تختلط عليه نفسه فى خضم المجموع ٠٠ انما لعب « التنس » ٠٠ وقفز فى البحر ليتعلم « السباحة » ٠٠ وكلها لعب فردية ٠!

ثم كبر ليركب الطائرة ويمسك عصا القيادة بنفسه .. وعندما كان ينقض بطائرته على تل أبيب فى حرب فلسطين لم يكن يسمح لمساعده أن يضغط على الزر ليطلق الحمم التى تربض أسفل الطائرة ٠٠ كان يضغط على الزر بنفسه ، وكانت قنابله دائما تصيب الهدف ٠!

وقفز بسرعة فوق مراكز القيادة فى سلاح الطيران ٠٠ ولما وصل الى كرسى رئيس أركان حرب القوات الجوية ـ يعنى المدير ـ كان قد شرب كل أسرار السلاح وأمسك بيده ـ وحده ـ الخيوط التى ترتبط فى نهايتها بالعساكر والضباط والتوربينات النفاثة ٠٠ وبدأ يمارس القيادة ٠٠

انه من ذلك الصنف « النظيف » من الرجال ، الذى يحمل فى قلبه طيبته ويضع فى رأسه فلسفته الخاصة ٠٠ ثم يمضى العمر يقنع نفسه بأنه موجود وانه نظيف لم يتلوث ٠٠ وما دام موجودا ٠٠ وما دام نظيفا فالعالم كله بخير .. وهذا يكفى . !

حكى لى حياته ٠٠ كان يحكيها لى بسرعة واقتضاب ، وكأنه يخشى أن يضبطه أحد وهو يتحدث عن نفسه ! وحمدت ربنا انه لم يحكها لى بالشفرة ٠!

***

٠٠ قال لى الفريق أول محمد صدقى محمود :

● توفى والدى وهو يحمل رتبة « الاميرالاى » وكان فى أواخر حياته مديرا للأشغال العسكرية ٠٠ وقبل أن يتوفى بثلاث رتب ، ولدت أنا فى « بسنديلة » مركز المنصورة فى ١٤/١٢/١٢ « هكذا نطقها ٠! » وكان أبى أيامها يحمل رتبة « يوزباشى » ٠٠

ومن بسنديلة ، سافرت مع أبى مباشرة الى السودان ٠٠ وامضيت فى الخرطوم ٧ سنوات ربيت خلالها اربعة « نسانيس » وتعلمت الانجليزية فى

كلية«جوردون» ، ولعبت «الاستغماية» مع صلاح الشاهد ــ تشريفاتي رئاسة الجمهورية ــ في حديقة نادى الضباط بالخرطوم ٠٠ وكان أبو صلاح الشاهد يعمل مع والدى فى الأشغال العسكرية برتبة «صاغ» ٠٠

● انتقل أبى الى القاهرة ٠٠ دخلت مدرسة المنيرة الابتدائية ٠٠ وفى الصفوف الخلفية من الفصل كان معنا الدكتور حسن ابراهيم وأخوه الدكتور على ابراهيم ٠٠

حاولت أن أتعلم السباحة فى « حمام وزارة المعارف » فشربت نصف مياه الحوض وأنقذونى قبل أن أشرب النصف الباقى ٠! وفى الصيف ، نزلت فى بلاج الشاطبى فى الاسكندرية لأتعلم السباحة ، فقد صممت أن أتعلمها بأى ثمن ٠٠ ودفعت الثمن عدة جرعات من المـــاء المالح ٠٠ ولكنى تعلمتها فى النهاية ٠٠

أخذت الابتدائية سنة ٢٧ ٠٠

● دخلت مدرسة « فؤاد الأول » الثـــانوية ٠٠ كان بين زملائى فى المدرسة المهنـــدس سيد مرعى والدكتور على المفتى ٠٠ حاولنـــا أن نشترك فى معارك السياسة التى كان ينعكس صـــداها على حناجر الطلبة فيضربون « عن العمل » أكثر أيام الأسبوع ٠٠ لم نجد لأنفسنا مكانا ، فقد كانت الزعامة وقفا على الطلبة أصحاب العضلات المنتفخة والشوارب التى يقف عليها هرم خوفو فلا تهتز !

وبحثنا عن الزعامة فى ميدان آخر ٠٠ بحث عنها سيد مرعى فى « المذاكرة » فكان يطلع أول الفصل ٠ وكنت أساعده فى البحث وأطلع « الخامس » !

أتقنت السباحة ولم أعد أشرب من المياه التى أعوم فيها ٠٠ وأخذت بطولة المدارس الثانوية فى التنس ٠٠

● كان وقتنا يتسع للاستذكار ، وللبرطعة بين دور السينما أيضا . كنا ندخل السينما مرتين فى الأسبوع ، مرة سينما «رويال» ومرة سينما « جومون » ــ فيمينا الآن ــ ٠٠ وكنا نعبد الممثلة الأمريكية «بولا نيجرى» ونصفق ل « رودلف فالنتينو » ونرتعد من الرهبة وقبضة « فانتوماس » الحديدية تفرقع فى وجوه الناس على الشاشة !

ومرة دخلنا سينما أوليمبيا ٠٠ كان معى سيد مرعى ٠٠ ذهبنـــا اليها على أقدامنا ٠ وعدت وأنا أركب « بسكليته » كسبتها من يانصيب كان يسحب على نمر التذاكر ٠٠ ومشى سيد مرعى بجوارى وهو يصرخ باستعطاف كل مائة متر :

ـ طيب يا محمد ٠٠ خدنى قدامك ؟!

***

● كانت الدراسة فى الكلية الحربية ٣سنوات..دخلتها سنة ٣٢ ، وبعد أن نجحت فى « القسم المتوسط » ـ يعنى السنة الثانية ـ رشحتنى الكلية لأتعلم الطيران فى مدرسة « أبو صوير » الانجليزية ٠٠ كنت أتعلم على طائرات « أفرو ٥٠٤ » و « أتلاس » وهى طائرات قديمة اشتركت فى الحرب العظمى !

تخرجت بعد سنتين برتبة «ملازم ثان » ٠٠ التحقت بسلاح الطيران المصرى ٠٠

● سافرت سنة ٣٥ الى انجلترا .. أمضيت سنة أتخصص فى علم « نظريات الطيران » فى « مدرسة الطيران المركزية » ب « آب ايفى » فى مقاطعة « ويلشير » ٠

عدت سنة ٣٦ ٠٠ اشتركت فى انشاء « مدرسة الطيران العالى » بألماظة وكنا نقبل طلبتها من الضباط أو من طلبة « القسم النهائى » بالكلية الحربية ٠٠ كنت أدرس علوم « نظريات الطيران » و « الملاحة الجوية » و « الطيران العملى » ٠٠

● سافرت بعد ذلك مرتين الى انجلترا ٠٠ مرة سنة ٣٩ لأتخصص فى « الملاحة الجوية » ٠٠ ومرة سنة ٤٦ لأعمل « فرقة أركان حرب » وحصلت على الشهادة من كلية أركان حرب فى « اندوفر » ٠٠

عدت كبيرا للمعلمين فى مدرسة الطيران العالى ، ثم رقيت قائدا للمدرسة ٠٠ وسنة ٤٧ ، قبل أن تتحول المدرسة الى كلية بعامين ، نقلت مديرا للادارة العسكرية فى رئاسة القوات الجوية ٠٠

ثم تنقلت بين هذه المناصب :

ـ سنة ٥٠ ٠٠ قائد محطة الدخيلة الجوية ٠٠

ـ سنة ٥١ ٠٠ قائد محطة ألماظة ٠٠

ـ سنة ٥٢ ٠٠ قائد كلية الطيران ببلبيس ٠٠

ـ ٢٨ يوليو ٥٢ ٠٠ رئيس هيئة الادارة الجوية برئاسة القوات الجوية ٠٠

وكان على رأس القوات الجوية « مدير » ٠٠ وهو وضع عسكرى خاطىء ٠٠ فالمفروض أن يكون للجيش « قائد عام » يساعده رؤساء هيئة أركان حرب فى الجيش والطيران والبحرية ..وقد صححت الثورة هذا

الوضع العسكرى الشـــاذ ضمن التنظيمات العسكرية الجـــديدة التى أخذت بها ٠

● لم أتصل بالرئيس جمال عبد الناصر ولا « الضباط الأحرار » الا بعد قيام الثورة .. كانت منشورات « الضباط الأحرار » تصـلنى بانتظام على البيت ٠٠ كنت أفتح صندوق البوستة فأجد مع الخطابات العادية منشورا أو اثنين ٠ وكنت ألتهم سطور المنشور قبل أن أقرأ خطابات الأقارب والأصدقاء ! ولا يمر اليوم أو الأسبوع حتى ألمح صدى ما قرأته فى المنشور مكتوبا فى مقال فى « اللواء الجديد » أو «المصور» وتحت المقال امضاء : حلمى سلام ٠٠

وبحثت عنهم ٠٠ عن الذين يصنعون الثورة ويضعونها فى منشور يهز مشاعرى وتنفذ سطوره الى قلبى كلما مررت على صندوق البوستة كل صباح ٠٠ وكانوا منبثين كالمردة من أمامى ومن خلفى ومن كل اتجـاه حولى فى سلاح الطيران ٠٠ كنت أحس أنفاسهم ولكن ذكائى كان دائما يضل الطريق اليهم !

وانتظرت « ساعة الصفر » فى كل لحظة تمر ٠٠ وجاءت السـاعة الفاصلة التى غيرت وجه التاريخ ، ووجدت نفسى أمامهم وجهـا لوجه وقد غمرتهم الأضواء ٠٠ وفى اللحظة وضعت يدى فى أيديهم وقلت : الله معنا ٠٠

***

قلت للفريق أول طيار محمد صدقى محمود :

● **تفهم فى «الميج» و « الاليوشن » ؟!**

ـ الى حد ما أفهم فيهما ٠٠ فالميج والاليوشن تحملان نفس التركيب الميكانيكى للطائرة العـادية ٠٠ وقـد جاءتنى فرص كثيرة للتمرين على قيادتها ، ولكن أعباء منصبى تأكل كل وقتى ٠٠ وأنا أسوق معظم طائرات التدريب ٠٠ أسوق « الياك » و « التشيمبان » والطائرة المصرية « جمهورية » ٠٠ وأسوق أيضا طائرة النقل « اليوشن ١٤ » ٠٠

ولكنى أحتاج لعدة ساعات من المران لكى أسوق وحدى « الميـج » و « الاليوشن ٢٨ » !

● **فى تطور الأسلحة الأرضية ٠٠ ماهو آخر سلاح قام عنه الطيران بدور البديل ؟**

ـ لقد بدأت « أسلحة المتفجرات » بالمسدس والبندقية ٠٠ ثم جاءت

« أسلحة القذائف » وهي المدفع . وجاء الطيران ليساعد المدفع فى حمل القذائف مسافات بعيدة • ثم بدأ عصر الصواريخ !

● ما هي أشهر معركة طيران فى تاريخ الحروب ••؟

ـ أعتقد انها « معركة طيران بريطانيا » سنتى ٤٠ و ٤١ •• كان هتلر قد نجح فى اكتساح فرنسا وبدأ يركز نيرانه على مراكز الصناعة فى بريطانيا ليشلها تماما •• وكانت طائرات النازى تطير من قواعدها فى ألمانيا وعلى الساحل الفرنسى لتغطى سماء بريطانيا باللهب والدمار •• وكان سلاح الطيران البريطانى موزعا على جبهات متعددة فى أوروبا وشمال افريقيا فلم يقف فى وجه الطائرات المغيرة سوى بضع مقاتلات انجليزية •• واستطاعت هذه المقاتلات رغم قلة عددها أن تصطاد المئات من طائرات النازى .. وان تنقذ بريطـــانيا كلها من الدمار .. وعقب المعركة ، خطب « ونستون تشرشل » فى الراديو يشيد ببطولة الطيارين الانجليز وفى نهاية خطــابه قال : « لم يحدث فى تاريخ البشرية أن أدينت ملايين كثيرة بفضل كبير جدا لقلة قليلة جدا ، كما هو الموقف الآن بين الشعب البريطانى والطيارين الانجليز الأبطال » !

● ماهو دور الطيران فى الحرب العظمى الأولى •• وما هى انواع الطائرات التى خاضت معارك هذه الحرب ؟••

ـ فى أوائل الحرب استعملت الطائرات للاستكشــاف فقط •• ثم زودت الطائرات فى أواخر الحرب بمدافع الماكينة وبعض القنــابل الخفيفة وقامت بعمليات حربية ضيقة النطاق ضد القوات الأرضية •• وكان الانجليز يملكون طائرات « بريستولم ١٩ » و «اتلاس» و «افرو» • أما الألمان فكانوا يحاربون بطائرات « فوكر » و « هانكن » ••

● أى الأسلحة حسمت الحرب العالمية الأخيرة .. وأى الأســلحة يمكن أن تحسم الحرب القادمة .. عندما تقوم ؟•

ـ القنبلة الذرية التى دمرت « هيروشيما » هى بلا شك التى حسمت الحرب العالمية الماضية • أما الحرب القادمة فالكلمة الأخيرة فيها للصواريخ ذات الرءوس الذرية والهيدروجينية ، وللطيران الذرى .

● قرأت عن سلاحنا الجوى انه كان فى ((حملة فلسطين)) سنة ٤٨ مثل الأعرج الذى دخل خناقة كبيرة بساق واحدة ؟!

ـ صحيح .. لقد كنا نحارب سنة ٤٨ بساق واحدة ، وحتى الساق الواحدة كانت من خشب ينخره السوس !

لم يكن السلاح يملك غير ٩ طائرات ٥ منها «سبتفير» و ٤ «فيورى»

وكانت الطائرات التسع تعمل من مطار العريش .. تذهب كلها مرة كقاذفات محملة بالقنابل لتسقطها على مواقع الأعداء .. ثم تعود فينشط العمال الفنيون ويركبون فى مقدماتها مدافع الماكينة ، وتطير كلها مرة ثانية لتفرغ رصاصها فى صدور قوات العدو !

ولم تخض الطائرات التسع أروع معاركها الا فى نهاية « الحملة » عندما تقدمت قوات اسرائيل من ممر « أبو عجيلة » وطوقت قواتنا فى «رفح» وظلت الطائرات التسع تغير على قوات العدو ٤٨ ساعة متواصلة حتى أوقفت تقدمه !

ولكن أين نحن الآن .. ان سيقان سلاح الطيران كلها نفاثة تسبق الصوت ، أما الساق الخشبية فاننا نحتفظ بها .. للذكرى المرة !

● صحيح ان البطل « أبو زيد » كان فى معارك سنة ٤٨ يركب على مقدمة طائرته « ميكروفون » يصرخ فيه باسمه وهو ينقض على حشود العدو قبل أن يمطرهم برصاصاته ؟!

ـ غير صحيح ! ولكنه كان بطلا .. اشترك فى كل المعارك التى خاضتها الطائرات التسع قبل وفاته ، وأسقط من طائرات العدو أكبر عدد أسقطه طيار مصرى فى حرب فلسطين .. ثم سقط شهيدا .

● على ذكر الأبطال .. من من نظرك بطل الطيران فى الحرب العالمية الأخيرة ؟

ـ انه فى رأيى الطيار الانجليزى « كابتن بيدر » لقد فقد ساقه فى احدى المعارك فوق سماء لندن سنة ٤٠ ، وعندما غادر المستشفى كان أول ما فعله أن توجه الى «غرفة العمليات الحربية» وطلب أن يعطوه طائرة ليستأنف الحرب !

ووافق القواد أن يعطوه احدى المقاتلات واخذ دوره بالفعل فى الاسراب المقاتلة واصيبت طائرته فى احدى المعارك فى سماء فرنسا وقفز من الطائرة ليهبط بالباراشوت ولكنه نسى ساقه الصناعية فى الطائرة التى هوت وهى تحترق !. وأسره الألمان ووضعوه فى احدى المعسكرات فى « نورماندى » .. وعرف الطيارون زملاؤه مكان المعسكر فأسقطوا له ساقا صناعية أخرى .. وقدر الألمان بطولته فأعطوه الساق التى هبطت على المعسكر بالباراشوت .!

.. وفى اليوم التالى ضبطوه وهو يحاول الهرب .. على ساقين!

● قل لى رأيك فى قواد الأجنحة السابقين : على صبرى ، عبد اللطيف البغدادى ، حسن ابراهيم ؟

علي صبري : ربعه هدوء .. وربعه مرح .. والباقي دهاء وكتمان .

عبد اللطيف البغدادي : كان تلميذي في « مدرسة الطيران العالي» وكان دائما يفكر بعمق ويطير بامتياز .

حسن ابراهيم : سمن «شوية» على الطيران .. طيب وانسان ، يفكر على ابعاد دائما ، ويضحي «بشراهة» من أجل الغير ..

● ميزان من أربع كفات .. كفة فيها ((الميج)) الروسية ، وكفة فيها ((السابر ٨٤)) الأمريكية ، وفي الكفة الثالثة ((الهنتر)) الانجليزية ، وفي الرابعة ((الميراج)) الفرنسية .. أي الكفات ترجح ؟.

ـ ان الميج تفوقها جميعا في السرعة وفي قوة المناورة . وقد تفوقت الميج على «السابر ٨٤» في حرب كوريا .. وفي حرب السويس لم نفقد طيار ميج واحـــدا ، وقد ذهل طيارو « المستير » و « الهنتر » وكتبوا لقيادتهم يقولون انهم يحاربون ضد « الميج ١٧ » بينما كل الطائرات التي تصدت لهم من طراز « ميج ١٥ » فقط !.

والروس يملكون أكثر من ذلك .. انهم يملكون من « الميج » مسلسلات حتى رقم ٣٠ .. ومقاتلات أخرى جبارة من طراز «ياك» !

● في الجو ... المحرك هو بطل الموقف في الطائرات العادية .. فما هو بطل الموقف في الطائرات النفاثة ؟ ..

ـ المحرك التوربيني النفاث .. أيضا .

● اذا اصطدم غراب بطائرة .. هل من الممكن فنيا أن يتسبب في سقوطها ؟.

ـ ليس الى هذا الحد .. قد يكسر « بلاستيك » كابين القيادة ، او يثني مسطح الجناح .. أو يحدث خللا لبرهة قصيرة في المحرك الذي يصطدم به . أما اذا دخل في « توربين » المحرك النفاث فانه يتحول في ثانيتين على الأكثر الى ذرات من الفحم !

واذكر مرة .. كنت أركب احدى طائرات التمرين .. وفتحت غطاء الكابين لأملأ صدري بالهواء البكر .. وفجاة اصطدم غراب برأسي ، فاعترتني دوخة شديدة وصـــداع ، وظللت اكثر من خمس دقائق أرى الشيء .. شـــيئين .!

● في حياتك مأزق طيران نفدت منه بجلدك ، بدليـــل انك مازلت تعيش ! .. هل تذكر تفاصيل هذا المأزق ؟!

ـ انني أذكرها وكأنها حدثت قبل أن تدخل بدقائق ..

كان ذلك فى حرب فلسطين سنة ٤٨ .. وكانت آخر معلـــومات المخابرات الحربية تقول ان العدو لا يملك طائرات مقاتلة .. وكنا نلاحظ ذلك فعلا ، ففى كل غارة على مواقع الأعداء لم يكن يتصدى لنا ســـوى بطاريات من المدفعية المضادة الخفيفة تفرقع قذائفها حول الطائرة ... وكأنها تحرسها !

وفى اصيل يوم ، صدرت الى الأوامر بأن أغير على « تل أبيب » .. وبقيت فى سماء تل ابيب أكثر من ثلث ساعة وانا انقر الاهداف العسكرية على مهل وفى أمان .. وفجأة برزت أمامى احدى المقاتلات .. ولمحت من خلفى مقاتلة أخرى تحاول أن تلحق بى ، وفى غمرة المفاجأة ارتفعت لأقوم بحركة التفاف .. ولكنى كنت هدفا سهلا فى منتصف المســـافة بين الطائرتين ..

واشتعلت النيران فى مقدم الطائرة وبدأت تهوى . وكان معى قنبلتان أسرعت بالتخلص منهما وأنا فوق احد الشوارع الرئيسية فى تل ابيب وهبطت بالطائرة على الساحل بالقرب من يافا وكان معى ٨ مســـاعدين استشهد منهم ثلاثة . وجرح ثلاثة آخرون . وانقسم اربعة من أضلعى آلى نصـــفين !

لكننا تماسكنا وحملنا الجرحى ومشينا على الساحل ٤ ساعات ، حتى وصلنا الخطوط المصرية أمام « اسدود » .

● أنت تحمل رتبة « فريق أول » .. فماذا بعدها ؟

ـ لاشىء .. المعاش طبعا !

● ماذا تعادل رتبة « فريق » فى جيوش الغرب ؟ .

ـ « ليفتنانت جنرال » وللطيارين « اير مارشال » ، وبعدها رتبـــة « فول جنرال » وللطيارين « ايرتشيف مارشال » وهى تعادل عندنا رتبة « مشير » . ورتبة مشير يحملها القائد العام للقوات المسلحة .. ولا يرتفع فوقها غير رتبة « القائد الأعلى للقوات المسلحة » والتى لايحملها غير رئيس الدولة ، وتعادل فى الجيوش الغربية رتبة مارشال .

● عندما نكون فى مأتم نتذكر حكمة . وفى فرح نتذكر حكمة . وفى منجم يغوص عدة كيلو مترات نتذكر حكمة .. قل لى الحكمة التى يتذكرها الطيار وهو يتمرغ فى الفضاء بالقرب من الله ؟ .

ـ الله .. !



المرحوم
دكتور محمد صبحي

نصيحة .. لكى تنجو من الظلام !

((فى مصر الآن أكثر من ١٠٠ مستشفى للرمد .. ولم يكن فى مصر عندما رجعت غير مستشفيين يتنقلان فى الريف ، ومستشفيين ثابتين فى القاهرة والاسكندرية .!

وقد التحقت بمستشفى متنقل ، قطعت ريف مصر طولا وعرضا ومشرطى فى يدى أجتث به العماة من عيون الناس .. وكنت أجرى فى اليوم الواحد ماأطيق من العمليات .. بينما العيون المريضة التى تحتاج لمشرطى تقف أمامى فى طوابير لاتنتهى .!

.. ومن عيون الفلاحين فى الريف المصرى اكتسبت خبرة العمر كله ، وعرفت أول الطريق الى التفوق .! »

كانوا يضحكون عليه .. القرية كلها بأطفالها ورجالها وشيوخها كانت تضحك عليه . حتى نسوة القرية ، كان اذا هل عليهن آخر النهار وهن على « المرادة » بعضهن يغسل غلة « الطحين » والبعض يملأ الجرار ، أو انكب على « طشت » من الصفيح يغسل ـ بلا صابون وبماء كالطين ـ أكواما من الغسيل .. وواحدة أو اثنتان أو أكثر اضطرمت في اجسادهن حيوية الشباب فجلسن في الماء هكذا بأثوابهن كاملة ورحن يغتسلن من تعب العمل طول النهار ..

لم تكن النسوة يأبهن لقدوم عم « شحاته » .. فالسيقان العارية أمام « طشوت » الغسيل تظل عارية .. والأجساد الشابة التي التصقت بها الملابس من البلل فانفضحت تفاصيلها تبقى كما هي لا يسترها الخجل .. والمنظر على ماهو عليه .. فما دام « عم شحاته » قريبا منهن . اطمئن ، فلن يلمح شيئا ! كل الذى يطرأ على النسوة أن يضعن ايديهن فوق شفاههن ويغرقن في ضحكة جماعية .. والسبب لم يكن أحد في القرية يفهمه بالضبط ..

حصل ذات مرة ، ومن سنوات قريبة ، كان «عم شحاته» كعادته في الغيط ..

وعلى بعد الشوف .. ربما كيلو متر أو أبعد ، كان ابنه محمود يرعى البهيم الذى يدور على ساقية العمدة والدور دور « عم شحاته » في السرى .

وفجأة لمح ابنه ـ على البعد ـ يفك البهيم فنادى عليه :

ـ ياواد يا محمود .. خد يامديوب !

وجاء محمود يجرى ، وعلى بعد متر من أبيه وقف يلهث ، وقال

ـ أيوه يابا .. بتنادى لا .

وكان الأمر ارتج على « عم شحاته » .. فقال :

ـ اا .. ناديلك . انت مين ؟!

ومن يومها شاع في القرية أن عم شحاته عيناه كعيني الصقر .. يرى على حدود الشوف ، ولكنه لايرى تحت قدميه !

وفي القرية .. عندما يصبح عم شحاته موضوع الحديث على قهوة « حمزاوى » بالليل .. كان بعضهم يقول انه عبيط ، والبعض الآخر يقول : ياشيخ دا بيستعبط .. فيه حد يشوف البعيد ولا يشوفش القريب ؟! وناس قالوا : دا مخلول .. وحاكم السن له أحكام !.

واستمرت المصاطب تهتز بمن عليها من الضحك كلما هلت طلعة عم شحاته ، حتى مات .. ولم يعرف أحد ان الرمد أكل عينى «عم شحاته» من الداخل فى أواخر ايامه .. ومع الرمد كبر السن ، وانه كان يعانى من « طول النظر » ، وكل ماكان يحتاج اليه لكى لا تهتز المصاطب من الضحك عليه : نظارة طبية !!

***

ان كل أمراض العين تندرج تحت اسم : الرمد .. والعرب فى شبه الجزيرة كانوا يسمونه « الكحال » لأنه يكحل العيون بالصديد.! والرمد بأمراضه هو الكارثة التى يعانى منها شعبنا بعد البلهارسيا .! انه يسرق البصر من العيون ، ويؤدى دائما الى عكاز فى اليد ، أو عصا بيضاء ، أو كلب ينير بعينيه معالم الطريق .!

وبسببه لايرى معظم أبناء الشعب أكثر من نصف الدنيا .. أما الباقون فيضعون أمام عيونهم عدسات زجاجية فى وقت مبكر .!

وفى مصر طبيب واحد يعرف عن طب العيون ، وعن جراحة العين أكثر من غيره كان يحمل لقب « باشا » وهو الآن يحمل خبرة ٥٠ عاما فى طب العيـون .!

اسمه : دكتور محمد صبحى .. ولقبه فى الوسط الطبى : عميد طب العيـون .

قال لى الدكتور محمد صبحى :

● كان ذلك سنة ١٩٠٩ .. تقدمت لـ « مصلحة الصحة العمومية » التابعة لـ « نظارة الداخلية » أطلب تصريحا بممارسة الطب ، وأعطتنى المصلحة تصريحا قالت فيه : « بناء على القرار الصادر من عطوفتلو ناظر الداخلية بتاريخ ٥ فبراير سنة ١٩٠٩ نمرة ١٣ قد تصرح الى « محمد أفندى صبحى » بتعاطى صناعة الطب .. وقد أدرج اسمه بدفاتر الأطباء المعلومين تحت نمرة ٨٠ »

ومن يومها ودائرة عملى تنحصر فى عيون الناس . أجريت فى ٤٩ سنة أكثر من ٢٠ ألف عملية جراحية .. أما العيون التى عالجتها فليست أقل من مليون عين !

● كل اخواتى الذين ولدوا قبلى كانوا يموتون وهم بعد فى «اللفة» . وعندما ولدت فى ٢٥ مايو سنة ١٨٨٦ كنت أول ابن لأبى يولد ويعيش . ولذلك عشت طفولتى وصباى أتمرغ فى الدلال ! « الكتاب » الذى كان يقع فى احد دروب حى السيدة زينب كنت أذهب اليه على حمار ، ومن ورائى صاحب الحمار ينخسه لكى يسير ، ويشد ذيله ليقف ! وكنت أذهب الى

مدرسة محمد على الابتدائية أيضا على حمار .. فقد كان أبى يخشى على من فواجع الطريق .. وكانت فواجع الطريق أيامها تكمن فى حـــوافر الحمير والبغال وعجلات العربات « الكارو » و « كارتات » الأعيان .!

● نجحت فى الابتدائية سنة ١٨٩٩ ، وفى الشهادة كتبت لى المدرسة كشف الدرجات وفى آخرها ملاحظة تقول اننى : « ممتاز فى العـــلوم والجمباز ــ أى التمرينات الرياضية العادية ــ وفى غاية النظافة والقيافة»

دخلت مدرسة الخديوية « التجهيزية » وكان معى عبدالعظيم«باشا» رشدى وزير المـــالية سابقا وعبد الرحمن رشدى المحامى وأحـــد أعمدة التمثيل المسرحى .

اذكر من الأحداث أن شركة قناة السويس طالبت بتجديد امتيازها.. وسرت بين صفوف الشعب أيامها حركة تذمر واعتراض ، وكتبت جريدة « المؤيد » تقول ان الشعب كله ضد تجديد امتياز الشركة ، وأنه ينتظر انتهاء الامتياز بفارغ الصبر ليتلقى الذهب الذى ستغطى به القناة أرض « بر » مصر !

● مات أبى وأنا فى البكالوريا « قسم فرنسى » سنة ١٩٠٣ ، قرر عمى أن أكتفى بهذا الحظ « العظيم » من الدراســـــة وان التحق بقسم « الأموال الحرة » فى نظارة المالية بدل أبى .. أصرت أمى على ان اكمل دراستى بأى ثمن .

كنت ممتازا فى العلوم الطبيعية فدخلت مدرسة الطب ، كانت دفعتى ٢٥ طالبا منهم ٩ يحملون البكالوريا قسم فرنسى والباقون قسم انجليزى والدراسة كلها باللغة الانجليزية .. رسب من طلبة القسم الفرنسى ٧ فى سنة أولى ، ولم يبق سواى أنا وطالب آخر أكملنا الدراسة حتى الدبلوم !

● كان « دكتور كيتنج » عميد مدرسة الطب انجليزيا صلبا عنيـــد الرأس !

وكان معظم المرضى الذين يشغلون عنابر مستشفى قصر العينى من الجنود الانجليز . واسم « كيتنج » كان يطلق أيامها على سائل يقتـــل الحشرات ، وفى يوم أمر الدكتور كيتنج الا يبارح المرضى عنابرهم،وكانوا فى العادة ينزلون ساعة الأصيل الى حديقة المستشفى يتنزهون فيها الى أن يسقط الليل ..

وتسلل أحد المرضى الانجليز الى باب حجرة العميد وكتب عليـــه بالطباشير « دكتور كيتنج يقتل العساكر .. بدل الحشرات » !

● نجحت فى الدبلوم سنة ١٩٠٧ . كان ترتيبى الثانى . عينت«طبيب

امتياز فى مستشفى قصر العينى .. بدأت شهرتى فى الجراحة وانا طبيب امتياز .. كنا نمارس كل أنواع الجراحة دون أن يشرف علينا احد ،ماعدا عمليات « فتح البطن » فكنا نرسل التمورجي ليستدعى « الاستاذ » !. فقد كانت حالات التعفن فى مثل هذه العمليات شائعة ، ولم يكن هنـاك بنسـلين .

وكان زملائى الأطباء يقولون عنى « الكتكوت الفصيح .. من الامتياز بيصيح » !

● تحولت « نظارات » الدولة الى «وزارات» كان سعد زغلول وزيرا للمعارف سنة ١٩٠٩ . طلب سعد أن يرسل بعثات طبية الى انجلترا . ورشحتنى مصلحة الصحة ضمن عشرة أطباء آخرين . اختار تسعة منهم أن يدرسوا الجراحة ، واخترت الرمد وحدى !

فى جامعة لندن حصلت من مستشفى « مورفيلدز » أكبر مستشفى للعيون فى العالم ، على شهادة تخصص فى طب العيون .. كان الأطبـاء الأمريكان الذين يدرسون معى فى المورفيلدز يحصلون على شهادة التخصص ثم يسافرون الى فينا ليدرسوا فى جامعاتها . سافرت معهم الى فينا . التحقت بالجامعة ، وحصلت على شهادة تخصص أخرى من مستشفى جامعة فينا « الجيمين كرنكن هوس » وهو أقدم مستشفى لطب العيون فى العالم ، فقد بنى سنة ١٦٧٤ !.

● فى مصر الآن مائة مستشفى للرمد ، ولم يكن فى مصر عندما رجعت غير مستشفيين يتنقلان فى الريف ومستشفيين ثابتين ، واحد فىالقاهرة والثانى فى الاسكندرية . التحقت بمستشفى متنقل ، وقطعت ريف مصر طولا وعرضا ومشرطى فى يدى أجتث به العلة من عيون الناس .. كنت أجرى فى اليوم الواحد ما أطيق من العمليات ، عشر عمليات ، وربمـا عشرين .

الوقت الذى لا أنامه ، ادخل فيه « خيمة العمليات » والعيونالمريضة التى تحتاج الى مشرطى تقف أمامى بالطوابير !

ومن عيون الفلاحين فى الريف المصرى اكتسبت خبرة العمر كله ، وعرفت أول الطريق الى التفوق .!

● توفرت أسباب الخبرة والمران لكثير من أطباء الرمد فى مصروأراد مدير مصلحة الصحة الانجليزى أن يدعم الناحية العملية فى طبالرمد، فانشأ «المعمل الرمدى التذكارى» بالجيزة . كان يريد أبحاثا جديدة فى علم « تشريح العين المرضى » وعلم « الجراثيم الرمدية » ، وسلمنى مفتاح المعمل وقال :

« اجر لى هذه الأبحاث ، وأنا فى انتظار النتيجة » .!

وامضيت سبع سنوات ابحث فى « الرمد الحبيبى » واطبق أصوله العلمية على علم « تشريح العين المرضى » وعلم « الجراثيم الرمدية» ومن بعدى دخل المعمل أطباء كثيرون ليجروا أبحاثهم فى الرمد الحبيبى ، ومازالوا يزاولون ابحاثهم للآن ..

● عينت سنة ١٧ مفتشا فى مستشفيات الرمد .. كنت أول طبيب مصرى يشغل هذا المنصب فقد كان مقصورا من قبلى على الانجليز .. جندت مع سائر أطباء مصر لعلاج جرحى الحرب الأولى من الانجليز . وعدت مرة أخرى الى منصب المفتش . ثم دخلت « المعمل الرمدى » وامضيت فيه خمس سنوات .

● فتحت عيادتى الخاصة سنة ٢٠ ، وسنة ٢٨ خرج بعض أساتذة الطب الانجليز فى كلية الطب فعينت أستاذا فيها لعلم الرمد .. كان المفروض أن أعين فى هذه الوظيفة فور عودتى من بعثة لندن وفينا سنة ١٣ . ولكن المراكز فى مدرسة الطب كانت مشغولة بالأساتذة الانجليز، ولم أعين أستاذا الا بعد ١٥ سنة ، وبعد أن تحولت المدرسة الى كلية.!

● ازداد عدد مرضاى ، ففتحت مستشفى خاصا مع العيادة.أحلت على المعاش سنة ٤٦ عندما بلغت سن الستين .. اقتصر تشاطى على عيادتى ومستشفاى . ويساعدنى فى أعمالى طبيب يحمل المؤهل الطبى ، وثمانية مساعدين لا يحملون مؤهلا ، وعدد من التمورجية ..

***

قلت لعميد طب العيون :

● كيف يرى الانسان ؟ قل لى كلاما علميا اكاديميا وساحاول أن أفهمه وأن أنقله للناس ؟..

ـ ان خلايا العين بصفة عامة خلايا تحس الضوء .. والجزء الملون من العين واسمه « القرنية » شفاف يسمح للضوء أن يتخلله . خلف القرنية مباشرة هناك « العدسة » أو « البللورية « وهذه تجمع خيوط الضوء فى حزمة واحدة توصلها الى « الشبكية » ، وهى غلاف رقيق مثل « رتينة الكلوب » تحس الضوء بطريقة كمية ثم توصله الى العصب البصرى الذى يلتحم بمؤخرتها .. والعصب البصرى يوصل الضوء الى « المركز البصرى » فى المخ فيحدد الشكل المرئى ..

وكان العرب ، ومن بعدهم الاغريق يعتقدون أن العين « جوهرة » تشع ضوءا على الأشياء فتنيرها ، ثم تنعكس صورتها خلال العين لتصل الى المخ فيتعرف عليها !

وكانوا بهــذا يلغون عمل المراكز المشعة مثــل الشمس والقمر والمصابيح ٠٠ هذا بالاضافة الى أنهم كانوا لا يعطون تفســيرا يجيب على هذا السؤال : ما دامت العين جوهرة مشــعة ٠٠ فلماذا لا يرى الانسان فى الظلام ؟!

● ما معنى ان قوة الأبصار ٦ على ٦ ؟٠٠

ـ قلت ان « الشبكية » تحس الضــوء بطريقة كمية ٠٠ بمعنى ان سطحها المواجهة للعدسة أو « البللورية » ملىء بالمخروطات الحساسة، كل مخروط منها يرى خيطا واحدا من الضوء ٠٠ وكل مخروطين من هذه المخروطات بين قاعدتهما زاوية ثبت بالتشريح انها تمثل ٥ درجات ٠٠ هذه الدرجات الخمس تمثل الفتحة فى الحلقة التى على « لوحة الكشف » فاذا رأت العين هذه الفتحة كانت الزوايا بين قواعد المخروطات كل زاوية منها ٥ درجات ، أى أن قوة الأبصار سليمة ٠٠ أما اذا لم تر العين الفتحة فمعنى ذلك أنالزوايا بين قواعــد المخروطات الحساسة التى على سطح الشبكية أكثر من ٥ درجات ، ولذلك فهى لاتراها ٠!

● **الحكمة الشعبية التى تقول « العين عليها حارس » ٠٠ خرافة أم علم ؟**

ـ لا هى خرافة فقط ، ولا هى علم فقط ٠٠ انها خرافة علمية ٠! فالعين تشغل أصغر حيز من السطح المعرض من جسم الانسان للخطر ٠٠ وكلما قل الحيز ، كلما قلت درجة التعرض للخطر ٠٠

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان عظام الوجه المحيطة بالعين تحت الحاجب وفوق الخــد بارزة ، ولذلك فهى تحميها من الأخطار التى لا تتعدى حدود هذا البروز ٠

أما غير ذلك من الأخطار ، فان الجفون تقوم ضده بدور وقائى كبير ، وهى تنسدل فوق العين فور شعور الانسان بالخطر ٠٠

مع ذلك ، كثيرا ما يصل الخطر الى العين رغم أنف حارسها ٠!

● **هل أستطيع أن أعرف سر تفوقك ؟٠٠**

ـ ان كنت متفوقا حقا كما يقول الناس ، فأنا أعتقد ان ذلك يرجع الى ثلاثة أسباب :

١ ـ دراستى العلمية فى ال « مورفيلدز » بجامعة لندن ومستشفى « الجيمين كرنكن هوس » بجامعة فينا ٠ والبعثات الدراسية الأخرى التى قمت بها على حسابى ٠

٢ ـ آلاف العمليات التى أجريتها بلا حصر وأنا أجوب ريف مصر فى بدء حياتى العملية .

٣ ـ اطلاعى المستمر ٠٠ فأنا أقرأ أولا بأول كل التطورات العلمية التى تطرأ على طب العيون وجراحة العيون ٠٠

● فى ٥٠ سنة مارست فيها المهنة ٠٠ قل لى : ماذا أضفت اليها ؟٠٠

ـ أستطيع أن أقول اننى :

١ ـ أول طبيب مصرى دخل معملا ليقطع شوطا طويلا فى أبحاث مرض « الرمد الحبيبى » والتى ما زالوا يستكملونها للآن ٠

٢ ـ أول من أدخل فى مصر عملية « انفصال الشبكية » وقد أجريتها لأول مرة سنة ٢٦ ٠ والشبكية كما قلت مثل «رتينة الكلوب» وهى تعوم على سائل هلامى من « الجيلوتين » يحفظها فى مركز مواز تماما للعدسة أو البللورية ٠٠ ويحدث الانفصال اما لرمد ، أو لصدمة مفاجئة على الرأس ، فتنخرق الشبكية ويتسرب اليها السائل الجيلوتينى ، فتنهار وتغير مكانها أمام العدسة فلا تصل اليها الأضواء ٠٠ كما أنها تنفصل عن « المشيمة » التى تغذيها بالدم ٠٠ وتتلخص عملية الانفصال ـ مع التبسيط الزائد ـ فى أن أفتح على الشبكية من الخلف ثم أصفيها من السائل الجيلوتينى الذى تسرب اليها واصلها بالمشيمة ، فتأخذ مكانها أمام العدسة وتشتغل !

٣ ـ كانت الأبحاث الميكروسكوبية على العين مقصورة على العين الميتة ، وانا أول من أدخل البحث الميكروسكوبى على العين الحية فى جسم المريض وذلك بتوفير اضاءة خاصة استعمل فيها « المصباح ذا الشق » ..

٤ ـ عملية الـ « كاتا راكت » ، وهى « المية » التى تصيب العين كما يسميها العامة ، أو « الماء النازل » كما تسمى عند العرب ٠٠ وهى أن تصاب البللورية بالاعتام وتفقد شفافيتها ٠٠ كان الأطباء ـ وما زال معظمهم للآن ـ ينتظرون حتى تعتم العدسة تماما ثم يجرون جراحتهم فيستأصلون العدسة ويتركون غلافها الذى يظل شفافا ٠

وحتى تعتم العدسة تماما كانوا يقولون لمرضاهم « استنى لما عينك تطيب » أى تفقد العدسة شفافيتها نهائيا !

وكان ذلك يعرض المرضى لتعطيل اعمالهم وربما الى فقد وظائفهم . فقمت ـ لأول مرة ـ باجراء هذه العملية بأن استأصلت العدسة وغلافها قبل أن تعتم تماما وأحيانا أضع بدلا منها عدسة صناعية ..

***

● ما هى الجراحة التى لم تجر فى العين للآن ؟.

ـ جراحة وصل العصب البصرى عندما ينفصم .. فالأعصاب الحسية فى اى مكان من الجسم يمكن وصلها اذا انقطعت .. اما العصب البصرى اذا انفصم ، يعوض ربنا .!

● وأمراض العين الأكثر انتشارا بين الشعب ؟.

ـ الرمد الحبيبى ، والرمد الصديدى .

● هل تتعامل مع المعجزات !؟.

ـ كثير جـــدا ‥ فانا أحيانا أخرج من غرفة العمليات وشــفتاى مقلوبتان من عدم الرضا عن العملية ‥ ولكن لعوامل طبيعية قد ترجع لحسن استعداد جسم المريض أفاجأ بالعملية وقد نجحت مائة فى المائة ٠ وأحيانا أجرى عملية ممتازة وأفاجأ فى اليوم التـــالى وقد امتــــلأت بالصديد !٠

● كم قوة نظرك ؟.

ـ ٦ على ٦ .. بالنضارة .! وفى العادة فان الرجل الذى يصل سن ٤٥ ولو بنظر كامل عليه أن يستعمل نظارة طبية فورا ، لأنه يتعرض بعد ذلك لما يسمى « ضعف البصر الشيخوخى » !٠

● ما هى أقوى الكائنات أبصارا ؟٠

ـ فصائل « الطيور الجارحة » مثل النسر والحداة .

● قل لى أحسن نصيحة للبعد اطول مدة عن الظلام ؟.

ـ ان تحمل فى جسدك صحة جيدة .. فالبصر السليم فى الجسم السليم !٠

● واقصر الطرق الى العمى ؟.

ـ الأمراض ‥ والأرماد ‥ وسموم الكحول والتدخين !٠

● الشخصيات الكبيرة تملأ مراكزها ، وتملأ ملابسها وكيانها ‥فاذا دهمها المرض تضاءل أمامها السلطان ، وتحول الانسان الى ‥ انسان . ! احك لى كيف تكون الشخصيات الكبيرة وهى بين يديك ؟ ‥

ـ انهم يترددون على عيادتى دائما .. فمعظم الكبار اشتروا مراكزهم الكبيرة ودفعوا الثمن من نظرهم !٠ وهم اما يأتوننى لأعالجهم علاجا عاديا بعيدا عن الجراحة ، وفى هذه الحالة لا ألمح على شخصياتهم تخلخلا ما ‥ أما اذا اجريت لأحدهم جراحة ، فأنا اتجاهل شخصيته تماما وهو ممدد

أمامى على منضدة العمليات اركز انتباهى كله فى قطاع لا يزيد طوله على ٣ سنتيمترات ، ولا اعى عدا ذلك شيئا ! .. واللحظة التى أحس فيها أن شخصية المريض سوف تدخل فى حسابى وتتسال الى حالتى النفسية .. فاننى لا أجرى العملية .!

واذكر ان أستاذى فى مستشفى « الجيمين كرنكن هاوس » بفينا كان يقول لى دائما « ان الجراحة شجاعة » ! وعندما جاء الطبيب ليولد زوجة نابليون الشمسوية ، خشى نابليون أن تهتز يد الطبيب من الرهبة وهو يجرى العملية ، فاستدعاه وأعطاه كأسا من النبيذ وقال له : « أيها السيد الطبيب .. أنا لا أرى فارقا بين زوجتى وبين أية امرأة من الشعب .. وارجو ان يكون هذا هو رأيك أيضا ! » .

● **هل تدفع زكاة الطب ؟.**

ـ اكثر من النصاب المقرر .. فعيادتى اذا دخلها ١٠ مرضى ، واحد منهم فقط يدفع ، والباقى لا يدفعون !.

● **اذن سوف تجيبنى بصراحة على هذا السؤال .. كم ثروتك من عيون الناس ؟.**

ـ الستر ..

● **وأكثر تحديدا ؟**

ـ الستر الدائم .!



دكتور محمد ابراهيم

متى يستغنى الانسان عن قلبه ؟!

((... وفى الليل ، كنت أسهر اتطوح فى حلقات الذكر التى تقيمها الطريقة الشاذلية ، أو أجلس فى ((الديوان)) مع طلبة الأزهر أستعرض امامهم معلوماتى الحديثة .. وكثيراً ما كنت ألتحم معهم فى نقاش حاد .. كانوا يقولون لى أنه ورد فى كتاب ((بدائع الزهور ان السحب ((غرابيل)) فى السماء .. وان الأرض يحملها ثور على أحد قرنيه فاذا نقلت الى القرن الآخر حدث على الأرض زلزال .!

وكنت أقاوحهم .. أقول لهم أن الأرض تسبح فى الفضاء من غير ثور وان السحب بخار ماء متكثف .. فيتهموننى بالكفر والالحاد .!))

الحب اختاروا له مكانا .. القلب .!

والايمان اختاروا له مكانا .. القلب .!

والأمل اختاروا له مكانا .. القلب .!

ان القلب هو سر الحياة الغامض .. هو الحجرة الضيقة التى تسكن فيها حياتك .. ويوم يطلب منك الله أن تخلى الحجرة ، فانك تموت .!

وهذا الرجل يتعامل مع القلوب .. ٤٤ سنة عاشها وهو يخوض معركة بلا لهب ضد الموت .. ومن عرق جبينه ، ومن القلوب المريضة التى يحملها الناس فى صدورهم .. بنى فى « منيل الروضة » فيلا كالقصر كلفته ٢٠ ألف جنيه .. واشترى فى بنى سويف والفيوم أراضى زراعية لم يقل لى مساحتها .. واشترى من شركات كثيرة بعض اسهمها . وما تبقى بعد ذلك وضعه فى احدى خزائن بنك مصر !.

قال لى « ان كل مليم فى ثروتى كسبته من عمل الطب النظيف .. ودفعت ثمنه عرقا سال على جبينى .. ومع ذلك فأنا أخجل احيانا عندما أقارن ثروتى التى جمعتها فى العمر كله بثروة بائعى الطعمية » !!

***

قال لى الدكتور محمد ابراهيم طبيب القلب والعميد السابق لكلية طب قصر العينى :

● سوف أنفعك بمعلوماتى .. ان عمرى الآن ٦٦ سنة ، فقد ولدت فى ٩ مارس ١٨٩٩ .. ومع ذلك فذاكرتى قوية جدا .!

ولدت فى قرية « شريف باشا » على بعد ٥ كيلومترات من بنى سويف ، كان أبى عمدة القرية ، وكنت أنا بحكم المولد « ابن العمدة » .!

دخلت « كتاب الشيخ على » .. ولم يكن الشيخ العريف يضربنى . كان يمسك حصوة ويقرص بها آذان سائر الصبية ماعداى .. فقد كان يقرأ راتبا من القرآن فى بيتنا كل يوم .. وعريف الكتاب عندما يقرأ القرآن فى بيت العمدة ويتذوق طعم ذبائحه ، لا يضرب ابنه !

حفظت من القرآن حتى « سورة يس » .. وتعلمت من الحساب لغاية « القسمة » ، وحفظت جدول الضرب ..

● دخلت مدرسة بنى سويف الأميرية الابتدائية وعمرى ٨ سنوات. كان أغلب صبية القرية قد ارتدوا القفطان والعمامة وذهبوا الى القاهرة يدرسون فى الأزهر، ولكنى كنت أول واحد فى القرية يلبس البدلة ويدخل المدرسة الميرى!.

وكنت أركب الحمار كل يوم الى بنى سويف .. وفى الطريق كنت أمر على بعض القرى الصغيرة فيتحرش بى صبيتها، يسخرون من بذلتى ويشيعوننى بالطوب!.

● أمتع أيام هذه الفترة من عمرى كانت فى أجازة الصيف .. كنت أمضى النهار العب « الحكشة » بالكرة والعصا مع عيال القرية أو اعوم فى ترعة « السحار » وفى الليل كنت أسهر أتطوح فى حلقات الذكر التى تقيمها الطريقة الشاذلية، أوأجلس فى الديوان مع طلبة الأزهر من أبناء القرية استعرض أمامهم معلوماتى الحديثة .. وكنت التحم معهم كثيرا فى نقاش حاد .. كانوا يقولون لى انه ورد فى كتاب « بدائع الزهور » ان السحب غرابيل فى السماء، وان الأرض يحملها ثور على أحد قرنيه، فاذا نقلها الى القرن الآخر حدث على الأرض زلزال!

وكنت اقول لهم ان الأرض تسبح فى الفضاء من غير ثور، وان السحب بخار من ماء متكثف .. فيتهموننى بالكفر والالحاد!.

● لم أرسب سنة واحدة فى المرحلة الابتدائية .. أخذت الابتدائية سنة ١٢.

سافرت الى القاهرة. دخلت مدرسة الخديوية الثانوية. عشت ٣ سنوات مع عمتى، ثم سكنت وحدى فى شقة فى حى الحنفى ايجارها ٥٠ قرشا فى الشهر ..

جلس عبد الخالق حسونة على التختة خلفى معظم سنوات الدراسة .. كنت تجد معظم طلبة الفصل من الفلاحين السمر، بينما عبد الخالق حسونة أبيض اللون ارستقراطيا فخم الأناقة!.

● كان أبى يرسل لى ١٥٠ قرشا فى الشهر. كنت أدفع منها ٥٠ قرشا ايجار الشقة، واعيش بالباقى. كنت أعتمد على الفول والطعمية فى معظم وجباتى. ادخل أى مطعم فآكل طبقا من الفول وطبقا من السلطة ورغيفا وقطعة كبيرة من « البسبوسة »، وأدفع قرشا واحدا ثمنا لهذا كله!

وكنت اغرق في الدسم أول كل شهر ، عندما تعبر أمي عن حنانهـا فترسل لى « زوادة » من الفطير والبيض والعسل والسمن السايح !

● بدأت الحرب العالمية الأولى . كنت في أجازة الصيف أسافرالى البلد . وكان أبى يشكو لى من ضغط « الادارة » عليه لكى يجمع الأنفار للسلطة ..

وكنت أجلس في «الديوان» في ليالى رمضان .. الفقهاء في حجرة يقراون القرآن ، وأنا والضيوف من أعيان الناحية في حجـرة أخرى نتحدث في السياسة !

وكان حماس الشعب أيامها معبأ ضد الأتراك .. كانت تركيا تحاول غزو مصر والاستيلاء على قناة السويس ، فأرسلت جيوشها يقـودها « جمال باشا » عبر الشام وصحراء سيناء ، ولكن الانجليز نجحـوا في هزيمة جمال باشا في معارك كثيرة ..

● كنت أقرا « الاهرام » و « المقطم » وكتبا كثيرة في التاريخ واللغة العربية . حفظت « مقامات الحريرى » وقرأت كتابا ضخما عن «الشام» أيام العرب .

نجحت في الكفاءة ، وكان ترتيبى التاسع في القطـر . نجحت في البكالوريا سنة ١٦ ، وكان ترتيبى الثالث في القطر ، وكان الأول والثانى من زملاء الفصل .. سنة رابعة رابع !

***

● قالوا ان الطلبة المتفوقين يدخلون مدرسة الطب .. فدخلت الطب .. كان مدير المدرسة « دكتور كيتنج » رجلا عســـكريا من الجيش الانجليزى . كان يحب النظام ويحرص على كرامة المدرسة .

سافر معظم أساتذة المدرسة الأجانب بسبب ظروف الحرب ، وبقى قلة من الأساتذة معظمهم من المصريين .. ولذلك كنا في دراستنا نعتمد على أنفسنا .. كنا نعتمد على شيئين : الكتاب ، والجثة .. وكانت الجثث متوافرة ، وفى سنة ثانية وحدها كان كل طالب يشرح جثتين أو أكثر .!

وكنت متقدما في دراستى ، ولكنى لم أطلع أول الفرقة أبدا .. كان ترتيبى يتأرجح بين الثانى والثالث !

● بدأت ثورة ١٩ في ٩ مارس . كنا في الأقسام والمدرجات عنـدما سمعنا أصوات هتاف خارج المدرسة .. كانت مظاهرة من طلبة الحقوق وطلبة المدارس العليا الأخرى ..

خطب فينا الدكتور كيتنج مدير المدرسة الانجليـــزى وطلب منا الا نشترك فى المظاهرة لم نسمع كلامه وخرجنا لننضم الى المتظاهرين ، مشيت مع المتظاهرين حتى ميدان باب الخلق ، وهناك أطلق الانجليـــز علينا الرصاص فتفرقنا .. عدت الى البيت وكنت أسكن فى شـقة فى « شارع المواردى » بالمنيرة مع ٣ من زملائى طلبة الطب.

● تقطعت المواصلات ، وفرغت النقود من جيبى وأطل على شـــبح الجوع .. جمعت كتبى وملابسى وبعض المنشورات الثـورية التى كان الطلبة يوزعونها .. وضعتها فى « مقطف » وركبت مركبا فى النيل الى بنى سويف .

فى الطريق عند الواسطى ، اعترضت المركب دورية انجليـزية فى « لانش » . ارتفعت دقات قلبى ، واغمضت عينى وأسلمت نفسى للمصير ... فتشت الدورية المركب وقلبت المقطف ولكنهم ـ ربك سترها ـ لم يعثروا على المنشورات !

● سمعت فى البلد اخبارا حزينة عن قرية « الشيخ على » المجاورة لنا . كان بعض شباب القرية قد اعترض طريق شلة من العســـاكر الانجليز ودارت بين الطرفين معركة . وفى الفجر ، حاصر الانجليز القرية وشنوا عليها حملة انتقام استعملوا فيها البنادق والمترليوزات .. اراقوا صفائح السمن ، وكسروا بلاليص الجبن والعسل ، وقتلوا أكثر من ٣٠ رجلا ..

● ضاعت على ٦ شهور،عدت بعدها الى القاهرة لأستأنف الدراسة. تركت كتبى فى البلد وبعد أن بدأت الدراسة طلبت من أبى أن يرســلها لى . أعطى أبى أحد « المراكبية » قفة فيها الكتب وزوادة الشهر .. سطا بعض قراصنة النيل على المركب .. كانت راسية على الشاطىء فدفعوها الى عرض النيـــل ثم أفرغوا حمولتها فى مركبهم ، بما فيهـــا الـكتب والزوادة !

... أخذت البكالوريوس سنة ٢١ .

***

● فكرت ان أعمل طبيب مركز فى مصلحة الصحة ، ولكنى فضلت ان أكمل تمرينى . اشتغلت « مساعد اكلينيكى » بلا مرتب فى مستشفى قصر العينى ، وفتحت عيادة فى « الخضيرى » لكى أغطى مصاريفى !

كانت وظائف أطباء الامتياز قليلة ، عثرت على مكان طبيب امتياز بعد سنة وأربع شهور ! سمعت بعدها عن وظيفة طبيب فى الحجر الصحى بسواكن فى السودان ، بمرتب ٤٥ جنيها فسافرت ..

كانت مهمة المحجر أن يعنى بالحجاج الوافدين من وسط وشرق افريقيا فى طريقهم الى الحجاز .. كان الحجاج يرحلون من أوغنده ومن كينيا سيرا على الأقدام .. بعضهم يموت فى الطريق ، تفترسه اشعة الشمس وأنياب الوحوش .. والسيدات منهم كن يلدن فىالطريق .. ويصلون سواكن فى النهاية عراة الا من قطعة جلد تغطى عوراتهم ، يستندون من المرض والاعياء على حرابهم !

● عشت هناك أسعد أيام شبابى .. الأرانب والغزلان كنا نصيدها من برارى طوكر . والسمك كنا نصطاده من البحر الأحمر . والفراخ كنا نشتريها الفرخة بقرشين . والسكن مجانا . والخدم من المحجر !

● رجعت بعد ١٠ شهور .. ارسلت الى مصلحة المحاجر تلغرافالكى اعود . عدت الى الاسكندرية لأجد خطابات كيدية سبقتنى تقول اننى أسكر طينة كل مساء ، واننى نجوت من حادث سيارة فى سواكن بعدما كدت اقع فى البحر بسبب السكر .. ولم اكن حتى ذلك الوقت أعرف طعم البيرة ولا لون الخمر !

● كنا سنة ٢٤ عندما رجعت من سواكن .. كان معى ٣٠٠ جنيه ففتحت عيادة فى بنى سويف ، بلغ دخلى منها فى أول شهر ٩٦ جنيها ! اتسعت أعمالى وذاعت شهرتى ففتحت مستشفى الحقت به صيدلية فى « بوش » .. انضممت الى القلة القليلة من أعيان المديرية الذين يملكون سيارة خاصة وتليفونا !

وصلنى خطاب من قصر العينى يقول : انتخبناك نائبا «طبيبا مقيما» كان فى القصر العينى كله ٤ نواب ٢ لقسم الجراحة و ٢ لقسم أمراض باطنة ، وكان مرتب النائب ٣٠ جنيها فى الشهر « الآن ١٩ جنيها فقط ! . » . كان ايرادى من العيادة والمستشفى قد بلغ ١٢٠ جنيها فى الشهر ، فترددت . أرسلوا الى تلغرافا يستعجلوننى فسافرت وفى نيتى أن أعمل « نائب جراحة » . وجدت وظيفة نائب جراحة قد شغلت فقبلت ان اعمل نائب أمراض باطنة ! تعرج بى مستقبلى !

● وجدت لنفسى مجالا واسعا للتمرين . كان « الدكتور بيجام » استاذ القسم يعاملنى معاملة الند للند .. يناقشنى ويستمع لوجهة نظرى ، وكان من تواضعه يصب لى الماء على يدى ويلبسنى البالطو ! لم يكن فى القسم « معمل اكلينيكى خاص » . جمعنا انبوبة من هنا ومخبارا من هناك ، وانشأنا معملا خاصا للقسم .

أدخلنا فى القسم أجهزة حديثة . أجهزة لتحليل الدم من أجل السكر « والبولينا » .. وأجهزة لعمل تحليل لعصارة المعدة .. كان

تشخيص المرض قبل ذلك يعتمد على التخمين و « الشطارة » ، فأصبح للتشخيص أساس علمى !

● غرقت فى مكتبة الكلية اطلع على مئات المراجع العلمية .. كانت فترة العلم فيها بلا حدود ، والتمرين بلا حدود ، فخلقت منى طبيب أمراض باطنية .. بالفعل !

● عقد «المؤتمر الدولى لطب المناطق الحارة» فى القاهرة سنة ٢٨. زار أعضاء المؤتمر المستشفى ، أعجبوا بالحالات التى أعالجها . وعلق الدكتور شخاشيرى على ذلك فى جريدة المقطم فكتب عمودا باكمله !

● حدث مرة .. كنت عائدا الى المستشفى ففوجئت بـ « كردون » من العساكر يحاصرونه ، و « شاهين باشا » وكيل وزارة الداخلية للشئون الصحية يقف على باب المستشفى مع عميد الكلية الانجليزى « الدكتور مادن » .. وما كدت اقترب من «شاهين باشا» حتى ابتدرنى قائلا«ازاى تسمح لنفسك يا دكتور انك تدخل حالة كوليرا فى المستشفى» .. وتبعه الدكتور مادن بسيل من التوبيخ ، وسلمنى انذارا رسميا لاهمالى فى التشخيص !

ولم تكن حالة كوليرا .. كانت حالة تسمم بالزرنيخ .. طفل صغير دست له زوجة أبيه كمية من الزرنيخ فى الطعام وجاء الى المستشفى فى حالة قيء واسهال .. والقيء والاسهال من اعراض الكوليرا ! وفى اليوم التالى جاء تقرير الطبيب الشرعى يؤيد سلامة التشخيص .. وسحب مادن الانذار ، واستبدل به خطاب شكر رقيقا !

***

● اختارونى لبعثة الى لندن لأحصل على درجة العضوية بكلية الأطباء الملكية .. لكنهم أعطوا البعثة فى آخر لحظة لابن رئيس الوزراء ليدرس الحقوق فى باريس !

● التحقت بوزارة الصحة .. عينت اخصائى أمراض باطنه فى مستشفى بنى سويف الأميرى . كنت على اتصال بالبروفسور «بيجام» ارسل اليه الحالات الهامة وأزوره فى قصر العينى كلما حضرت الى القاهرة . ارسل الى البروفسور بيجام خطابا يقول فيه انه تقررت لى بعثة جديدة الى لندن .. قال فى سطر من خطابه : « ان مكانك ليس العمل فى الأرياف ، وانما العمل فى الكلية » .!

● سافرت في بعثة ٣ سنوات في مايو سنة ٣٠. في أكتوبر كنت قد حصلت على درجة العضوية بكلية الأطباء الملكية . اختصرت البعثة من ٣ سنوات الى ٤ شهور !.

● أرسل الى بروفسور بيجام يهنئني ويطلب مني أن أعود . وفي عودتي مررت بباريس وزرت مستشفى الأمراض الصدرية ثم سافرت الى فينا وزرت مستشفى «الجمين كرنكن هوس» . عدت في أوائل سنة ٣١ .

● ادخلت المستشفى لأول مرة جهاز رسام القلب الكهربائي .. تطلب مني ذلك دراسة طويلة وتفرغا ، بدأت اتخصص في امراض القلب .. تقدمت للدكتوراه في مارس ٣١ ، لم تكن الدكتوراه رسالة نقدمها ، كانت امتحانا نؤديه ! كنت أول مصري حصل على الدكتوراه من كلية طب قصر العيني ..

● مر الطب في مصر بثلاثة عصور : العصر الذهبي ، عصر الركود ، وعصر النهضة ..

العصر الذهبي : بدأ سنة ٣٠ وانتهى سنة ٤٦ . انشأنا « الجمعية الاكلينيكية » برئاسة بروفسور بيجام ، وكنت سكرتير الجمعية ورئيس تحرير مجلتها ، أول مجلة طبية تعنى بالبحث الطبي في مصر . كان للجمعية نشاط علمي مجاله الأبحاث ، ونشاط اكلينيكي ـ عملي ـ شمل كل فروع الطب .. فتحنا أعيننا للطرق الحديثة في التشخيص والعلاج .. الطريقة أو الجهاز الذى نسمع عنه كنا نستورده ، وندخله في مستشفى قصر العيني .. أمضينا ١٦ سنة نسير مع دول العالم بنفس الخطوة!

وفي الجانب الآخر لم يكن يدخل كلية الطب أكثر من ١٠٠ طالب في الدفعة .. الدراسة الاكلينيكية ـ أو « الدراسة السريرية » كما يسمونها في سوريا ـ كان الاساتذة يتولونها باهتمام ، كل أستاذ يمر على المرضى ومعه ١٠ طلبة على الأكثر ..

تخرج في هذا العصر دعامات الطب المعاصرون .. اذكر من بينهم بول غليونجي ، وانور المفتي في الأمراض الباطنية . وعبد العزيز سامي في امراض الصدر ، ويوسف جنينه في أمراض الأعصاب . ومحرز والشربيني وابو ذكرى في الجراحة ، وخليل مظهر في أمراض النساء .

عصر الركود : بدأ سنة ٤٦ . عندما انتشر في الصين وباء الملاريا الخبيثة حدثت ضجة في مجلس النواب . طالب بعض النواب برفع القيود عن التعليم لمواجهة حاجة البلاد الى الأطباء . كانت كلية الطب تقبل في الدفعة

ايامى ٥٠ طالبا ، تقرر أن تقبل الكلية ٥٠٠ طالب فى الدفعة ! لم يصحب ذلك زيادة مماثلة فى عدد الأسرة وعدد الاساتذة وعدد المعامل والوسائل التعليمية المختلفة . بعد أن كان الاستاذ يمارس « الدراسة السريرية » ومعه ٥ أو ١٠ طلاب ، أصبح يمشى فى عنابر المرضى يجر وراءه جيشا قوامه ٥٠ طالبا !

تحولت الدراسة العملية الى دراسة نظرية ، وانخفض مستوى الطب !

عصر النهضة : بدأ فقط من ٣ سنوات .. اتجهنا الى انقاص عدد الطلبة بدل ٥٠٠ طالب أصبحنا نقبل فى الدفعة ٢٥٠ طالبا ، يصلون الى ٣٠٠ فى « حالات الضغط »

مازلنا فى حاجة الى معامل ، ومازلنا فى حاجة الى مزيد من الأسرة، مازلنا فى حاجة الى ضعف عدد الأساتذة الموجودين الآن !

● اشتغلت مدرسا كل الوقت حتى سنة ٣٤ ، ثم مدرسا نصف الوقت وفتحت عيادة لى . رقيت مساعد أستاذ ثم استاذا . أنتخبت زميلا بكلية الأطباء الملكية بلندن سنة ٥١ ، وهى درجة فخرية لايحملها فى مصر غير ٣ أطباء !

شغلت كرسى العمادة فى كلية طب قصر العينى فى سبتمبر ٥٦ . قبلت المنصب على مضض فقد خلقت لأمارس الطب ، ونشاط العمادة معظمه نشاط ادارى !

***

قلت للدكتور محمد ابراهيم :

● متى يستغنى الانسان عن قلبه .. وماهى آخر اخبار « القلب الصناعى » ؟

ــ يستعملونه الآن فى العمليات الجراحية التى تجرى فى القلب . والمشكلة الآن مشكلة وقت ، فالقلب الصناعى لايستطيع أن يعمل لمدة طويلة .. ومشكلة حجم ، فالقلب الصناعى مازال ضخم الجثة ، ولايمكن استعماله استعمالا داخليا بحيث يوضع داخل التجويف الصدرى مكان القلب الطبيعى !

● لماذا ذكر الله هذه الآية فى القرآن : « ماجعل الله لرجل منقلبين فى جوفه » ما المعنى العلمى للآية .. ولماذا وردت بهذا التعبير ؟

ـ المقصود بالقلب هنا البال .. محور التفكير .. والرجل لايستطيع ان يفكر على محورين ، و « صاحب بالين كداب » .. هذا ما أفهم والله اعلم !

● هناك صلة تاريخية بين القلب والحب .. و ((كيوبيد)) اله الحب عند الاغريق لايحلو له ان يرشق سهامه الا فى القلب .. هل هناك صلة علمية بين الاثنين : القلب والحب ؟.

ـ القلب .. جهاز حساس يتأثر بأى تغيير عضلى أو عصبى أو نفسى، وفى حالات الحب والانفعال العاطفى عموما تحدث تغييرات عصبية ونفسية تؤثر على القلب فتزداد ضرباته !

● ٣٧ سنة وانت طبيب .. ماذا فعلت للطب ؟.

ـ أستطيع أن أعد لك :

١ ـ اشتركت فى انشاء « الجمعية الطبية الاكلينيكية » وفى تحرير مجلتهـا .

٢ ـ اشتركت فى ادخال طرق الفحص الحديثة .. مثل :

ـ الفحص برسام القلب الكهربائى .

ـ الفحص بالقسطرة القلبية « كارديال كاثيتر » وهى خرطوم طويل يدخل فى احد الأوردة ويدفع حتى يصل الى القلب ويمكن بواسطته أخذ عينات من الدم الموجود فى الغرف المختلفة بالقلب ، ومعرفة تغيرات الضغط الدموى داخل هذه الغرف !

ـ طريقة الفحص الشعبى . وفحص النخاع الشوكى بواسطة مادة « البيدول » الملونة ..

ـ الفحص بطريقة التسجيل الكهربائى لأصوات القلب .

ـ الفحص بطريقة التسجيل الكهربائى لحركات الجسم نتيجة اندفاع الدم فيه « باليستوكاردو جرافى » ..

٣ ـ أنقذت حياة آلاف المرضى ، وتخرج على يدى مئات التلاميذ الأطباء !

● ماهى أول عملية جراحية أجريت على القلب فى مصر .. وما هى العملية التى لم تجر للآن ؟..

ـ اول عملية كانت عملية « التصاق التامور » وأعقبتها عملية توسيع لصمام القلب القلنسوى ـ ميترال ـ وكانت حالة ضيق بالصمام على

اثر اصابة روماتزمية فى سن مبكرة .. وقد أجريت العمليـــة من عشر سنوات فقط .. وجراحة القلب حديثة نسبيا ، عرفتها امريكا والســويد وانجلترا بعد سنة ٤٠ ، وعرفت فى مصر عام ٤٨ .

وعمليات كثيرة لايمكن اجراؤها على البشر فى مصر الآن .. وهى العمليات التى تحتاج الى قلب صناعى يعمل باستقلال فترة طويلة .

● أن قلبه ضعيف .. قال له الأطباء ان قلبه لن يتحمل الحياة ، وان ضرباته سوف تتوقف فى اى لحظة .. أصحاب القلوب الضعيفة هل يتزوجون ؟.

ـ ليست كل حالات الضعف .. فهناك حالات يكون الزواج لها نعمة وهناك حالات تكون فى الزواج نهاية أجلها .. وخصوصا اذا كان الطرف الآخر للزواج امرأة « مناكفة » !

● انتشرت «مودة» الموت بالسكتة القلبية . ماتعليلك لهذه الظاهرة ، ولماذا يموت الناس بالسكتة ؟.

ـ هناك زيادة مطردة ، هذه الأيام ، فى أمراض الشرايين التاجية .. قبل ٣٠ سنة كنا نبحث شهورا لكى نعثر على حالة ذبحة صدرية أوجلطة تاجية .. أما الآن فأنا أصادف حالتين علىالأقل كل يوم ! والجلطةوالذبحة من أهم أسباب السكتة القلبية !

● ماهى امراض القلب الشائعة فى مصر ؟.

ـ ارتفاع الضغط ومضاعفاته بنسبة ٤٠٪ ، وامراض الشرايينالتاجية بنسبة ٣٠٪ ، وروماتزم القلب بنسبة ٢٥٪ ، والباقى امراض اخــرى نادرة !

● هل كشفت على قلبك مرة .. هل هو سليم مائة فى المائة ..وهل يتاثر القلب بالشيخوخة ؟.

ـ أنا لم أكشف على قلبى مرة فى حياتى .. ولا انصح احدا بأنيكشف على قلبه مادام لايحس بمرض فيه ، والا تعرض لـ « قائمة » من امراض الوهم !

والقلب يستهلك على مر السنين كسائر أعضاء الجسم .. مثله مثل « كوتش » السيارة ، وهناك عائلات لايظهر فيها الاستهلاك الا بعد ٧٠سنة وعائلات يظهر فيها الاســـتهلاك فى سن الأربعين .. والوراثة لها دور كبير .

● ان العلاج فى مستشفيات الحكومة مشكلة متعددة الأطراف والخط الرئيسى فى المشكلة هو « نقص الميزانية » .. فما هى الخطوط التفصيلية للمشكلة ؟.

ــ العيب الموجود فى المستشفيات الحكومية ، تجده على نطاق أصغر فى المستشفيات الخاصة .. هذا العيب يمكن تلخيصه فى نقص هيئة التمريض .. والتمريض فى الطب ، هو كل شيء ، ففى الجراحة قد تكون العملية ناجحة مائة فى المائة ثم تسوء نتيجتها بسبب الاهمال فى التمريض وفى الأمراض الباطنية قد يكون التشخص سليما والعلاج سليما ، ولكن الاهمال فى التمريض يشيع المريض الى باب القبر !

هذا هو أحد الجوانب الرئيسية فى المشكلة .. وهناك أيضا الروتين يؤثر فى سرعة الانجاز .. والمرض ــ دائما ــ لا يعرف الانتظار !

● الأب يقول لابنه : أريدك طبيبا .. والبنات يحلمن بزوج يعلق فى اذنيه سماعة الطبيب .. هل مازال الاطباء هم « الفاكهة النادرة » بين خريجى الجامعة ؟..

ــ كان زمان ! فالبلد فيها الآن أكثر من ١٢ الف طبيب ، وبعد خمس سنوات سيرتفع العدد الى ١٥ الف .. والأطباء ليسوا الآن فاكهة نادرة ، وقد بدأ شبح البطالة يهددهم !

● لمن المستقبل الآن ؟

ــ للمهندسين !



دكتور ابراهيم مجدى

كلهم يحبون الأطفال !

((وجذبت له شهرته زبائن من كل الطبقات . . زبائن يدفعون له نقودا تختلط برائحة العرق وشحم الآلة . . وزبائن يدفعون نقودا معطرة برائحة ((الماجريف)) . . وزبائن لايدفعون شيئا بالمرة ، مثل فاروق الملك السابق أعطاه الدكتور مجدى ((ولى العهد)) وهرش فاروق ذقنه ومنحه لقب ((الباشوية)) . فالملك السابق ـ حتى فى أسعد أوقاته ـ لم يكن من عادته أن يدفع !))

ربع ساعة فقط تركني مدتها فى مكتبه بالمستشفى ، ثم عاد وهــو يتمتم من بين شفتيه : « الحمد لله . . بس كبير قوى ، ١٦ رطل ! » قلت له : من هو ؟ قال : « الطفل الذى دخل الآن على يدى الى الدنيا » !

والأطفال الذين دخلوا الدنيا على يديه كثيرون . . أكثر من ١٠ آلاف طفل فى ٣٢ سنة . أخذ الـ « فيلوشيب » من كلية « سان بارتس »بجامعة لندن سنة ٣٦ .. وعاد من هناك ومعه زوجته وبنته التى ولدتها زوجته فى لندن . وسيارة فورد صغيرة قوة « ١٠ حصان » و ٤ حقائب مملوءة بالكتب والملابس . . و . . جيبه الخاوى ، فلم يكن فى جيبه وهو يدخل جمرك الاسكندرية غير قماش الجيب .!

وفى الجمرك دفع له أخوه الرسوم ، وبدأ هو يدرس أمراض النساء للطلبة فى قصر العينى ، ويشد الأطفال الى الدنيا فى مستشفاه الخاص.

وجذبت له شهرته زبائن من كل الطبقات . . زبائن يدفعون له نقودا تختلط برائحة العرق وشحم الآلة . . وزبائن يدفعون نقودا معطرة برائحة « الاربيج » و « الماجريف » . وزبائن لايدفعون شيئا مثل فاروق المـلك السابق . . أعطاه الدكتور مجدى « ولى العهد » وهرش فاروق فىذقنه ومنحه لقب « الباشوية » ! فالملك السابق حتى ــ فى أسـعد أوقاته ــ لم يكن من عادته أن يدفع .!

وتسأل الدكتور ابراهيم مجدى عن ثروته من شد الأطفال الى الدنيا فيجيبك بصراحة : مستشفى ٤ أدوار بالدقى . وعمارة ٨ أدوار قـرب الجامعة و . . ١٠ فدان فى الشرقية اشتراها باسم أولاده الأربعة . . وفوق ذلك ابتسامة كاشراق الحياة يستقبل بها الأطفال العراة وهم ينزلقون الى الدنيا . . وهى ــ وحدها ــ لاتقدر بثمن !

قال لى الدكتور ابراهيم مجدى :

● حكوا لى عندما كبرت أننى وقعت من فوق السرير وعمرى ٧ أيام اجتمعت سيدات العائلة يوم « سبوعى » وجلسن فـوق السرير فوقع السرير بى وبهن . . ولم يصبنى غير نوبة بكاء شديدة !

ولدت فى الزقازيق فى ٢ يولية سنة واحد . . ولدتنى « داية » فلم يكن هناك أيامها اطباء مولدون !. وعائلتنا من أصل عربى ولذلك عمـود

النسب عندنا محفوظ باسمائه .. واسمى باختصار : ابراهيم مجدى ، وبعده ابراهيم اسماعيل مكررة ٧ مرات ، وأخيرا جد العائلة أبو شوشة !.

● أقدم صورة باهتة أذكرها فى طفولتى صورة بيتنا فى الزقازيق وامامه حديقة صغيرة تنساب تحت قدميها ترعة ضيقة .. وداخل البيت غرفة مملوءة لسقفها بالبطيخ ! كان أبى مدير سكرتيرية المديرية فىالزقازيق انتقل أبى الى أسيوط وعمرى ٤ سنوات .. دخلت فى أسيوط مدرسة « روز دى ليزييه » لروضة الأطفال .. كان هناك معمل كازوزة فى أطراف المدينة ، وكانت هوايتى أن اذهب كل يوم الى المعمل أدفع ٣ مليمات وآخذ زجاجة .. وكانت زجاجة الكازوزة أيامها تغطى ببلية محكمة تدفعها باصبعك داخل الزجاجة .. ثم تفرغها فى جوفك !

● أخى الكبير ــ المرحوم المستشار اسماعيل مجدى ــ أخذ الابتدائية طلب أبى أن ينقل الى القاهرة ليلتحق اخى بمدرسة ثانوية .. رفضت نظارة الداخلية ، فاستقال أبى من وظيفته وفى نفسه مرارة من وظائف الحكومة .

● دخلت مدرسة محمد على الابتدائية بالسيدة زينب .. اشترى لى أبى بسكليته «١٨» كنت اذهب بها الى المدرسة .. اشتركت فى فريق كرة القدم .. وكنت ممتازا فى اللغة الانجليزية واللغة العربية . كنت أكتب موضوع الانشاء فيأخذ المدرس الكراسة ويدور بها على الفصول يقراها للتلاميذ !

وكنت أحب « يونس أفندى » مدرس العربى .. وفى يوم انتدب يونس افندى للعمل فى سنجافورة ، وأقامت له المدرسة حفلة وداع خطب فيها يونس أفندى ، وفى نهاية خطبته قال : « تعرفون أن سنجافورة مستعمرة بريطانية ، وأعدكم باننى لن أعود من هناك الا بعد ان ارفع فوقها العلم الأخضر .. واصنع منها مستعمرة مصرية » !

وصفقنا ليونس أفندى وأمنيته العاطفية الساذجة ، وظللنا نصفق له حتى اغرورقت عيناه بالدموع ..

● أخذت الابتدائية سنة ١٣ ، دخلت مدرسة الخديوية . كان ناظر المدرسة انجليزيا اسمه « مستر فيرنس » ومدرسو اللغة الانجليزية كلهم انجليز .. تعلمت التنس فى « كورت » المدرسة وكنت احتياطى فريق الكرة .. بجانب اللغة العربية واللغة الانجليزية تفوقت فى الكيمياء والطبيعة .. كان عبد الحميد افندى مدرس الطبيعة يدخلنا المعمل آخر النهار لنقوم بعمل « دياجرامز » لحل مسائل الصوت والضوء .

● اشتركت فى اضرابات سنة ١٩ .. كنت احمل شارة على كتفى وامشى بين صفوف طلبة الخديوية لأنظم سيرهم فى المظاهرات . شهدت سعد زغلول وهو يلقى « خطبة شبرا » المشهورة . كانت « لجنة ملنر » قد جاءت الى مصر لتساوم على الاستقلال . قاطعها الشعب وقاطعتها الأحزاب . طلب سعد زغلول أن يسافر على رأس وفد الى لندن ليفاوض الانجليز . أصر عدلى يكن – رئيس الوزراء – على أن يسافر هو ، وكان يكن مشهورا بممالأته للانجليز .. خطب سعد زغلول فى حى شبرا .. هاجم عدلى يكن ، ثم قال فى نهاية خطبته : « اذن فجورج الخامس يريد أن يسافر ليفاوض جورج الخامس !! »

● تأخرت فى دراستى سنة بسبب الثورة .. أخذت البكالوريا سنة ١٩ . كانت كراهية ابى لوظائف الحكومة قد سرت الى وأصبحت أمنيتى ان ادخل مدرسة الطب .. دخلت مدرسة الطب ، اشترى لى ابى « بسكليته ٢٨ » لأذهب بها الى قصر العينى ! فى أول محاضرة كانوا يدخلوننا المشرحة لنرى جثث الموتى والطلبة يفتحون البطون بالمشرط ويجزون الأطراف بالمنشار ، وبعض الطلبة كان لايطيق المنظر فيحول أوراقه فى اليوم التالى الى مدرسة المهندسخانة ! افرغت مافى معدتى داخل المشرحة . ونمت ليلتها أحلم بالجثث المفتوحة . وكرهت أكل اللحوم عدة أسابيع . ثم ألفت الدراسة الجديدة !

● لعبت كرة القدم والتنس وأنا فى مدرسة الطب .. انكسرت ساقى فى احدى المباريات فحرمت لعب الكرة واكتفيت بالتنس !

تخرجت سنة ٢٥ . كانت دفعتى من الدفع المتفوقة . من بين زملاء الدفعة دكتور عبد الحميد عطية أستاذ الرمد بقصر العينى ، ودكتور محمد على عرفة استاذ امراض باطنة ، ودكتور محمود صلاح الدين أستاذ أمراض باطنة بجامعة اسكندرية .

***

● اشتغلت طبيب امتياز فى قصر العينى .. سافرت الى انجلترا سنة ٢٧ واخذت دبلوما فى المناطق الحارة من جامعة لندن . عندما عدت كان المفروض أن اعمل نائبا فى قسم أمراض باطنة مع « البروفسور بيجوم » فرغ مكان نائب فى قسم امراض النساء ، وكنت قد عملت فى هذا القسم مع الدكتور محفوظ « باشا » والبروفسور « دوبن » وأنا طبيب امتياز ، قبلت العمل فى قسم أمراض النساء !

● ظللت نائبا ٣ سنوات .. ثم عينت مدرسا فى القسم .. كانت الجامعة قد انشئت [illegible] كنت أول مدرس امراض نساء عين فى الجامعة

طالبت سنة ٢٨ بتخصيص ٤ سيارات لقصر العينى ، مهمتها اسعاف الحالات العاجلة واحضارها الى المستشفى ، وهو نظام متبع فى كل مستشفيات العالم .. وضعت المشروع وعملت ميزانيته ، ولكن أحدا لم يستمع لكلامى !

● رشحت لبعثة الى انجلترا .. أصرت أمى أن تفرح بى قبل أن اسافر قالت لى « يابنى مش عاوزاك ترجع بواحدة انجليزية » وتزوجت قريبة لى .. ماتت أمى قبل أن اسافر بايام كأنها كانت تحس بدنو الأجل !

سافرت انجلترا .. أخذت درجة « الزمالة » – الدكتوراه – من كلية « سان بارتس » بجامعة لندن . رزقت ببنت وأنا فى لندن سميتها « سميرة » . عدت سنة ٣٦ من لندن وليس فى جيبى « قرش تعريفة » دفع لى أخى رسوم الجمرك فى الاسكندرية !

● اشتغلت مدرس امراض نساء فى قصر العينى . سافرت فى بعثة دراسية الى فينا سنة ٣٧ لمدة ٣ اشهر . فتحت لنفسى عيادة . رقيت استاذا مساعدا سنة ٤٢ . كانت مستشفيات الولادة الخاصة فى القاهرة كلها أجنبية ، والأسعار فيها خيالية ، فوق مائة جنيه .. فكرت أن أفتح مستشفى خاصا ، وضعت مشروع المستشفى ودرست نظام المستشفيات .. قامت الحرب فعطلت المشروع .. بنيت المستشفى فى سنة ٤٥ وبدأت العمل فيها فى يونيه سنة ٤٧ .. أخذت كرسى استاذية امراض النساء بقصر العينى فى نفس السنة !

● قدمت استقالتى سنة ٤٥ لاتفرغ للعيادة والمستشفى ، ولكن العميد الدكتور عبد الله الكاتب رفض استقالتى . سنة ٥٥ احالتنى الجامعة على المعاش وقالت لى « متشكرين » .. قلت وأنا اتنفس ملء رئتى : العفو .!

تخرجت على يدى ٢٠ دفعة من الأطباء . معظم تلامذتى اساتذة وأساتذة مساعدون ومدرسون .

أكسب من عيادتى . أما المستشفى فدخلها يغطى مصاريفها .. تكلفنى المستشفى ٦٠٠ جنيه مصروفات فى الشهر ، وادفع لمصلحة الضرائب ٤ آلاف جنيه فى السنة ضرائب متنوعة .. نحمده .!

***

قلت لـ «أبو الأطفال» ..

● **النساء فى مصر .. مم يشكون ؟**

– من العقم ! معظم النساء اللاتى يترددن على عيادتى يردن أطفالا! وأسباب العقم عند السيدات ترجع الى ضعف فى الغدد التناسلية ، أو

انسداد فى أبواق الرحم نتيجة حمى شديدة تعرضن لها فى الصغر ، أو « السل البريتونى » وهو منتشر بينهن بدرجة كبيرة ، و ٥٠ فى المائة من الحالات التى ترد الى اكتشف أن سبب عقمها يرجع للزوج .. وأسباب العقم عند الرجال ترجع الى اصابة تيفويد قديمة الهبت الغدة النكفية ، أو بلهارسيا شديدة ومزمنة ، أو امراض تناسلية يصاب بها الشبان التعساء فى العادة قبل الزواج !

● صف لى مشاعر الرجل فى الدقائق الأخيرة .. قبل أن يصبح أبا ؟.

ـ انه يكون عصبيا وغير مستقر .. وهو يفكر غالبا فى المولود ، ياترى ولد .. يا ترى بنت .. ومعظم الآباء يسأل عقب الولادة عن المولود ، وقلة منهم يسألون عن الأم أولا !

وكلهم يحبون الأولاد .. اذا قلت للأب : ولد .. تنفرج شفتاه عن ابتسامة ويفرك يديه من الفرح وبعضهم يأتى بحركات هستيرية لاشعورية يقبلنى مثلا ! واذا قلت له : بنت .. تأخذه المفاجأة بضع دقائق ، ثم يفيق لنفسه ويرضى بالواقع !.

و « أبرد » زوج قابلته رجل انجليزى .. ترك زوجته تلد فى المستشفى وذهب لينام فى البيت ملء جفونه .. وتعسرت الولادة وكان لابد من اجراء عملية « القيصرية » .. وطلبته بالتليفون ليوافق على اجراء العملية فصرخ فى : « وهل مثل هذه المسألة تستدعى أن توقظنى من النوم .. اعمل العملية أرجوك ودعنى انام » !

● والمرأة .. حدثنى عن المرأة فى الدقائق التى تصبح بعدها أما ؟

ـ الولادة كالمغص انقباض عضلى .. والأصل فيها الا تحس المرأة بألم ، ولكن المسألة ترجع للاستعداد الشخصى .. ومعدل الاحساس بالالم يختلف من امرأة لأخرى .. هناك امرأة تتأوه من شكة دبوس .. وهناك امرأة تدخل فى ذراعها ابرة الحقنة فلا تتوقف عن مضغ « اللبانة » التى فى فمها ! ..

والمرأة تخاف فى أول العملية .. تخاف من المجهول . ثم تأتى قمة الشعور بالألم عندما تحدث الانقباضات العضلية التى تفتح الرحم .. وبعد ذلك يأتى دور طرد الجنين ، وهى مهمة سهلة ، ويزيد من سهولتها ان تكون غريزة الأمومة وحب الأطفال متأصلة فى المرأة .. وعندما تنتهى العملية تبرق عينا الأم ويشع من جبهتها نور الهى .. انها تشعر بالرضا عن نفسها .. تشعر انها انتجت وليست مخلوقا خاملا ! ومهما وصفت فلن أستطيع أن أصور لك هذه اللحظات السعيدة ، ولن يستطيع أن يتخيلها

الا من رآها بنفسه .. أن لحظة واحدة من هذه اللحظات الانسانية تكفى لكى احب مهنتى طول عمرى !

● لماذا يبكى الطفل ساعة ولادته .. اريد تعليلا طبيا ؟

ـ ان الطفل لايبكى عقب ولادته .. انه يتنفس ! فعندما ينزلق الطفل خارج الرحم تسترخى عضلات الرحم فيضيق ، وتضغط جدرانه على المشيمة ـ « الخلاص » ـ فتقل نسبة الأكسجين الذى يصل الى المولود من المشيمة عن طريق « الحبل السرى » ويترتب على ذلك أن تزيد كمية ثانى أكسيد الكربون فى دم الطفل مما يؤثر تأثيرا كيماويا خاصا على المركز العصبى للتنفس فى المخ ، ويدفع هذا التأثير الرئتين الى العمل .. ويبدأ الطفل يلتقط أول انفاسه فى الحياة .. يلتقطها بعنف وعمق فتبدو كأنها بكاء !

● قانون « مندل » للوراثة .. ماهو أغرب مافيه ؟.

ـ يقول القسيس النمساوى « مندل » ان لكل انسان « خصائص متفوقة » و « خصائص متخلفة » .. وعندما تورث هذه الخصائص عبر الأجيال تتغلب الخصائص المتفوقة على الخصائص المتخلفة ، حتى أنها تقضى عليها احيانا . ولكن قد يحدث من جيل لجيل ان تتغلب الخصائص المتخلفة فتظهر فى الأحفاد بعض خصائص الأجداد !

والزوج الأشقر الذى يتزوج امرأة شقراء وينجب ولدا أسمر ، قبل ان يشك فى شرف زوجته عليه أن يبحث فى عمود نسبه .. وسيكتشف فى الغالب أن جده السادس كان زنجيا من جنوب افريقيا !

● ماهى أحدث عمليات الولادة ؟

ـ عملية القيصرية . وقد تقدمت الولادة فى مصر خلال الـ ٢٠ سنة الأخيرة تقدما دوليا واصبحت الولادة مهنة سهلة بسبب العناية بالجنين فى شهور الحمل ، ورسم وضعه ومعالجة أوضاعه العسرة بتحريكه الى الوضع السليم قبل الولادة .. وكانت هناك عمليات « تفتيت الجمجمة » و « تقطيع الجنين » ولكنها أصبحت عمليات تاريخية .. وان كانت تستعمل ـ احيانا ـ فى مستشفيات الحكومة فى بعض الحالات العسرة جدا التى تبلغ عنها « الدايات » !

● هل تؤمن بتنظيم النسل ؟

ـ انه ضرورة اجتماعية ملحة .. وليس فى الشرع مايحرمه .

● اذن كيف ينظم الناس نسلهم .. ماهى احدث الطرق العملية التى أكتشفت للآن ؟

ـ هناك الحبوب المعروفة . وهناك «عملية الحجز» .. الرجل يستعمل الـ « كوندن » والمرأة تستعمل الـ « ديا فراجم » .. وهناك أبحاث تحديد النسل بواسطة الهرمونات ، ولكن العلم لم يتحكم حتى الآن فيالهرمونات وحقن الهرمونات قد تؤذي الأجهزة الداخلية .. بقيت بعد ذلك طـريقة العالم الياباني « نوث » .. وهي تفيد بنســـبة كبيرة اذا كانت الدورة الشهرية منتظمة تماما عند المرأة ، وهي تقسم الشهر ٤ أســابيع ، أسبوع تستفرقة الدورة الشهرية ، والأسبوع السابق والاسبوع التالي للدورة مناسبان تماما للاتصال الجنسي ، ثم الاسبوع الأخير أسبوع التفــريغ ويمتنع فيه الاتصال الجنسي وطريقة « نوث » تستلزم كما قلت أن تكون الدورة الشهرية منتظمة جدا .. وقليل من النساء في مصر يتمتعن بهذه الهبة الالهية !

● المولود له فرحة وهو يستقبل الدنيا .. هل تسلل روتين عمليات الولادة الى قلبك فلم تسر اليك هذه الفرحة ؟ .

ـ بالعكس .. انني أفرح به ، ربما أكثر من أمه . !



دكتور عثمان خليل

راى مستقبله .. فى المنام !

« ... زارنا أحد أقاربنا الذين يعيشون فى العاصمة .. فجلست أنا وزملائى نسأله عن أرقام الترام وخطوط سيرها .. وحاولنا من معلوماته أن نرسم لأنفسنا صورة للقاهرة قبل أن نراها !

وعندما وصلنا القاهرة لأول مرة ، ظللنا يوما بطوله ندور فى شوارعها وقد تدلت ألسنتنا من الدهشة .. ولما ركبنا أول ترام أشار أحد الرفاق الى الكمسارى وقال : « شوف يا خوى .. دول بيشغلوا العساكر تقطع تذاكر » !.

مستقبلك قد تقبض عليه بيدك ، وتقرر بارادتك وحدها معظم تفاصيله . وقد تشترك مع القدر فى تقرير مستقبل أيامك . ترسم أنت الحروف ، وتترك للقدر مهمة وضع النقط !

انما الدكتور عثمان خليل وضع مستقبله بخذافيره فى يد القدر . وكان قدره مثل « فرقع لوز » يقفز بلا تعب فى كل اتجاه ! . ورسم قدره اول صورة لمستقبله . البسه جبة وقفطانا ، ووضع على رأسه عمامة وسماه : « الشيخ عثمان » !. فقد كان أبوه رجلا يلتصق بدينه . كان يصلى الفروض الخمسة فى جامع القرية ويحيى ليالى رمضان بالمقرئين واطعام المساكين ، ويحتفى بعلماء الأزهر الذين ينزلون القرية للزيارة فيستضيفهم ويفتح لهم أبواب بيته .. وامتلا عثمان خليل بالجو الدينى الذى يحيط به ، فقرر أن يهب نفسه للازهر !

ثم اعترض أخوه الأكبر ، وتدخل عند والده حتى دخل عثمان خليل المدرسة الابتدائية .. ولكن آثار الجو الدينى لم تغادره فكان يمضى فسحة الغداء فى مسجد المدرسة يصلى ويقرأ «ورد الشيخ الدرديرى» !

واعترضت حياته صورة جديدة لمستقبله . رأى ضابط نقطة القرية يقطع القرية كالريح فوق حصان اكحل ، ويمر على المصاطب فتهتز المصاطب بمن فوقها من فرط الاحترام . ويدخل « ديوان » العمدة فلا يتنفس أحد ، حتى العمدة !

وقرر عثمان خليل أن يدخل كلية البوليس ليلبس البدلة الميرى ويعلق النجوم . !

ومات أبوه وهو فى البكالوريا . وكان قد قيد نفسه فى شعبة العلوم .. لكن أباه جاءه فى المنام وأمره أن يحول اسمه الى شعبة الآداب وان يدخل كلية الحقوق .. ونفذ عثمان خليل أمر أبيه فى الصباح ليصبح بعد عمر طويل دكتورا فى القانون العام !

... وهكذا يعيش معظم الناس !

***

قال لى الدكتور عثمان خليل :

● قد تستغرب لاسمى . ان اسمى : « عثمان خليل عثمان خليل » . ولكن تستغرب اكثر لاسم ابنى الأكبر .. لقد أسميته « خليل » ، ليصبح حلقة من سلسلة العائلة !

صعيدى ٠٠ من الحواتكة مركز منفلوط محافظة أسيوط ٠ ولدت في ١٠ يونيه سنة ١١ ٠

● دخلت مدرسة الحواتكة الأولية في موسم الفيضان ٠ كانت مياه الفيضان تغرق المزارع حول القرية وتصبح الحواتكة جزيرة تحيط بها المياه من جميع الجهات . وكنا ننزل فى مياه الفيضان نصطاد السمك ونتعلم العوم . ضج أولياء أمور التلاميذ بالشكوى ، فنبه علينا ناظر المدرسة بأن نكف عن النزول فى مياه الفيضان ، وعلم على ساق كل تلميذ بالقلم الكوبيا ليضمن تنفيذ أوامره .. كشف ناظر المدرسة يوما على ساقى فلم يجد العلامة ، فشدنى على « الفلكة » . !

● تقدمت لمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية الابتدائية باسيوط . درست حروف اللغة الانجليزية وحفظت بعض الكلمات ، ودخلت امتحان السنة الثانية مباشرة ٠٠ دخلت الفصل فلم أجد لى مكانا الا بجوار التلميذ حسين خلاف ــ دكتور حسين خلاف ــ وبقيت بجواره طول المرحلة الابتدائية ، وفى نفس الفصل فى المدرسة الثانوية ، وتخرجنا من كلية الحقوق فى دفعة واحدة . ونسكن حاليا فى فيلتين متجاورتين من مبانى « هيئة التدريس » بالدقى ٠٠ وربطتنى بالدكتور خلاف صداقة عمر !

● لم تكن لى هواية غير اداء الواجب المدرسى باتقان ، والاسهاب فى موضوعات الانشاء ، والتفنن فى تحبير خرائط الجغرافيا وتلوينها ! . كنت أول الفصل وأول المدرسة على طول الخط . أخذت الابتدائية سنة ٢٥ .

***

● بعد ان كان ذهني يحفظ العلوم بسرعة ، اتجه الى البحث والمسائل التحليلية أو «الدياليكتيكية» ٠ وأنا الآن بحكم مهنتى أتفقه فى روح القانون وتستهوينى المقارنات والاستنتاجات والتحاليل المنطقية ، ولكنى لا أحفظ نصوص المواد اطلاقا !

وقد بدأ فى ذهنى هذا التحول فى المرحلة الثانوية . كنت فى مدرسة أسيوط الثانوية ٠٠ تمرين الهندسة الذى يعجز تلاميذ الفصول جميعها عن حله أحله فى ٥ دقائق .. ولم يكن يستعصى على تمرين واحد حتى تلك التمارين التى كانت الوزارة تشطبها من المقرر لقسوتها !

وأذكر مرة فى امتحان الجبر ٠٠ بينما كان تلاميذ المدرسة يصرخون فى اللجنة « الامتحان صعب .. صعب » كنت قد فرغت من حل السؤال الأول .. ولكنى من اللهفة عندما ساويت بين « البسط »

و « المقام » قلت أن النتيجة صفر ، بينما هي : واحد صحيح .. ووقف أحد المدرسين بجانبي يرقبني بدهشة وأنا أحل المعادلة بمثل هذه السرعة ثم أقع في هذا السهو البسيط .. ومد المدرس أصبعه ووضعه على الصفر وابتسم ، فاكتشفت الخطأ وصححته على الفور !

● كنت معجبا بالملازم عبد المنصف محمود – وكيل وزارة الداخلية السابق – فطلع في دماغي أن ادخل كلية البوليس . في أول السنة الدراسية بالبكالوريا قيدت أسمي في شعبة العلوم . وجاءني أبي في الحلم طلب مني أن أحول اسمي الى شعبة الآداب وان أدخل كلية الحقوق ، وسمعت كلام أبي !

أخذت البكالوريا سنة ٣٠ . وكان ترتيبي الـ ٢٥ في القطر .

***

● لم تكن عندي أية فكرة عن القاهرة فلم أزورها من قبل . زارنا أحد أقاربنا الذين يعيشون في العاصمة فجلست أنا وزملائي من شبان القرية الذين قدموا أوراقهم الى الجامعة نسأله عن أرقام الترام وخطوط سيرها ، وحاولنا من معلوماته أن نرسم لأنفسنا صورة للقاهرة ، قبل أن نراها ..

وعندما وصلنا القاهرة لأول مرة ظللنا يوما بطوله ندور في شوارعها وقد تدلت ألسنتنا من الدهشة .. ولما ركبنا أول ترام » أشار أحد الرفاق الى كمساري الترام وقال : « شوف يا خوي .. دول بيشغلوا العساكر تقطع تذاكر » !

● أول سنة لي في كلية الحقوق ، كنت ابذل جهدا ممتازا في « المذاكرة » .. كان كل أملي أن انجح في آخر السنة بينما تنبأ لي بعض زملاء الدراسة بالرسوب في تلك السنة ! فوجئت بعد الامتحان ببرقية من أحد الزملاء يقول فيها انني طلعت أول الدفعة !

● كنت طالبا عاديا طوال دراستي الجامعية ، أوقات الفراغ أمضيها في السينما او زيارة الأصدقاء . كان ترتيبي الثاني في السنة الثانية وكان الأول الدكتور حسين خلاف ! . احتفظ الدكتور حسين خلاف بترتيبه وتقهقر ترتيبي الى المركز الرابع في الليسانس ! . أخذت الليسانس سنة ٣٤ .

● عينت عضو بعثة داخلية أدرس للدكتوراه على حساب الدولة .. عينت معيدا في كلية الحقوق في السنة الثانية ، وفي نفس السنة حصلت على دبلوم القانون الخاص . كان ترتيبي الثاني ، أما الأول فكان الدكتور مصطفى كامل سفير الجمهورية العربية في الولايات المتحدة .

● سنة ٣٦ حصلت على دبلوم القانون العام وكان ترتيبى الأول . اوفدت فى بعثة صيفية الى باريس ، وحصلت من جامعة السوربون على شهادة فى الدراسات الصيفية وآداب اللغة الفرنسية .

● سنة ٣٧ رقيت الى وظيفة مدرس مساعد . حصلت على الدكتوراه من جامعة « فؤاد » سنة ٣٩ . وكان موضوع رسالتى « اللامركزية فى القانون الادارى » عينت مدرسا للقانون العام .

***

● انتدبت للتدريس بكلية الحقوق ببغداد . كنت قد اشتريت سيارة صغيرة فقررت أن أسافر بها الى العراق عبر فلسطين والأردن ، مع اننى لم أكن أجيد قيادة السيارات ! طبعت فى بغداد أول كتابين لى فى القانون الدستورى والقانون الادارى .

فى مايو ٤١ ، طلب الأمير عبد الاله من رشيد عالى الكيلانى رئيس الوزراء أن يستقيل . تمسك الكيلانى بنص الدستور وقال انه لا يخول للوصى على العرش حق اقالة الوزارة . أعلن الكيلانى الثورة على الوصى وعلى الانجليز ، ونظم صفوف الشعب وهاجم معسكرات الانجليز فى الحبانية .

فر عبد الاله الى « لواء السليمانية » وكان مواليا له ، بينما كانت بقية العراق مع الكيلانى .

كان الشعب العراقى متحمسا للثورة ، ولكنه كان أعزل من السلاح . فقد كانوا يحاربون الانجليز وقوات الوصى بالعصى والخناجر والبنادق القديمة ، « ويطخون » طائرات الانجليز بالمسدسات . وجاءت طائرات الانجليز فدكت بغداد ومراكز تجمع القوات الشعبية ، ونجا الكيلانى وفر الى المملكة السعودية . وفشلت ثورته لأنها كانت وليدة صدام طارىء وحماس اعزل من السلاح !

● كانت اذاعة القاهرة يسيطر عليها الانجليز ، وكان راديو القاهرة لا يكف عن مهاجمة ثورة الكيلانى . طلبت الحكومة من الرعايا المصريين أن يغادروا العراق حتى لا يتأزم الموقف . شحنت سيارتى فى القطار الى حلب عبر الأراضى التركية . اعجب احد ضباط الحدود الأتراك بمدرسة مصرية فأوقف القطار وطلب منها أن تنزل ليتزوجها ، فرفضت المدرسة ووقفنا معها نحميها ! . عدت من حلب الى القاهرة بالسيارة !

● رقيت أستاذا مساعدا سنة ٤٤ . ثم أستاذا للقانون العام سنة ٤٨ .

اخترت عميدا لكلية الحقوق بجامعة « ابراهيم » سنة ٥٠ ، واعيد تعييني سنة ٥٣ . اصبحت العمادة بالانتخاب فانتخبتني هيئة التدريس عميدا بالاجماع سنة ٥٥ ، ثم عادت العمادة بالتعيين فعينت عميدا لنفس الكلية سنة ٥٦ . استقلت من العمادة ، واشغل الآن هـذه المناصب : استاذ بحقوق القاهرة ، رئيس قسم القانون العام بالكلية ، رئيس معهد العلوم الادارية والمالية .

● فتحت مكتبا للمحاماة سنة ٤٨ . كنت أتصور انني سأصرف على المكتب لعدة شهور . جاءتني قضيتان بعد يومين من افتتاحي للمكتب ، كانت أتعابي فيهما ١٠٠٠ جنيه ، قبضت منهما ٧٥٠ جنيها فورا !

كان اكبر مبلغ حصلت عليه كأتعاب في قضية ٢٠٠٠ جنيه ، وفي احدى القضايا الخاصة بمخلفات الحرب العالمية في العلمين عرض على موكلي ٥ آلاف جنيه ولكني رفضتها .. فقد اشـــترط موكلي أن أتوسط لدى الوزير المختص لأحل الاشكال !

***

قلت للدكتور عثمان خليل :

● **التعليم الجامعي مليء بالمشاكل . ما هو تأصيلك لهذه المشاكل ؟.**

ــ اذا كانت المشاكل الجامعية شجرة ، فجذع الشجرة هو انعدام الصلة بين الأستاذ والطالب .. ابحث أية مشكلة جامعية وتتبع جذورها ستجدها ترتد حتما الى هذا الأصل !

● **طالت المقررات الدراسية في كليات الحقوق بشكل لا تتحمله أيام الدراسة ولا أذهان الطلبة .. ما الحل ؟ .**

ــ لكي نواجه اتساع دراسة القانون وتشعبها ، ولكي نخفف حـدة الضغط على كليات الحقوق ، لابد من اضافة سنة اعدادية لسـنوات الدراسة الأربع ، يدرس فيها الطلبة مبادىء المواد القانونية وبعض العلوم الممهدة لدراسة القانون ، كالمنطق والفلسفة وعلم النفس والاجتمـاع والخطابة .. فلم تعد السنوات الأربع تكفي لكي يستوعب الطالب مقررات القانون !

● **اصبح التقاضي طريقة طويلة وشاقة للحصول على الحق . واصبح رفع الدعوى ورقة اخيرة يلعبها صاحب الحق قبل ان يستسلم للمصير ، الا ترى معي ان التقاضي ــ بوجه عام ــ يمر بأزمة ثقة ؟ .**

ــ أرى أن السبب هو كثرة القضايا وقلة عدد القضاة .. ان وجه

الشبه كبير من مشكلة القضاء ومشكلة التعليم .. وعلى الدولة أن ترحم القضاة بأن تضاعف عددهم ، وعدد المحاكم أيضا ! ان ضغط العمل على القضاة يحطم صحتهم ويؤثر على العدالة ذاتها !

● هناك صلة وثيقة بين الدستور وحقوق الشعب .. هل يضمن الدستور حقوق الشعب .. أو ان الشعب هو الذى يضمن نصوص الدستور ؟ !

ـ انها حلقة مفرغة ، كحكاية البيضة والفرخة أيهما سبق الى الحياة ! . والحقيقة ان كلا من الدستور والشعب يضمن الآخر .. فلا قيمة لدستور لا يسنده شعب واع يتمسك به . ولا قيمة لشعب لا يتمتع بنظام دستورى يكفل الحقوق والحريات وينظم السلطات العامة .

لكن اذا كان لابد من المفاضلة .. فلا شك أن وعى الشعب أقوى أثرا من نصوص الدستور !

● مشكلة الجيل وكل الأجيال ، مشكلة الزمن وكل زمان .. هى مشكلة ضياع الحقوق فى المجال الشخصى والمجال الدولى . . أليس لهذه المشكلة أصل من فلسفة فى رأسك ؟ .

ـ لو لم تكن الحقوق محل مطمع وعدوان من قبل الغير ، لتغير وجه التاريخ ، وأصبحت الجماعة البشرية أسرة ملائكية .. فلا محاكم فى الدنيا ، ولا جنة ولا نار فى الآخرة !

ولكن الدنيا تقوم على الأنانية ، وامتداد نظر المرء الى ما ينعم به غيره . ولهذا كان طابع دنيانا : العدوان والدفاع .. ومن هنا كانت النزاعات والحروب وكل صور الفلسفة الاجتماعية .. ومن هنا أيضا كان الدليل العقلى الحى على وجود آخرة يأخذ فيها المظلوم حقه وينال الظالم جزاءه فالكمال من صفات الله .. وليس من الكمال أن يموت مظلوم وظالم دون ان ينصب بينهما ميزان العدل يوما ما . !

● ان نوع الدراسة ونوع الثقافة يؤثر على سلوك الفرد .. حدثنى عن تأثير الدراسة القانونية على سلوكك الشخصى ؟ .

ـ لقد تأثرت بدراسة القانون وتأثرت أيضا بمهنة المحاماة . فدراستى للقانون خلقت منى انسانا يتمسك بكل حقوقه بدرجة أكبر من الرجل العادى .. ولكنها جعلتنى أكثر قبولا للرأى المعارض ما دامت الحجة فى جانبه ، وأكثر استعدادا للعدول عن رأيى ما دام الخطأ فى جانبى !

وعلى الناحية الأخرى أثرت فى المحاماة فدفعتنى فى مواقف خاصة

الى التمسك برأيى فى صلابة وعناد أكثر من الرجل العادى ، او رجل القانون الذى لم يمارس المحاماة .. وبما لأن قيمة المحامى تتركز فى تمسكه بوجهة نظره حتى اللحظة الأخيرة ، مهما كانت ظروف القضية !

ان نصفى رجل قانون ، والنصف الآخر محام !

● **ما هى مميزات الصعايدة العقلية والسلوكية .. وهل صحيح ان فهمهم مغلق ؟ ! .**

ــ سوف اشهد شهادة محايدة .. ان الصعايدة أكثر ذكاء من أخوانهم الذين لا يسكنون الصعيد ! . ولكنهم أقل مستوى فى الثقافة والمعلومات العامة بسبب بعدهم عن أسباب المدنية والتثقيف ومظاهر الحياة الحديثة المزدهرة فى الشمال .. وهم أيضا أكثر خشونة ــ ويسمونها فى الصعيد « رجولة » ــ وذلك لقسوة الطبيعة فى الصعيد من حيث الحر والتضاريس وسبل الحياة . وأؤيد وجهة نظرى بمثل حى : اذكر أثناء دراستى الثانوية جاءنا سؤال فى امتحان « الطبيعة » يقول « تكلم عن الترموس » ، فأجاب معظم الطلبة عن « الترمس » وقال انه نوع من البقول ينضج فى الماء ويملح ! . ولا شك أن الذين أجابوا هذه الاجابة لم يروا « الترموس » اطلاقا ، وربما توقفت مدنيتهم عند حد « الزمزمية » !

● **ان النصر : للحق أم للقوة ؟ .**

ــ الغلبة العاجلة للقوة . والغلبة الآجلة للحق مهما طال الأجل !

***



محمد كريم

.. فى ((الخرابة)) !

((.. كان (البروجرام) يتضمن ٥ أفلام ، الفيلم الواحد يستغرق ٧ أو ٨ دقائق .. دخلنا صالة العرض فى الظلام وقد بدأ البروجرام . وشقت عيناى طريقها فى الظلام الى مساحة واسعة بيضاء يغطيها النور ثم اختفى النور وظهر منظر غابة رهيبة ورجل ضخم الجثة يختفي وراء شجرة صغيرة ، وفى يده ((بلطة)) ومرت عربة يجرها حصان .. اقتربت من الرجل .. وانفلتت منى صرخة ذعر عندما رأيت الرجل الضخم الجثة يهوى ببلطة على رأس سائق العربة .

... وكان هذا أول منظر سينمائى رأيته في حياتى .!))

كاد قلبى يقف من الم الذكرى فصرخت فى السائق وكانه ممثل جاهل ارتكب خطأ غبيا امام الكاميرا : « استنى يا اوسطى . ! »

ودفع الأسطى الفرامل بقدمه فهمدت السيارة مكانها .. وقفزت منها أجرى بعرض شارع المنيرة .. طلعت على الرصيف ، ثم غبت داخل خرابة واسعة تغطيها تلال صغيرة من الحصى والطوب ، وتلفها غلالة داكنة من الظلام ، وتفوح منها رائحة نفاذة من بقايا الناس !

ووقفت وحدى فى الظلام بين الأطلال وبى فزعة من الزمن .. وتذكرت .. من ٥٥ سنة كان على هذه الأرض الخربة قصر كبير .. قصر عبد الله « باشا » وهبى .. وفى حوش هذا القصر وعلى جدرانه وفوق سطوحه بدأت حياتى الفنية مع صديق صباى « يوسف وهبى » .. واضاءت أمامى شاشة الذكرى فوقفت بخشوع أستعرض أيامى :

● أيام اشترى يوسف آلة عرض صامتة .. وكنا نذهب الى شركة « جومون » للافلام نؤجر الفيلم الواحد ثلاثة أيام بعشرة قروش .. ثم نعود لنجد مساعدينا من صبيان الحى قد نصبوا الشاشة فى حوش البيت ، ورصوا الكراسى ونثروا الرمل فوق أرضية الحوش .

ويأتى الليل ، ونذور على صبيان الحى تجمعهم بالقوة ونجلسهم على الكراسى .

وعندما كان يوسف يتأخر دقيقة أو دقيقتين وهو يركب الفيلم .. كان الصبية المتفرجون يتبرمون من الظلام ويسارعون الى باب الحوش المغلق يدقونه بعنف وهم يصيحون : « عاوزين نروح » . !

واضطررنا فى النهاية أن نشترى صمتهم بالهدايا .. زجاجات كولونيا صغيرة وعلب شيكولاته وأقلام رصاص ، كنا نوزعها عليهم اذا صبروا لآخر الفيلم !

● ويوم تذكرته .. كانت الأفلام كلها صامتة .. وفكرنا أن نستعين بالمؤثرات الصوتية . كنت أقف وراء الشاشة اثناء العرض وفى اللحظة التى تكسر فيها البطلة طبقا فوق رأس البطل ، كنت أمسك طبقا من كومة الأطباق التى كان يوسف يسرقها من البيت واكسره . ويسمع الصبية المتفرجون صوت الطبق المكسور فيهللون للمعجزة !

● وليلة .. كان فى الفيلم المعروض منظر يقف فيه البطــل تحت شباك البطلة ويبعث لها قبلة فى الهواء .. ووقفت خلف الشاشة انتظر اللحظة .. وما كاد البطل يبعث لحبيبته القبلة حتى طرقعت بفمى قبلة دوى صوتها فى الحوش كله . وانتظرت ان أسمع تصفيقا حاداً ، ولكن أحدا لم يصفق لى .. وفجأة وجدت شيئا رفعنى من اذنى أكثر من متر فى الهواء ثم تركنى أهوى على الأرض .. وسمعت فى الظلام اصوات الصبية تهمس بذعر : « عبد الله باشا .. عبد الله باشا » .. وانطلقت أجــرى خارج الحوش .. وخارج البيت من المنيرة . ولم أكف عن الجرى الا وأنا اشد « سقاطة » بيتنا فى عابدين . !

● وصفحة اخرى تذكرتها وأنا واقف فى الأرض الخربة الواسعة . كنت العب مع يوسف وصبيان الحى لعبة « فانتوماس » .. كنت أقوم بدور البوليس السرى وكان يوسف يمثل دور اللص « فانتوماس » .. كان علي يوسف ان يخرج من البيت بأى وسيلة ، وكان على أن اضبطه وان اطلق عليه الرصاص من مسدس « الكبسون » . اختفى يوسف فى الحوش .. ثم طلع على السطح وحاول أن ينزل الى الشارع على المواسير ولكنى لمحته فعاد واختفى . ووقفت على باب البيت أترقبه ومسدسى فى يدى . وانا فى وقفتى خرجت سيدة بـ « ملاية لف » والقت على تحية المساء ، وكنت مشغولا بالمراقبة فلم أرد عليها .. ولم تكد السيدة تبعد بضعة أمتار خارج البيت حتى خلعت الملاءة وزأرت بصوت أجش : « أنا يوسف وهبى .. أنا فانتوماس العجيب » !

.... وتركزت فى أنفى رائحة بقايا الناس التى تعبق الخرابة .. فقطعت ذكرى ايامى .. وابتعدت عن أطلال قصر عبد الله « باشا » وهبى وأنا اجرجر قدمى بخطوات حزينة كأنى اسير فى جنازة عمرى !

***

ومن أحضان الماضى انتزع شيخ المخرجين محمد كريم نفســه . وراح يقفز فوق أيام عمره وهو يحكى حياته :

● اننى أجيد الالمانية والفرنسية والانجليزية .. وأجيد بالطبع اللغة العربية .. ولكنى أستريح عندما اكتب مذكراتى باللغة الانجليزية .. وقد كتبت حياتى فى مجلد بعنوان « معاركى » وكلها مذكرات ووثائق تحكى امل دنياى الذى لم يتحقق .. ان حياتى نكتة ســاخنة تثير الضــحك والدهشة والتأمل .. لقد أمضيت صباى وشبابى أحلم بأن اكون ممثلا يملأ الشاشة ويصفق له المتفرجون ، وانفقت نصف عمرى ومالى لأحقق أملي .. ولكن الظروف صنعت منى مخرجا لا يظهر منــه على الشاشة سوى اسمه !

● كنا نسكن بحارة الهدارة رقم ١٨ بعابدين .. كان أبى مهندس مبان . مات أبى وهو فى آخر أيام شبابه ورأيت الدنيا بعد وفاته بشهرين فى ٨ ديسمبر ١٨٩٩ .

عشت طفولة مدللة ، اشير بطرف عينى فيمتلىء فمى بكل ما أطلب . وأمد يدى فيسقطون فى جيبى « المبلغ » الذى أريده .. لقد كنت آخر العنقود !

واشتهرت بين صبيان عابدين وبين الأقارب وأصدقاء العائلة بلقب « سيد عابدين » !

● كان حدثا ما زال للحظة محفورا فى ذاكرتى . يوم دخلت السينما لأول مرة ! كان عمرى ٦ سنوات . وكان لى أخ أكبر اسمه « حسن » .. دعانى حسن لأشاهد « السينماتوغراف » لأول مرة .. قطع لنا تذكرتين فى سينما « سانتس » بحديقة الازبكية .. كان « البروجرام » يتضمن ٥ أفلام . الفيلم الواحد يستغرق ٧ أو ٨ دقائق .. دخلنا صالة العرض فى الظلام وقد بدأ البروجرام . وشقت عيناى طريقهما فى الظلام الى مساحة واسعة بيضاء يغطيها النور . ثم اختفى النور وظهرت غابة رهيبة ورجل ضخم الجثة يختفى وراء شجرة صغيرة وفى يده « بلطة » .. ومرت عربة يجرها حصان . اقتربت من الرجل . انفلتت منى صرخة ذعر عندما رأيت الرجل الضخم الجثة يهوى ببلطته على رأس سائق العربة .. وكان هذا أول منظر سينمائى رأيته فى حياتى ! .

وتلا ذلك فيلم كوميدى بطله ممثل فرنسى صغير اسمه « [illegible] » بدأ الفيلم بطباخ يسيل لعابه وهو يحمر فرخة شهية . [illegible] بوديزان يلعب دور متشرد بائس . شم رائحة الفرخة [illegible] مرة فتسلق البيت وأسقط نفسه داخل المدخنة وخطف الفرخة وتسلل عائدا الى سطح البيت .. واخذ يلتهم الفرخة بشراهة .. وكلما حاول الطباخ أن يدخل المدخنة ليلحق به كان « بو » يدلق عليه جردلا من الماء !

وكان « بوديزان » كان قدرى وأمل حياتى .. فقد صممت وأنا أغادر سينماتوجراف « سانتس » أن أصنع من نفسى « بو » آخر . !

***

● كان يوسف وهبى يسكن فى نفس الحارة . تعرفت عليه . وكان يوسف يهتم بالسينما مثلى ، وكنا ندخل سينما « الكوزموجراف الامريكانى » معظم أيام الأسبوع . على باب السينما كان هناك محل يبيع شيكولاته «بولان» . كنا نشترى « باكو » الشيكولاته ومعه « بون » . نقدم البون لشباك التذاكر ومعه قرش ونأخذ تذكرة دخول . وفى مواسم

كثيرة كان عبد الله « باشا » وهبي يعطى يوسف « لوج » فى الأوبرا ، وكنا نستغل الوقت فنمزق تذاكر اللوج ونذهب راســا الى الكوزموجراف الأمريكاني !

● انتقلت عائلة يوسف الى المنيرة .. كنت اذهب اليه عصر كل يوم لنمثل مع صبية الحى حلقات « فانتوماس » و « زيجومار » .. وأحيانا كان يوسف وهبى يمضى النهار فى بيتنا نمثل فى « تختابوش » البيت الأفلام التى كنا نشاهدها ٠٠ كنت أرسم المناظر والديكور وأسرق ملاءات السرير وافصل منها ستائر للمسرح .. كنا نمثل تمثيلا صامتا ونعبر بوجوهنا وحركات أيدينا !

● كبرت وكبرت عظامى .. وكبرت هوايتى للسينما داخل عظامى . اشتريت آلة تصوير تلتقط المناظر وحدها بعد أن اقف أمامها .. أنشأت فوق سطوح بيتنا ستوديو ومعملا للتصوير . كنت اقف أمام الكاميرا واصور نفسى فى مواقف مختلفة : موقف رعب . حزن . ضحك . بله . . جنون . ! كنت اصــور نفسى كل يوم ١٠٠ صورة وارسلها فى طرد الى شركات الأفلام فى ايطاليا وانجلترا وفرنسا وأمريكا .. لم ترد على معظم الشركات ، وبعضها رد على يشجعنى ، وبعضها رد الى طرد الصور مغلقا كما هو !

... وازددت ايمانا بفنى !

● دخلت مدرسة « الناصرية » الابتدائية . أمضيت فيها بضعة شهور ثم مرضت بالانيميا فانقطعت عن الدراسة . التحقت بمدرســة « محمد على » بالسيدة زينب ، ثم انتقلت الى مدرســة « العقادين » الابتدائية ٠ نجحت فى الابتدائية سنة ١٦ ٠ دخلت مدرسة « التوفيقية » الثانوية . رسبت فى شهادة « الكفاءة » بسبب الاضطرابات التى عمت مصر سنة ١٩ . عرض على أحد اقاربى وكان قومندان المدرسة الحربية أن ادخل الحربية ، ولكنى رفضت أن أتخلى عن فنى !

تملكتنى فكرة السفر الى الخارج لأدرس التمثيل .

***

● تعرفت على ممثل ايطالى فى الاوبرا اسمه « انريكو » . قال لى انريكو ان هناك شركة ايطالية للسينما تأسست فى الاسكندرية . أرسلت الى الشركة طردا به ٣٦ صورة لى فى مواقف سينمائية . طلبت منى الشركة أن أتصل بمندوبها « افوكات بالكوتسى » فى فندق الكونتننتال ٠

سألنى بالكوتسى بالايطالية : هل تعرف الايطالية ؟ لم أرد . فاستطرد يقول بالايطالية أيضا : هل تعرف عنوان بيتكم .. اذهب اليه !

● دخلت المدرسة العصرية للغات أمام فندق شبرد . وفى ثلاثة شهور تعلمت اللغة الايطالية . أرسلت الى الشركة طردا به ٨٦ صورة ورسالة بالايطالية أقول فيها اننى تعلمت لغتها . ردت الشركة تقول : احضر الى الاسكندرية .

سافرت الى الاسكندرية وفى ستوديو الشركة بالحضرة رأيت أول « بلاتوه » فى حياتى .. اشتركت بدورين صغيرين فى فيلم « الأزهار المميتة » وفيلم « شرف البدوى » . فى فيلم شرف البدوى كان دورى دور عسكرى بوليس . شكوت للمدير من تفاهة الدور فطلب المدير شريطين علقهما على ذراعى وقال : « مبسوط دلوقتى .. يا أمباشى » !

عثرت فى أرض البلاتوه على فص من الماس ، كان قد ضاع من بطلة أفلام الشركة « سنيوريتا ميراندا » ، وكانت تبحث عنه . أعطيتها الفص فأمسكتنى من كتفى وهى تصيح من الفرحة : « مسيو ممتو » .. ثم قبلتنى على خدى وصحبتنى الى بار الاستوديو لأشرب شيئا .. طلبت واحد كازوزة . !

... ثم أفلست الشركة واغلقت الاستوديو . !

● اشتركت فى كلية « فيكتوريا كوليدج اندستوديوز » بلندن .. تعلمت فيها التمثيل بالمراسلة . كانت الكلية تضمن أن تشغل خريجيها فى أفلامها . أرسلت الى شهادة نجاحى ومعها رسالة تشهد بـ « نبوغى فى التمثيل وصلاحيتى الفائقة للسينما . ولكن نظرا للظروف السياسية التى تجتاح بلدكم فاننا نأسف لعجزنا عن تشغيلك فى أفلامنا » !

● عدت من جديد أرسل طرود الصور الى شركات الأفلام العالمية . أرسلت الى شركة « بارامونت كوروبوريشن » فردت لى الطرد مغلقا وعليه كلمة « مرفوض » ! . أرسلت الى شركة « جولدوين بيكتشرز » وشركة « مترو كوربوريشن » فى هوليـــود . وشركات « تشينيس » و « شزار فيلم » و « اونيونى سينما توجرافيكا ايتاليانا » فى ايطاليا .. ردت شركة « أونيونى » تقول : « نرحب بحضورك الى روما على حسابك الخاص »

● كانت روما سنة ٢٠ مثل طنطا الآن ! . مثلت فى فيلم « انتقام كاميللو » لحساب شركة « أونيونى » ، وكانوا يعطوننى ٢٦ ليرة فى اليوم، اشتغلت أيضا مع المخرج « اجوستوجنينا » أشهر مخرجى السـينما الايطالية فى فيلم « سيرانودى برجراك » .. أمضيت فى روما ٣ سنوات

مع عائلة « ديللا سانت » فى حى « سان جيوفانى » • وقعت فى حب « سنيوريتا باولينا » بنت صاحبة البيت .. أصيبت السينما الايطالية بأزمة • قررت أن أسافر الى المانيا لأزور أصدقائى فى برلين • ودعت باولينا وقلت لها اننى ساعود حتما بعد شهرين • رجعت الى روما بعد خمس سنوات وفى ذراعى زوجتى الألمانية ، وبحثت عن باولينا لأعتذر لها عن طول الانتظار فلم اعثر على أثر للعائلة !

● عندما نزلت فى برلين لم أكن أعرف من الالمانية غير كلمتين : «نعم» يعنى « يا » و « لا » يعنى « ناين » .. صاحبت عشرات من بنات برلين واكتشفت أن صحبة الأجنبيات هى احسن الطرق لتعلم اللغة الأجنبية فى بلد غريب • فبعد ستة شهور فقط كنت أتكلم الألمانية كأبناء الراين !

كان المارك الالمانى يعانى من الانهيار . والتضخم يجتاح الاقتصاد الالمانى بوجه عام . وكان أخى يرسل لى كل شهر ١٦ جنيها ، ومن فوق النقد كانت الـ ١٦ جنيها تتحول فى برلين الى ما يعادل ٢٠٠ جنيه !• كنت أسكن فى شقة حجرتين فى حى « كورفير ستندام » أفخم أحياء برلين بايجار قيمته « ريال » فى الشهر . وكنت أصرف ببذخ حتى حسبنى بعض معارفى الالمان « مهراجا » من الهند !

● قابلت المرحوم سراج منير والدكتور احمد حسين سفير مصر السابق فى الولايات المتحدة وكثير من الطلبة المصريين . شجعونى جميعا على دراسة التمثيل والاشتغال بالسينما .. كممثل !

اشتغلت فى فيلم « حياة بتهوفن » . وأثناء توضيب المناظر كان ممثل دور بتهوفن يعزف لنا على البيانو رقصة « الفوكس تروت » ويرقص الجميع على أنغام بتهوفن !

● تعرفت على زوجتى « فراولين جردا » وتزوجتها . شاهدت معها فيلم « دكتور مابوزا » . صعقت لروعة اخراج الفيلم . سألت عن المخرج فقالوا لى أنه « فريتز لانج » أشهر مخرج فى المانيا . أشارت على زوجتى أن اتعلم الاخراج . قررت فى لحظة أن اغير مجرى حياتى وان اكون مخرجا !

زرت « فريتز لانج » وطلبت منه أن يسمح لى بزيارة ستوديوهات « أوفا » أكبر مؤسسة للسينما فى المانيا • تتلمذت على يد «لانج» وعشت معه سنتين وهو يخرج فيلم «متروبوليس» ، وهو فيلم ضخم يصور العالم سنة ٢٠٠٠ واستغرق تصويره ٤ سنوات •

درست فن السيناريو والاضاءة ، واشتريت عشرات الكتب باللغة

الألمانية عن فن الاخراج .. كانت زوجتي تقرأها لى وأنا أسمع .. وأتعلم !

● أرســل لى يوسف وهبى من مصر يقول أنه كون فرقة رمسيس للتمثيــل المسرحى ، وطلب منى أن أعود لنشترك معا فى انشاء ستوديو للسينما . وفى يوم قال لى قنصل مصر فى برلين أن المرحوم طلعت حرب فى برلين وأنه ينزل فى فندق « سلانادا » ويطلب أن أقابله . قابلت طلعت حرب فطلب منى أن أعود الى مصر لأشــتغل فى شركة مصر للتمثيــل والسينما .

***

● عدت الى مصر . اشتغلت مع يوسف وهبى فى فرقة رمسيس . كان المسرح يملأ اهتمام يوسف ، فصرف نظره عن انشــاء الاستوديو الذى استدعانى لأجله من برلين !

اشــتغلت فى شركة مصر للتمثيــل والسينما . كان مقر الشركة واستوديوهاتها ومعاملها حجرة واحدة فوق سطوح مطبعة مصر . أخرجت فيلما عن حديقة الحيوانات . وآخر عن عودة الملك فؤاد من أوروبا سنة ٢٧ . كانت فكرة انشــاء ستوديو للسينما تؤرقنى وتلح على . نشرت نداءات فى الصحف أقول فيها : « صناعة الســينما مشروع قومى يجب أن يفكر فيه أغنياؤنا المصريون » .. ولم يفكر أحد !.

● قرأت قصة « زينب » للدكتور حسين هيكل وأعجبت بها . كتبت سيناريو للقصة وأرسلته الى ستوديوهات « أوفا » فى برلين أعرض عليها أن تنتجه لحســابها ، فرفضت العرض .. ألححت على يوسف وهبى أن ينتج قصة « زينب » واستجاب يوسف لالحاحى ، وهكذا أخرجت أول فيــلم مصرى مثل فيه : بهيجة حافظ ، سراج منير ، زكى رستم ، دولت أبيض ، علوية جميل .. وكانوا كلهم وجوها جديدة !

● حدث انقلاب فى صناعة السينما سنة ٢٩ .. نطقت الأفــلام ! بنى يوسف وهبى ستوديو رمسيس للسينما فى امبــابة . وكتب قصة فيلم « أولاد الذوات » .. سافرنا الى باريس وهناك أخرجت ٦٠ فى المائة من الفيلم ناطقا ، وأكملنا بقية الفيلم فى ستوديو رمسيس بمناظر صامتة ومؤثرات صوتية . نجح الفيلم .

● طلب منى محمد عبد الوهاب أن أخرج له أول فيــلم غنــائى . أخرجت له «الوردة البيضاء» وصورنا معظم مناظره فى باريس . أخرجت بعد ذلك ١٣ فيلما آخرها فيلم « دليلة » ، كان المفروض أن أخرج لعبــد الوهاب فيلما كل سنة على الأقل ، ولكن عبد الوهاب بتردده ووسوسته جمع شبابى على شبابه ورماهما فى البحر !

وضعت ثروة العمر فى فيـلم « جنون الحب » الذى أنتجتـه لحسابى ، فلم يبق لى حساب بالمرة !٠

● كان أول أجر لى ٥٠٠ جنيه أخذتها من عبد الوهاب لما أخرجت له « الوردة البيضاء » ٠ وأجرى الحالى ٥ آلاف جنيه عن الفيلم ، هكذا مثـل ورقة البوستة ! هذا بالاضافة الى حرية مطلقة فى اختيار القصة والاستديو والممثلين ٠٠ والمنتج أحيانا !

***

قلت لشيخ المخرجين :

● حتى سنة واحدة أو سنتين ، كان الفيـلم المصرى بدايته تسوق تفكير المتفرج الى نهايته ٠٠ فالبداية مكررة ، والنهاية مكررة أيضا ، وهى فى القالب فرح تدق فيه ((المزاهر)) وقبلة طويلة بين شـفاه البطلين ! وهرب المتفرجون وما زالت صناعة السـينما تخوض معركة لكى تسترد متفرجيهـا ٠٠ وأنا أريد أن ترسم لى خطة مفصلة لاستعادة المتفرجين الى كراسى دور السينما ؟

اقول لك .. من ٢٠ سـنة كانت مصر تنتج افلاما جـديدة وقليلة فى عددها ٠٠ ولم تكن صناعة السينما تنتج سنويا أكثر من ١٥ فيلما ٠ ولذلك كان موضوع الفيلم دائما جـديدا وفيه دراسة ٠٠ وانتهت الحرب العـالمية الأخيرة وعرفت صناعة السينما طبقـة من المنتجين تستطيع أن تسميهم « منتجى بعد الحرب » .. ومنتج ما بعـد الحرب تاجر كأى تاجر فى سوق الخضار أو وكالة البلح ٠ أن [illegible] يكسب بنفس السرعة التى كسب بها ثروته أيام الحرب ٠٠ ولذلك يعمد الى الانتاج الرخيص ، يملؤه بالأجسام اللدنة الناشئة والسيقان العارية والنهود التى بلا «سوتيان»! وهو لا يتردد لحظة فى أن يقدم منظر ممثلة عارية تماما على الشـاشة ، ما دام ذلك سيزيد الضغط على الشباك لدرجة « الحجز مقدما » !

وأصبحت مصر تنتج أكثر من ١٢٠ فيلما فى السنة ٠ معظمها أفلام سوقية هزيلة ٠٠ وهروب المتفرجين من الفيلم المصرى ناقوس يقرع بالخطر ٠٠ وأنا مطمئن تماما لهذه الظاهرة ، لأنها ستدفع منتجى ما بعد الحرب الى الافلاس والهروب من صناعة السينما ويبقى الانتاج الجيد فى النهاية يملأ شاشات دور العرض بالدسم ٠

● ما رأيك فى مستوى ممثلاتنا الثقافى ؟٠٠

ــ زفت والحمد لله ٠! فمعظمهن يعتمد على الفتنة والجمال وأغلبهن عاطل من موهبة التمثيل ٠٠ وقلة منهن يتمتعن بمستوى ثقافى معقول ٠٠ قلة تستطيع أن تحصيها دون أن تستعمل مسبحة ! .

● ومستوى ممثلينا ؟٠٠

ـ أحسن بكثير .. فمعظمهم يقرأ ويتثقف .. وكثير منهم متعلم تعليما فنيا ..

● يقول النقاد الفنيون ان اخراج هذا الفيلم ((نظيف)) أو ((سيء)) فما هو الاخراج بالتحديد ، وكيف يقدر المتفرج العادى مجهود المخرج ؟

ـ من براعة الممثلين ، فتمثيل الممثلين فيه دائما روح المخرج ولمساته الفنية .. ومن زوايا التصوير وجمال الصوت .. ومن كل الأفكار الجديدة التى تستوعي انتباه المتفرج ..

● قـل لى : ماذا ينقص صناعة السينما من حيث الاستعداد الآلى الفنى ؟..

ـ ينقصنا الاستعداد الآلى الفنى كله !. فكل الماكينات التى تعمل الآن فى صناعة السينما ماكينات أثرية تحتـاج الى متحف .. ف « البلاتوه » فى أحسن ستوديو فى مصر شيء أشبه بالجراج . «التروكاج» أو الحيل الفنية ليس عندنا أى استعداد فنى لأدائها .. وفى مصر كلها ليس هناك معمـل تحميض يمـكن أن تسميه « لابوراتوار » بالمعنى المفهوم .. و ال « انشينيه » ، أو مرور الوقت على تغيير المنظر ، ليس لدينا ماكينات تصوره بدقة .. وبينما يتغير المنظر فى الفيلم الأمريكى وكأنه نسمة تمر على خد أسيل ، يتغير المنظر فى الفيلم المصرى فجأة وبشكل يجعل الدم يسيل !

وصناعة السينما تعانى من الاحتكار الأمريكى !. فشركات هوليود تحتكر مخترعاتها الحديثة ولا تبيعها ، وأحيانا ترفض مجرد أن تؤجرها ! وفى أحد الأفلام طلبنا من شركة فوكس أن تؤجر لنا عدسة «سينماسكوب» فأجرت لنا اقدم عدسة منذ اكتشاف الشركة للاختراع الجديد .. أجرتها لنا ب ١٧٥٠ جنيها لمدة ٣ أشهر . وباختصـار اذا كانت هوليود تملك ١٠٠٪ من الاسـتعداد الآلى الفنى فنحن نملك ٢٠٪ فقط .. مع شيء من المجاملة !

● هل صحيح ان المخرج اذا دخل البلاتوه ينكش شعره ويفقد أعصابه ويخرج عيون الممثلين ؟!

ـ أبدا . أنا شخصيا أعامل الممثلين بهدوء واحترام متبادل وأخرج أفلامى بنفس البراعة التى آكل بها طبقا من المكرونة الاسباجتى !

● هناك محاولات لاخراج افلام مصرية واقعية .. ما رأيك فى هـذه المحاولات ؟..

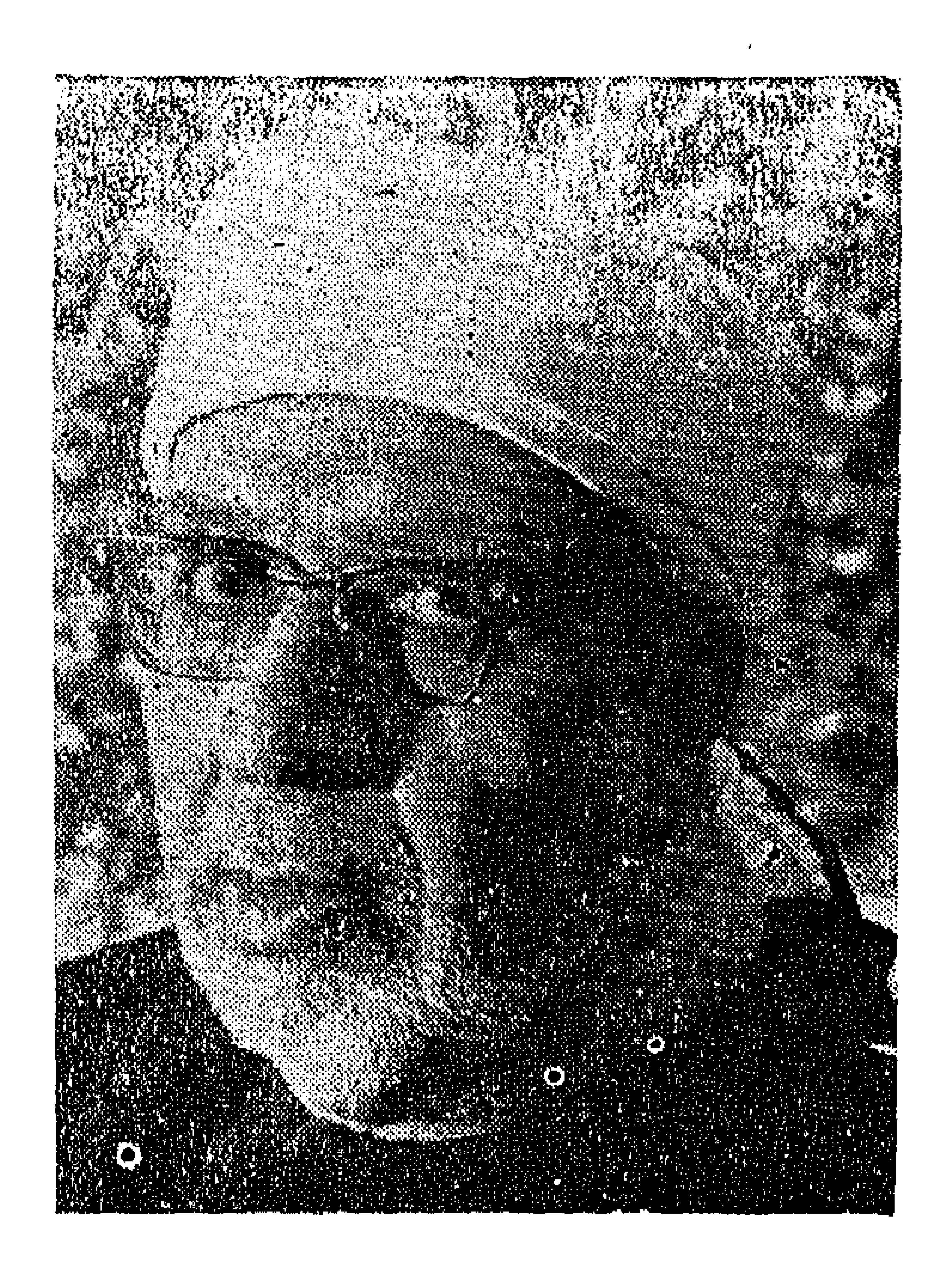
ـ فرق واسع بين واقعية وواقعية .. فرق بين واقعية ممثلة يموت زوجها فتصرخ « مت يا اخويا » فيرد الجمهور فى الصالة : يا دهوتى !. وممثلة مثل راقية ابراهيم تقول لأمها وهى تحتضر فى فيلم « زينب » :

« بكره والا بعده حموت يا أم .. وصيتكوا اخواتى .. لما تجوزوا حد منهم ماتجوزوهش غصب عنه .. أحسن ده حرام ! » وترن الابرة في صـــالة العرض وراقية تقول هذا الكلام .. تسمع رنتها .!

● أنت شيخ المخرجين بلا شك .. شيخهم فى الفن والسن أيضا .. فلماذا لا تصنع فيلما يتوج فنك وسنك ويخلد من بعدك ؟..

.. انه أملى فى آخر حياتى ، وبعده سوف أعتزل الفن .. وأعتزل الحياة ! — انه أملى فى آخر حياتى .. فيلم اسمه « الملعونة » . يحكى قصة اسرائيل من المهد ويشيعها حتى باب اللحد .. كتبت قصته وسهرت الليل أنا وصديقى عبد الوارث عسر نكتب السيناريو طوال ٨ أشهر بلا انقطاع .. ومدنا الدكتور عبد القـــادر حاتم بأكداس من الوثائق والمستندات استعنا بها ونحن نكتب سيناريو الفيلم ، ولكن الفيلم ضخم . وانتاجه كما رسمته فى خيالى يحتاج لمبلغ يعجز عن تدبيره منتجو السينما المصرية مجتمعين .. انه فى حاجة الى أن تنتجه الدولة وتغطى مصاريفه من خزانتها لترد صفعة « سيسيل دى ميل » التى صفعها لنا بفيلمه «الوصايا العشر»





الشيخ حسن مأمون

من يحرس العقيـدة ؟

« ان الاسلام ، رغم موجة الالحاد العالمية ، يكسب أنصارا •• ومئات الخطابات تصلنى من ألمانيا الغربيـة وبعض دول أوروبا ، يسألنى أصحابها كيف يشهرون اسلامهم •

وسر انصراف الناس عن الدين يرجع الى جهلهم به •• ولكي ننير قلوبهم ، علينا أن نعلمهم مزايا الجانب العلمي فى الدين •• فلا نقل لهم مثلا « صلوا •• فقد أمرنا الله بالصلاة » وانما نقـول : « ان الصلاة عبادة فاضلة •• ومن مزاياها ان المصلى يتوضأ فيزيل ما به من أدران ولا تنبعث الروائح الكريهة من فمه أو من بين أصابع قدميه » !

منذ عشر سنوات ٠٠ كان يجلس فى ترام «١٩» ، وعلى رأسه عمامته وقد أزاحها الى الوراء لتداعب نسمة الهواء جلد رأسه ٠ وفوق جسده « جبة » و « قفطان » خفيف ٠٠ انه زى الصيف ٠ والدنيا صيف ٠٠ وبينما الترام يمرق من « ميدان العتبة » ليتوغل فى شارع الأزهر وعجلاته تصرخ على المنحنى ، لمح أحد أصدقائه يسير على الرصيف ٠ وبسرعة قفز من الترام ليلحق بالصديق . ووصلت قدماه للأرض بينما كانت جبته وراءه ترفرف كعلم فى مهب الريح ، وتصدى مسمار لعين فى سلم الترام للعلم المرفرف واشتبك به ، وانكفأ الشيخ حسن مصطفى محمد مأمون ــ شيخ الأزهر ــ على وجهه وجره الترام أمتارا ثم وقف !

وتكرر الحادث بعد سنوات بصورة قاتلة ، يوم لقى المرحوم الشيخ « محمود أبو العيون » مصرعه تحت عجلات المترو فى ميدان «باب الحديد»٠ وكان السبب أيضا « الجبة » و « القفطان » الخفيف !

بعد هذا ، أعلن الأزهريون حملة عداء سافرة على زيهم ونادوا بحق ارتداء الزى الأفرنجى ٠ وأصبحت المسألة « موضة » انتشرت بين طلبة الأزهر أنفسهم ٠٠ والشيخ حسن مأمون لا يلوم أحدا يعتنق هذه «الموضة» ٠٠ ويقول :

« ان الزى الأفرنجى أكثر ملاءمة لروح السرعة التى تسود العصر ٠٠ وهو فوق ذلك لا يهفهف ولا يرفرف ولا يشتبك بالمسامير » ٠!

***

قال لى الشيخ حسن مأمون :

● كان جدى يملك بيتا فى « عطفة قنبور » بقسم الخليفة . ولدت فى هذا البيت فى ١٣ يونيه ١٨٩٤ ٠ أبى كان يحمل شهادة « العالمية » وجدى أيضا كان من أبناء الأزهر ٠٠

● عندما وعيت الدنيا من حولى وجدت «الشيخ سيد» العريف يصرخ فى وجهى ويأمرنى بأن أكنس سلم « الكتاب » ٠! فاذا ما ملأ التراب حلقى وجف ريقى ، أسرعت الى « زلعة » الماء أغيب فيها لطعة الغاب وأظل أمتص حتى ارتوى ٠٠ وكانت هذه هى طريقة الشرب الوحيدة التى فرضها علينا « الشيخ سيد » ٠!

وكان الشيخ سيد فظا غليظ القلب .. الوقت الذى يمضيه بيننا فى الكتاب كنا نحبس أنفاسنا من الرهبة ولا نسمح لها أن تتردد

فى صدورنا الا بحساب ٠٠ ولحظة أن يخرج لشأن من شئونه ، كنا ننفجر بلا معيار .. الألواح الصفيح نقذفها فى الأرض . والاقلام البسط نرشقها خلف آذاننـا ، ثم ننطلق نتـلاعب ونتضـارب ويغرق الكتاب فى لجة من الهرج !

وكان يحفظنا القرآن بطريقة رهيبـة .. الكل فى نظره غير حافظ « اللوح » حتى يثبت أنه يحفظه فعلا ! ولذلك كان يسمع لنا « اللوح » بهـذه الطريقة : يجلس الصبى منا داخـل صندوق من الخشب نسميه « القماطة » ٠ ويرفع قدميه الى أعلى داخـل كوة « تقمط » عليهما وأمام قدميه يجلس الشيخ سيد وقد شمر عن ذراعيه وفى يده « زخمة » من الجلد القاسى .. ويبدأ الصبى يسمع اللوح ، فيتوه من ذاكرته تسلسل الآيات ، وينهال الشيخ سيد على قدميـه بالزخمة وكأنه فلاح أجير يعزق فى أرض الغير !

وكنت اذا شكوت الى أبى قسوة الشيخ سيد يصحبنى اليه ، ويقول له على مسمع منى : « أدب الولد .. اضربه .. اكسر بس وانا اجبر » !

● حفظت القرآن فى كتاب الشيخ سيد ، أو هكذا خيـل الى يوم انتهيت من تسميع سورة « البقرة » فمال على الشيخ وقرصنى من أذنى ثم قال بصوت ملؤه الفخر : « تقول لأبوك النهاردة انك ختمت المصحف »!

والحقيقة انه لم يكن فى ذاكرتى يومها أكثر من اللوح الأخير الذى أسمعته عليه ! فقد كنت أنسى كل ما أحفظه أولا بأول فى نفس اللحظة التى اغادر فيها « قماطة » الشيخ الرهيب ٠!

***

● اكتشف أبى اننى لم أحفظ شيئا من القرآن ، فقرر أن يدخلنى التعليم الابتدائى ، واختار لى مدرسة « بنباقادن » ٠ وقفزت من الفرحة ٠٠ سأصبح أفنديا ٠!

أعددت البدلة ، ووسدتها مكانا نظيفا فى دولاب أبى ، وذهبت لأفصل طربوشا ٠٠ وجاء يوم الكشف الطبى ٠٠ ودس الطبيب أصابعه ليقلب جفون عينى فقلب مستقبلى كله ، فقد دمعت عيناى ، وظلتا تدمعان من الرمد طوال ٤ أشهر ٠٠ وضاع على العام الدراسى فتشاءمت أمى وقالت : حسن يطلع شيخ ٠٠ أحسن !

● دخلت مدرسة « عثمان باشـا ماهر » بالقلعة سنة ١٩٠٤ ٠٠ كانت المدرسة تحفظ طلبتها القرآن وتعلمهم الحساب ومبادىء الجغرافيا ، وتعدهم لدخول الأزهر أو مدرسة دار العلوم مباشرة ٠٠ وكان فى المدرسة قسمان : قسم ابتـدائى ٠٠ ويدخله حفظة القرآن ٠ وقسم حفاظ ٠٠ ويدخله الذين لا يجيدون حفظ القرآن ٠٠ أخذنى أبى من يدى الى الشيخ

أحمد الحملاوى ناظر المدرسة ٠٠ قال له أبى اننى حفظت القرآن وجودته وطلب أن أدخل القسم الابتدائى ٠٠ سألنى الشيخ الحملاوى : « سمع من أول سورة العنكبوت » ٠٠ فقرأت آية أو آيتين ثم سكت ٠٠ قال : « اقرأ سورة النمل » ٠٠ فقرأت آية واحدة ثم توقفت ٠٠ وهز الشيخ الحملاوى رأسه ، ثم عاد يسألنى « اذن اقرأ من أول سورة الدهر » ٠٠ ولم أقرأ شيئا . !

وشدنى الشيخ الحملاوى وأدخلنى قسم الحفاظ ٠٠ لأحفظ القرآن من الأول ا٠

● كان الشيخ أحمد الحملاوى صورة عكسية من الشيخ سيد العريف ٠٠ لم يكن يضربنا ولا يدخل أرجلنا فى « القماطة » ٠٠ وكانت طريقته فى عقابنا أن يلوح فى وجوهنا بكم قفطانه فنخشع له ونهابه ٠

● تخرجت فى مدرسة « عثمان باشا ماهر » سنة ١٩٠٧ ٠ عامها ، ثار الأزهريون وأضربوا عن الدراسة بسبب مطالب لهم ٠٠ ألحقنى أبى بمدرسة القضاء الشرعى ولم يلحقنى بالأزهر !

***

● أمضيت فى مدرسة القضاء الشرعى أمتع سنوات الدراسة ٠٠ والفضل كله للمرحوم « عاطف بك بركات » ناظر المدرسة ٠٠ كان « عاطف بك » مثالا منعدم النظير لرجل التربية ٠٠ كان خريج جامعة لندن ، ولذلك كانت أساليبه التربوية تسبق الأوان بنصف قرن من الزمان ٠٠ على الأقل !

وأذكر عن هذا الرجل أساطير لا تنتهى :

ـ كان يقرأ بنفسه نتائج الامتحان ٠٠ الطالب المتقدم يمتدحه بقدر لا يفسده ، والطالب المتأخر يؤنبه بقدر لا يميت فى نفسه الأمل !

ـ فى الفسح ، كان يجمعنا فى الحوش فنلتف حوله ونناقشه فى المسائل العامة وقضايا السياسة ٠٠

ـ كان يشجعنا على أن نتمسك بآرائنا ، ولو خالفت رأيه الخاص !

ـ كان يعشق النظام ، ويمقت الفوضى وعدم اطاعة الأوامر ٠٠ أذكر مرة جاءنا أستاذ « أصول القوانين » وقال اننا متأخرون فى برنامج العلم، وطلب منا أن نحضر حصصا اضافية لتعويض ما فات ، قلنا للأستاذ : « نحن نوافق ٠٠ بشرط ألا تكون الحصص الاضافية يوم الأحد » ٠٠ فقد كان « عاطف بك » يدرس لنا يوم الأحد « علم الأخلاق » ٠ ولم يكن

للعلم كتاب ، أما مراجعه فكانت كلها باللغة الانجليزية . ولذلك كنا نحرص على المحاضرة ونحضرها جسدا وذهنا ، حتى لتستهلك فى نهايتها حيويه اذهاننا جميعا فلا نطيق بعدها درسا آخر !

ولكن أستاذ « أصول القوانين » أصدر قرارا بأن تكون الحصص الاضافية يوم الأحد .. وقررنا أن نضرب احتجاجا على تعسف الأستاذ .. وجاءت الحصة الاضافية فلم يحضرها غير أربعة من الطلبة .. وفى الحصة الأخيرة ، دخل « عاطف بك » الفصل وقال : « اللى ماحضرش الحصة الاضافية يستنى فى الحوش آخر النهار » . ووقفنا فى حوش المدرسة بعد الحصة الأخيرة ننتظر العقاب ، ووقف عاطف بك بيننا ، ثم قال فى هدوء : « هو فيه مدرسة فى الدنيا يبقى فيها عاطف بركات وتعمل اضراب ؟! » .. ثم خصم من كل منا ١٠ درجات فى « الأخلاق » ومثلها فى « المواظبة » ، بالاضافة الى ساعة من الألعاب الرياضية العنيفة لمدة ١٠ أيام !

ومرت الأيام وسمعنا من أحد المدرسين أن ناظر المدرسة أنب أستاذ « أصول القوانين » لأنه لم يستجب لوجهة نظرنا المعقولة !. لقد كان الرجل عادلا فى حزمه !

● اتخذت من عاطف بركات قدوة فى الحياة .. كان فى نظرى الرجل الأمثل يحفظ النظم ويرعى الواجب .. حتى الموت .. وفى أواخر أيامه ، وكان وكيلا لوزارة المعارف ، أصيب بالسرطان فى رأسه .. فكان يذهب الى مكتبه كل يوم ورأسه ملفوف بالأربطة ، ومطارق الألم المريع تفرى جسده وتقفز به الى أعتاب النهاية !

***

● أخذت شهادة « العالمية » من مدرسة القضاء سنة ١٨ .. عانيت من البطالة عامين بسبب احداث الثورة الشعبيه . قيدت اسمى فى « نقابة المحامين » واشتركت مع زميل لى وفتحنا مكتبا للمحاماة .. وكان النزعات الشرعية قد غاضت من العالم ، فلم يزر مكتبنا أحد !

سافرت الى المنصورة لأساعد أحد الزملاء فى قضاياه . تفتح ذهنى القضائى ورسخت قدمى فى الميدان .. وفى احدى القضايا كنت أترافع أمام الشيخ على عبد الرازق وزير الأوقاف السابق ، وكانت مرافعتى هادئة رصينة . جاء بعدى محامى الخصم فترافع وهو يثور ويدب الأرض بقدميه ويخبط المنصة بيديه .. وقاطعه على عبد الرازق قائلا : « جرى ايه يا أستاذ .. أنت عمال تزعق وتخبط وزميلك ترافع من غير ما يزعق ولا يخبط .. اترافع زى زميلك يا أخى ! » .

قررت أن أفتح مكتبا فى المنصورة ، وسافرت الى القـــاهرة لأستعد لحياتى الجديدة فوجدت فى انتظارى برقية من « وزارة الحقانية » تقول : اذهب لتتسلم عملك فى محكمة المنصورة الشرعية ٠

● تسلمت عملى كموظف قضائى فى محكمة المنصورة ســنة ١٩ ، عينت قاضيا فى محكمة البرلس بعد سنتين ٠ أمضيت ٨ سنوات أتنقــل بين مدن وجه بحرى ٠ كنت عضوا فى هيئة محكمة طنطا الكلية عنــدما اختلفت مع رئيس المحكمة ٠٠ كان هو شيخا كبيرا فى السن جبانا وسلبيا فى قضائه ، وكنت شابا فائر الحماس أميل الى الحسم فى الأحكام ٠٠ وفى احدى القضايا كان المدعى هو وزارة الأوقاف ، وكانت الوزارة تطلب أن تستبدل بقطعة من أراضيها الموقوفة قطعة أخرى مملوكة للغير ٠ وكان اجماع الفقه على غير ذلك ، الا رأيا مرجوحا يجيز الاستبدال ٠٠ فقلت لرئيس المحكمة : نرفض الاستبدال ؟٠٠ وقال : وده معقول ٠٠ ده الوزارة فى مصر تخرب بيتنا ! قلت : اذن نجيزه ونستند الى رأى ضعيف فى الفقه ٠٠ أجاب : برضه لأ !٠ قلت : أمال ايه بأه ؟٠ قال نؤجــل القضية ٠٠ ونظل نؤجلها .. حتى تزهق وزارة الأوقاف !!

وقمت من الجلسة لأسافر من فورى الى القاهرة ، وقابلت بهى الدين بركات وزير الحقانية ، وابتدرنى الوزير : خير ٠٠ قلت : « أنا جى أشكى لك روحى ٠٠ أنا مش نافع أبدا فى محكمة طنطا الكلية طول ما « فلان » رئيس محكمة هناك » ٠

ونقلنى الوزير الى محكمة طنطا الجزئية ٠٠ وغضب على رئيس المحكمة فأرسل ضدى شكوى كيدية نقلت على أثرها الى محكمة أشمون !

وتدور الأيام ٠٠ وأعود الى محكمة طنطا الجزئية مرة أخرى ، لأجـد أول قضية تنتظرنى فى ال « رول » قضية نفقة مرفوعة على رئيس المحكمة المذكور !

***

● نقلت الى القـــــاهرة سنة ٢٩ ٠ تنقلت بين محاكمها الشرعية ، ثم انتدبت للتفتيش على المحاكم ومسحت مدن الوجه القبلى والوجـــه البحرى وأنا أفتش على محاكم القطر الشرعية ٠٠

تألفت لجنة سنة ٣٧ لوضع قوانين موضـوعية للمحاكم الشرعية ٠ كانت اللجنة برئاسة الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر ، وكنت سكرتيرها وعضوا فيها ٠

بقيت فى اللجنة حتى انتهيت من وضع « قانون المواريث » الحـالى

و « قانون الوصية » ، وبدأت فى تشريع المواد الأولى من « قانون الوقف » ٠٠ سنة ٤٠ ، وقبل أن يتم وضع قانون الوقف ، عينت قاضى قضـــاة السودان ٠٠

● أمضيت في الخرطوم ٦ سنوات كانت من أحلى ذكريات أيامى ٠٠ علاقتى بالسودانيين كانت عـــلاقة مودة ومحبة ودين ٠٠ كنت أختلط بالعائلات السودانية أحضر أفراحها ، وأواسيها فى مآتمها ٠٠ ويوم العيد، كان بيتى يمتلىء بالزوار من أهل السودان وكأنه سوق مزدحمة !

والشعب السودانى أكثر الشعوب التصاقا بأهداب دينه ٠٠ لقد كنا نقيم فى « النادى المصرى » بالخرطوم ندوات ومحاضرات ، بعضها دينيـــة وبعضها أدبية أو اجتماعية ٠٠ وكنت ألحظ الفرق الهائل فىعدد الحاضرين أيام المحاضرات الدينية ٠٠ لقد كانوا يتضاعفون ويتزاحمون ، وسيارات خاصة كثيرة كانت تقف بجوار النادى وبداخلها سيدات من كرائم العائلات يرهفن السمع ، فى تحشم ، الى الميكرفون !

ان المدنية فى السودان لم تبـــاعد كثيرا بين الشعب وبين دينه ٠٠ وشعب السودان لم يصل فى استيعابه لأسباب المدنية وتقليده للأجانب مثلما وصـــلنا نحن فى مصر ٠ وهو شعب يميـــل الى الزهو والاعتداد بالنفس ، واعتداد الفرد بنفسه وبوطنه ــ اذا استخدم استخداما طيبا ــ له أكبر الأثر فى رقى الوطن ٠٠

● طلبة المعهد الدينى فى « أم درمان » كانوا لايجدون مأوى . كانوا يأتون من صحارى دارفور وكردفان من أقصى ادغال الجنوب سيرا على الأقدام ، وكان بعض الأهـــالى يؤوونهم فى بيوتهم من باب الاحســـان . وشننت حملة واسعة لجمع تبرعات تخصص لبناء «بيت المعهد » .. ولم يخذلنى أثرياء المديرية ، وتمكنت أن أجمع فى أسابيع قليلة ١٤ ألف جنيـه .. واحســت حكومة الســـودان بجـدية المشروع فتبرعت بـ ٦ آلاف جنيه .

وبعد شهور كان طلبة معهد أم درمان يسكنون بكرامتهم فى بيتهم الجديد !

● عدت الى القاهرة سنة ٤٧ رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية الشرعية نقلت عضوا فى المحكمة الشرعيـــة العليا ، رقيت نائبا للمحكمة ، ثم رئيسا لها .

فى مارس ٥٥ خلفت الشيخ حسنين مخلوف فى منصب « مفتى الديار المصرية » ، طلعت على المعاش ، ثم وقع على الاختيار أخيرا لأخدم فى الأزهر شيخا له .

***

قلت للشيخ حسن مأمون :

.... ● كيف تفتى الناس فى شئون الدين .. وهل تجد لنفسك مجالا للاجتهاد ومجالا للتجديد بما يلائم روح العصر ؟

ــ ان المسائل التى هى محل اتفاق بين الأئمة ، لا مجال للاجتهاد فيها .. أما المسائل الخلافية التى يختلف فيها المذهب عن المذهب ، والدليل عن الدليل ، فرغم ان المفتى دائما على « المذهب الحنفى » الا ان ذلك لا يمنعنى من أن أفتى بمذهب آخر اذا رأيت فى ادلته قوة ، وفى الأخذ به رفقا بالناس .

مثلا .. تحريم الزواج بسبب الرضاعة ، مذهب الأحناف يثبت التحريم ، ولو رضع الطفل قطرة لبن واحدة ، بينما يجعل الشافعية التحريم منوطا بخمس رضعات مشبعات .

ولما كانت الرضاعة وتبادل الأثداء عادة شائعة بين الناس .. الجارة تجامل الجارة فتلقم ابنها ثديها الى أن تفرغ أمه مما يشغلها .. فاننا نفتى الناس بمذهب الشافعية ونكتب لهم فى آخر الفتوى : « وهذا ما نختاره رفقا بالناس .. لعموم البلوى » !

ومجال الاجتهاد فى الافتاء ينحصر فى ترجيح رأى على رأى .. اما مجال التجديد والتطوير فيكون فى المسائل التى لم يرد للفقهاء حكم فيها .. ولمعرفة حكم الله فيها أرجع الى أقرب النظائر لها ، أو استلهم ما يوحى به روح الشرع ..

● بقدر ما تفكر ، وبقدر ما سجلت مؤلفات السيرة وكتب التاريخ . كيف عرف الانسان الخطيئة ، وما هى الخطايا العشر التى مارسها لأول مرة ؟ .

ــ لقد ولدت الخطيئة مع البشر .. واول الخطايا ارتكبها أبونا آدم يوم اكل من الشجرة المحرمة فطرد من الجنة ، ومن بعده قتل ابنه قابيل أخاه هابيل .

ثم توالت الخطايا فى عصور ما قبل التاريخ . ولم يسجلها التاريخ !

● ديانة الاسلام قامت على الحب .. ولكن مفهوم الحب بين الرجل والمرأة لم يحدده احد الا بالاجتهاد .. وقبل الزواج ، اعتقد ان قدرا من الحب ضرورى للشباب من الجنسين .. فالى اى مدى يسمح الاسلام بالحب بين الشباب فيما قبل الزواج ؟

ـ أن ديننا دين سمح لا تزمت فى أحكامه .. وهو يسمح للخطيب ان يرى خطيبتـه مرة أو أكثر ان دعت الحـال ، بشرط ان يكون ذلك بحضور أحد المحارم ..

وروى أن اعرابيا جاء رسـول الله وقال له انه سوف يتزوج امرأة عينهـا له ، فقال له الرسول : « هل نظرت اليها ؟ » قال : « لا » . قال الرسـول « انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينـكما » .. أى يأكلان معا ..

وما دام الرجل قـد راى خطيبته فان الرؤيا تسمح له بأن يكون لنفسه رأيا خاصا فى القبول أو الرفض .. وما دام قد قبل واستحسن خطيبته ، فان ذلك يعبر عن ميل ورغبة فى المعاشرة .. وهذا القـدر ـ فى اعتقادى ـ يكفى لاتمام زواج سعيد .

● فى علوم التوحيد وصل العقل البشرى الى نقطة نهاية ، هى أن خالق الكون واحد .. أصحاب الديانات قالوا : انه الله .. والملحدون الذين يؤلهون قوى الطبيعة وقدرة الانسان قالوا : انها الطبيعة . من هذه النقطة ، أريد ان أبدأ معك نقاشا يصل الى اقناع : ما هى أحدث الأدلة الواقعية على أن الخالق الأوحد .. هو الله ؟

ـ ان الصفات المشتركة بين الانسان .. انه لم يكن موجوداً ثم وجد وانه محتاج لغيره فى كل أطواره .. محتاج لأبيه وأمه ومحتاج للصديق والمجتمع .. ثم نهايته المحتومة بالوفاة .. هذا كله نظام يسود الكون . هو لا يمكن أن يكون وليد المصادفة ، لأن الصدفة لحظة زائلة وليست نظاما ثابتا لم يتغير من الأزل .

فلا يمكن اذن أن يكون خالق الكون مخلوقا .. ولا يمكن أن يكون الانسان وليد المصادفة . ولا يمكن أن يكون موجودا دون سبب يوجده .

ولابد من خالق خلق الكون .. والخالق ليس من نوع المخلوق .. ليس كمثله شىء . هو الله !

● ظروف الحياة فى العصر الذى نعيشه لاتسمح للشباب بالزواج الا فى سن متاخرة بعد ان يصلوا أنفسهم بأسباب لقمة العيش .. وحتى يصلوا هـذه السن ، تبقى مشكلة الجنس تؤرقهم وتلسـع اجسـادهم الشابة ! بعضهم يهرب من المشـكلة فينحرف ويمتلىء بالعقـد النفسية ومركبات النقص .. وبعضهم يتحدى المجتمع ويواجهه بالتمرغ فى احضان الجنس الرخيص !

لا الواقع يحل المشـكلة .. ولا المجتمع يحل المشكلة .. ولا التقاليد تحل المشكلة .. قل لى : كيف يحلها الدين ؟

ــ ليس هناك حل يحل المشـكلة تماما .. وانما نستطيع بتجسيم الجريمة في أعين الشـباب وبملء فراغهم بمـا ينفعهم ، أن نكسر من حدتها .. فقط !

● **سياسة الغرب فى الشرق الأوسـط وبالنسبة لدول العـرب بشكل أخص ، يمكن تلخيصها فى انها : محاولة دائبة لاضـعاف الشوكة وهد الـكيان ! انهم يخشون المارد العربى الاسلامى الذى ادخلوه القمقم منذ شاخت دولة الترك فى القرن الماضى واقتسموا أسـلاب « الرجل المريض » . الا تلمح العنصر الدينى فى سياسة الغرب نحو دول العرب . الا ترى فيها امتدادا لحرب الصليب ؟ !**

ــ لقد كان ظاهر الحروب الصليبية هو الاستيلاء على «بيت المقدس» اما باطنها فكان كسر شوكة الاسلام . ودعوة الاسـلام دعوة تحررية ، والتحرر لا يتفق مع الاستعمار .. فلا يتفق مطلقا فى العقيدة ان يكون الانسان مسلما ومستعمرا !

ان بيننا وبين الغرب حربا وقت الحرب .. وحربا وقت السلم .. حتى يرفعوا أيديهم عنا لنعيش على الأرض جميعا .. فى سلام !

● **الالحاد يجتـاح العالم .. وسوق الأديان تجنح الى الركود .. هل أجد عنـدك تخطيطا عقائديا لاذكاء روح التدين فى النفوس الصدئة ؟**

ــ ان الاسلام رغم موجة الالحاد العالمية يكسب أنصارا .. ومئات الخطابات تصلنى من ألمانيا الغربية وبعض دول أوروبا أصحابها يسألوننى كيف يشهرون اسلامهم رسميا لتعترف بهم دولهم .

وسر انصراف الناس عن الدين يرجع الى جهلهم به .. ولكى ننير قلوبهم علينا ان نعلمهم مزايا الجانب العملى فى الدين .. فلا نقل لهم مثلا : « صلوا فقد أمرنا الله بالصلاة .. » وانما نقول : « ان الصلاة عبادة فاضلة .. ومن مزاياها ان المصلى يتوضأ فيزيل ما به من أدران ولا تنبعث الروائح الكريهة من فمه أو من بين أصابع قدميه » !

● **الايمان عمق واصالة .. فهل يزداد ايمان الانسان بازدياد ثقافته وتعليمه ؟ ومن حارس العقيدة : المدرسة والجامعة ، أم البيت ، أم النفس البشرية ذاتها ؟**

● قد يكون اتسـاع الثقافة نعمـة ، وقد يكون نقمة .. فالثقافة تعطى المرء استعدادا ومرونة لتثبيت العقيدة .. ولزعزعتها أيضا !

وحراس العقيـدة فى نظرى هم : البيت ، والمدرسـة ، ورفقـة الأصدقاء ..

***



الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي

الله .. للمغنى وليس للمعنى !

« ... فى القرن الماضى كانت تلاوة القرآن عملا دقيقا مثل صناعة الساعات ! وكان للعمل أصول : قارىء القرآن كان بالضرورة أستاذا فى علوم الموسيقى .. وكان يبدأ تلاوته بنغمة « البياتى » وبطبقة صوتية منخفضة ، ثم يختم تلاوته بذات النغمة وذات الطبقة الصوتية .

أما قارىء هذه الأيام فيهمل الطبقة الصوتية ، ويبدأ تلاوته بالنغمة التى تروق له ، ويختمها بأى نغمة تخطر على باله ! »

حقيقة ان قارىء القرآن فى مصر نسـيج وحـده .. أى ليس له مثيل .!

ابحث فى الحجاز والعـراق وبلاد الشـام .. فى تركيا والأردن والسودان .. لن تجد من ينافس القـارىء المصرى فى اللهجة والأداء والذوق فى الالقاء .

ــ والسر يا شيخ عبد الفتاح ؟

« لقد جبلوا على ذلك .. تراث قديم ورثوه ، ولهجة عربيـة حلوة مستساغة يفهمها من يسمعها .. أما فى سائر الأقطار العربية ، فقراء القرآن يتأثرون باللهجات المحلية التى لا يفهمها غير أهل البلد ، وفى أى بلد آخر ــ غير مصر ــ لا تجـد من يضـع يده فوق صـدغه ويتذوق القرآن غيبا آية آية .. انهم هناك ــ فى كل الدول العربية ــ يتربعون فى الحفلات والمـآتم .. يفتحون أمامهم مصحفا كبيرا ، ثم يتلون آيات الله سطرا سطرا .. !

وقراءة القرآن اهتزت هـذه الأيام ، كانت فطرة وعلما فأصبحت صنعة وزخرفا . فى أواخر القرن الماضى ، كانت تلاوة القرآن عملا دقيقا مثل صناعة الساعات . وكان للعمل اصول : قارىء القرآن كان بالضرورة استاذا فى علوم الموسيقى .. وكان يبدأ تلاوته بنغمة « البياتى » وبطبقة صوتية منخفضة ، ثم يختم تلاوته بذات النغمة وذات الطبقة الصوتية . وآخر هذه المدرسة من المقرئين علماء الموسيقى كان الشيخ على محمود ــ وسعته جنات ربه ــ .. اما قارىء هذه الأيام فيهمل الطبقة الصوتية ويبدأ تلاوته بالنغمة التى تروق له ، ويختمها بأى نغمة تخطر على باله !

وكانت التلاوة فى الماضى وحدة فنية .. الليالى يحييها فى العـادة ٤ قراء يقرأون بالتتابع ، فلا تنقضى ليلتـان الا وقد أتوا على المصحف باكمله .. واليوم ، يشترك القراء فى الليلة الواحدة يبدأ أولهم بسورة « عم يتساءلون » ويتبعه الثانى بأول سورة « البقرة » !

***

قال لى شيخ المقرئين عبد الفتاح الشعشاعى :

● نسبونى الى بلدى «شعشاع» مركز اشـمون .. انما اسـمى الحقيقى عبد الفتاح محمود ابراهيم كرير حماد .. وعائلة «الكرايرة» مشهورة فى شعشاع كالشمس .

ولدت فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٠ ، كان أبى قارئا يحيى الليالى فى بيوت الناس ، ويحيى النهار فى بيته يعلم أولاد الناس ويحفظهم القرآن .. علمنى أبى القراءة ، بدات أحفظ القرآن على يديه وعمرى ٨ سنوات . وبعد ٥ سنوات كنت قد حفظته ..أبى كان يعلمنى لكى أخلفه فى قراءة القرآن ..

● سافرت طنطا لأجود القرآن على يد معلم خاص . تعلمت التجويد عند الشيخ اسماعيل شافعي فى بيته .. علمنى مبادىء التجويد وأصول المد بالقراءة العادية .. قراءة « حفص » ..

● جئت الى القاهرة سنة ١٩٠٤ ودخلت الأزهر .. درست « القراءات السبع » وهى سبع قراءات اجمع عليها سبعة ائمة فى صدر الاسلام .. منهم الائمة : نافع وحمزة والكسائى وابن عاصم وحفص .. تعلمت هذه القراءات على يد الشيخ محمـد بيومى والشيخ على سبيع وهمـا من اشهر معلمى القراءات فى ذلك الزمان ..

● دخلت مدرسة لتخريج المعلمين فى قليوب .. اخذت منها شهادة عريف وفقية . اشتغلت ثلاثة سنوات أدرس فى مدرسة افتتحها أبى فى شعشـاع .. كنت أدرس لصبية المدرسة كل العلوم .. القرآن والدين والحساب والاملاء والخط والانشاء ! كان ابى يأخذ مكافاة سـنوية من نظارة المعارف بعدد تلاميذ مدرسته .. لم يكن يعطينى شـيئا غير الأكل والشرب .. وكان يقول لى : ليس للولد عند الوالد شىء .!!

● بدات اقرأ القرآن .. قرأت فى شعشـــاع وفى قرى المركز المجاورة . كان أجرى « ريال فضة » فى الليلة . اما المأتم الذى يستمر ثلاثة أيام فكنت أتقاضى عنه جنيها من الذهب .. بشرط أن أحيى ليله ونهاره . !

● حتى سنة ١٦ ، كانت شهرتى قد مسحت المنطقة كلها .. كنت قد تزوجت من طنطا واصبحت لى عائلة .. قررت أن أسافر الى القاهرة وراء رزق أوسع ..

● سكنت فى بيت متواضع « بالدرب الأصفر » فى حى الجمالية . الجزار الذى اشترى من عنده عرف اننى مقرىء .. والبقال .. والحلاق حتى عرف اسمى فى الحى كله . بدات بأجر ٥٠ قرشا فى الليلة .. فى سنة ١٨ قفز اجرى الى جنيهين كنت اقبضهما ذهبـا ، واحيـانا كنت اقبضهما ورقا وادفع من جيبى ٥ قروش فوق العملة .. فقـد كانت قيمة الجنيه الذهب ٥ر٩٧ قرشا فقط !

● فى ذلك العصر كان الأعيان فى القرى يحيون أفراحهم بفرقة من الموشحين .. وسنة ١٩ دعانى أحد أعيان قرية « سنو » مركز منيا القمح

لاحياء فرح ابنته . مع ٥ من المرددين . وسهرنا ليلتنا . وفى الصباح قامت الثورة !

انقطعت المواصلات ولا سبيل للعودة الى القاهرة .. استضافنا « عقل بك » أحد أعيان كفر الشيخ وأمضينا عنده ليلتين .. ركبت حنطورا مع بطانتى الى « قلين » . وقفنا على المحطة ننتظر قطارا ، فلم نجد غير قضبان تمتد أمامنا بلا نهاية ! غرقنا فى الحيرة ، ولمحنا احد الأهالى فعزم علينا بالمبيت .. بتنا عنده ليلة ، وفى الفجر أحضر لنا قطيعا من الحمير ركبناه الى قرية « سرد » على ترعة الجعفرية . ركبنا مركبا الى طنطا . لم يكن للمركب شراع يدفعه ، كان يجره زوج من البغـال يسيران على الشاطىء وراءهما أحد الأنفار يفرقع بكرباجه !

وصلنا طنطا وقت الظهر .. ركبنا مركبا آخر فى ترعة القاصد الى شبين الكوم ، وصلنا فى منتصف الليل الى جسر القاصد على مشارف شبين الكوم .. لمحنا بعض الأهالى فنصحونا بألا ندخل المدينة ، قالوا لنا ان الانجليز يملأون الشوارع ويطلقون الرصاص على كل من يصادفهم من الأهالى .. عبرنا جسر القاصد ومشينا فى طريق زراعى ضيق حتى وصلنا قرية « ميت خاقان » .. حكينا قصتنا لكل من قابلنا من اهل القرية . ولكن أحدا لم يستضفنا ! بتنا ليلتنا فى مسجد القرية .. واستأنفنا المسير الى شبين الكوم فى الصباح . ركبت حنطورا مع أفراد بطانتى الى منوف .. ركبت موتوسيكلا بـ « سيدكار » الى شعشاعة . كنت قد خرجت من شعشاعة يوم خميس ، وعدت اليها الخميس التالى . كنت قد تقاضيت فى السهرة ١٢ جنيها ، أعطيت نصفها للمرددين .. وصرفت الباقى على متاعب الطريق !

***

● انتشر اسمى فى القطر كله .. شهدتنى نجوم الليل وأنا أقرأ القرآن فى أفراح قرى الوجه البحرى ومآتم قرى الصعيد .. توغلت فى الوجه البحرى حتى ساحل البحر ، وتوغلت فى الوجه القبلى الى أسوان . كان أجرى فى القاهرة ٤ جنيهات ، وفى القرى ١٠ جنيهات لليلة .. !

● مات الملك فؤاد سنة ٣٦ ، اتصل بى رجال القصر وطلبوا منى أن احيى ليالى المآتم ، احييت المآتم ثلاث ليال فى الفناء الداخلى لقصر عابدين .. اشترك معى فى احيائه الشيخ محمد رفعت ، والشيخ على محمود والشيخ محمد الصيفى .. تقاضى كل منا ٤٠ جنيها فى الليلة الواحدة !

● كانت الاذاعة قد طلبت منا ان نقرأ فيها ، قبل الشيخ محمد رفعت ورفضت العرض أنا والشيخ على محمود .. كنت اعتقد ان القراءة فى الميكروفون اهانة لكلام الله ! سمعت الاذاعة صوتى فى مأتم الملك فؤاد فتمسكت بى .. جاءنى سعيد لطفى مدير الاذاعة فى البيت وفى جيبه فتوى من الشيخ الأحمدى الظواهرى شيخ الأزهر بأن القراءة فى الراديو ليست محرمة ولا مكروهة .. حاولت أن أتملص منه ، ولكنه أمسك بيدى وقال : « يا شيخ عبد الفتاح انا جايب لك ٥٠٠ جنيه فى السنة لأولادك .. حرام تحرمهم منها » !

قبلت على مضض .. كان هذا الأجر أكبر أجر يتقاضاه مقرىء فى الاذاعة .. بدأت اقرأ فى سورة « البقرة » وكنت أقرأ فى « ختمة » وحدى .. ابدأ من حيث وقفت حتى أختم القرآن ، فأبدأه من اوله وجديد !

سنة ٤٣ ، كان الملك فاروق يحيى ليالى رمضان فى قصر عابدين ، كانت آيات الله تتردد فى جنبات القصر ، بينما هو فى جناحه يفسق ويترع كؤوس الخمر ! سهرت شهرا ، وفى السنة التالية اتصل بى رئيس الديوان فاعتذرت .. قال لى « ليه يا شيخ شعشاعى ؟ » قلت : « والله كيفى كده » .. ثم وضعت سماعة التليفون !

● سافرت الحجاز مرتين للحج .. فى المرة الثانية سنة ٤٨ ، كانت الحكومة السعودية قد ركبت ميكروفونات فى الكعبة وفى الحرم النبوى .. كنت معتادا أن اسهر فى الحرم ما بين المغرب والعشاء اقرأ القرآن على الملأ من المسلمين .. الحجاج من أهل نجد يعتبرون القراءة فى مكبرات الصوت حراما ، اتصل بى أحدهم وطلب منى ان أكف عن القراءة ! ..

انقطعت ليلة ، وفى الليلة التالية كنت أجلس على سفح الجبل فى بيت الحاج محمد سرحان المطوف .. واذا برسول يهمس فى أذنى : « ان الأمير فيصل حاكم مكة يريد أن يسمعك هذا المساء ..

واستأنفت عادتى لم اقطعها بعد ذلك ابدا . !

● سافرت العراق مرتين .. مرة سنة ٥٠ احييت فيها مأتم « الملكة عالية » ومرة سنة ٥٥ احييت فيها مأتم « الأميرة جليلة » ..

ان فى العراق شعبا يسمع القرآن ! كنت اقرأ فى مسجد الأحمدية ببغداد وما كدت انتهى من قراءتى حتى هجم على المستمعون كل يريد أن يسلم على .. وفى الزحام كسروا لى ضلعا من أضلعى !

● كان بينى وبين الاذاعة عقد بسنة يتجدد من تلقاء نفسه ..

اما الآن فيربطنى بالاذاعة عقد وقتى معلق بالاذاعة الواحدة .. وانا اذيع نصف ساعة فى سهرة يوم الخميس أجرى عنها ٢٠ جنيها ، وهو أعلى أجر لا يتقاضى مثله غير الشيخ مصطفى اسماعيل !

هذا بالاضافة الى قراءة «سورة السيدة زينب» يوم الجمعة . وهى وظيفة ثابتة تعطينى عليها وزارة الأوقاف ١١٥ قرشا فى الشهر ! بينما يبلغ متوسط أجرى فى الليالى ٥٠ جنيها لليلة الواحدة !

***

قلت لشيخ المقرئين :

● **ما هى أنواع القراءات السائدة فى مصر ؟**

ـ قراءة واحدة ، هى قراءة « حفص » .. وهى احدى القراءات السبع. والامام حفص كان مشـهورا بالاتقان .. وقد ذكره الامام الشـاطبى بقوله : « وحفص بالاتقان كان مفضلا » .

● **كيف تكيف القراءة بأجر .. هل هى : عمل . تجارة . فن يبـاع بمقابل . تعبد له ثمن ؟ !**

ـ تلاوة القرآن للتعبد والعلم ونشر الدين .. وجمال الصوت اتفق الأئمة على أنه هبة .. عطاء من الله يعطيه لمن يشاء من عباده .. وأنت اذا أعجبك زيد من الناس يتلو القرآن بصوت جميل يجلب مشاعر المستمع ولا ينفرها ، ثم حلا لك أن تعطى هـذا الزيد من الناس مبلغا من المال اعجابا واثابة ، فان هذا المبلغ يعتبر منحة منك .. فأجر القراءة اذن منحة تمنح من باب الاعجاب والثواب !

● **هل تبذل مجهودا خاصا لحفظ القرآن غير تلاوتك المعتادة ؟**

ـ انا اقرأ كل يوم فى المصحف ـ أو من غير مصحف ـ ربع القرآن أحيانا .. وأحيانا جزءين أو ثلاثة أجزاء .. وفى بعض الأحيـان تعتل صحتى فلا أقرأ شيئا !

وأنا أتخذ هذه المسألة « وردا » يوميا ، والا طار منى القرآن وذهب من حيث اتى . !

● **وانت تتلو آيات الله .. هل تعيش فى معانيها ؟**

ـ ان قارىء القرآن يثـاب على تلاوته بمعنى وبغير معنى .. وأنا اتصور معانى الآيات وأنا أقرأ بقدر مايطيق اطلاعى وفهمى .

● **اذن قل لى : ما هو اجمل معنى تضمنته آية ؟**

ـ القرآن لا تنتهى عجائبه ولا معـانيه .. تكفى فيـه آية تقول : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » ..

● من هو مقرئك الذى تسمعه ؟ .

ـ كل المقرئين الدين يتقون الله فى تلاوتهم .. يؤدون الأداء الصحيح، ويخرجون الحروف من مخارجها ، ولا يتلاعبون بحركات المد أو التنغيم .

والمقرىء الذى لا يقف على رءوس الآيات ، ويبالغ فى حركات المد ، قد يعجب نوعا من المستمعين ولكنه لا يعجبنى . !

● فى العادة ، ينصت المستمعون حتى يقف المقرىء وقفته ، ثم يصرخون : الله . الله يا سيدنا الشيخ . هذه الـ ((الله)) هل هى للاعجاب بالمعنى أو المغنى ؟ !

ـ اغلب الظن انهم يقولونها للاعجاب بالمغنى .. والله أعلم بما فى النفوس !

● أريد أن تزن هؤلاء المقرئين وتقول لى كم يزنون : محمد رفعت ، منصور الشامى الدمنهورى ، عبد الباسط عبد الصمد ؟

ـ محمد رفعت : أحسن من رتل بصوته آيات الله .. صوته جميل كامل من « القرار » وسليم فى «الجواب» . الدمنهورى : كان رحمه الله مقرئا عاديا لا يميزه شىء !. عبد الباسط : مقرىء ناشىء ذو حظ عظيم ! وكلهم احترمهم كأولادى وأسأل لهم التوفيق !

● هل لك معجبات ؟

ـ سنة ٤٦ جاءتنى امرأة من تركيا لها جمال الحور .. قالت لى انها تهوى تلاوة القرآن وانها معجبة بصوتى .. ثم رجتنى أن تقرأ امامى ، قلت لها : تفضلى . واذا بوجهها يمتقع امتقاعة الموت وبدنها يهتز كأنه يتعرض لتيار كهرباء . ثم بدأت تتلو برهبة وخشوع وكأن الله أمامها يستمع الى كلامه ! .

لقد جاءتنى هذه المرأة معجبة بى ، وقامت من عندى وأنا معجب بها !

● تأثير ما يضفيه القرآن على حياة من يحملونه ويتلونه .. بالنسبة لك ما هو هذا التأثير ؟

ـ خاطر مرتاح ، وقلب مطمئن ، ودنيا أزهدها ، وآخرة يؤرقنى الأمل فيها !

● هل ترشح لى من يخلفك ليكون شيخا للمقرئين ؟

ـ لا أرشح أحدا غير من ينصفه حظه وتخدمه تقواه !

الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ١٤٠
الثمن ٣٥ ص
١٩٦٦/٩/١